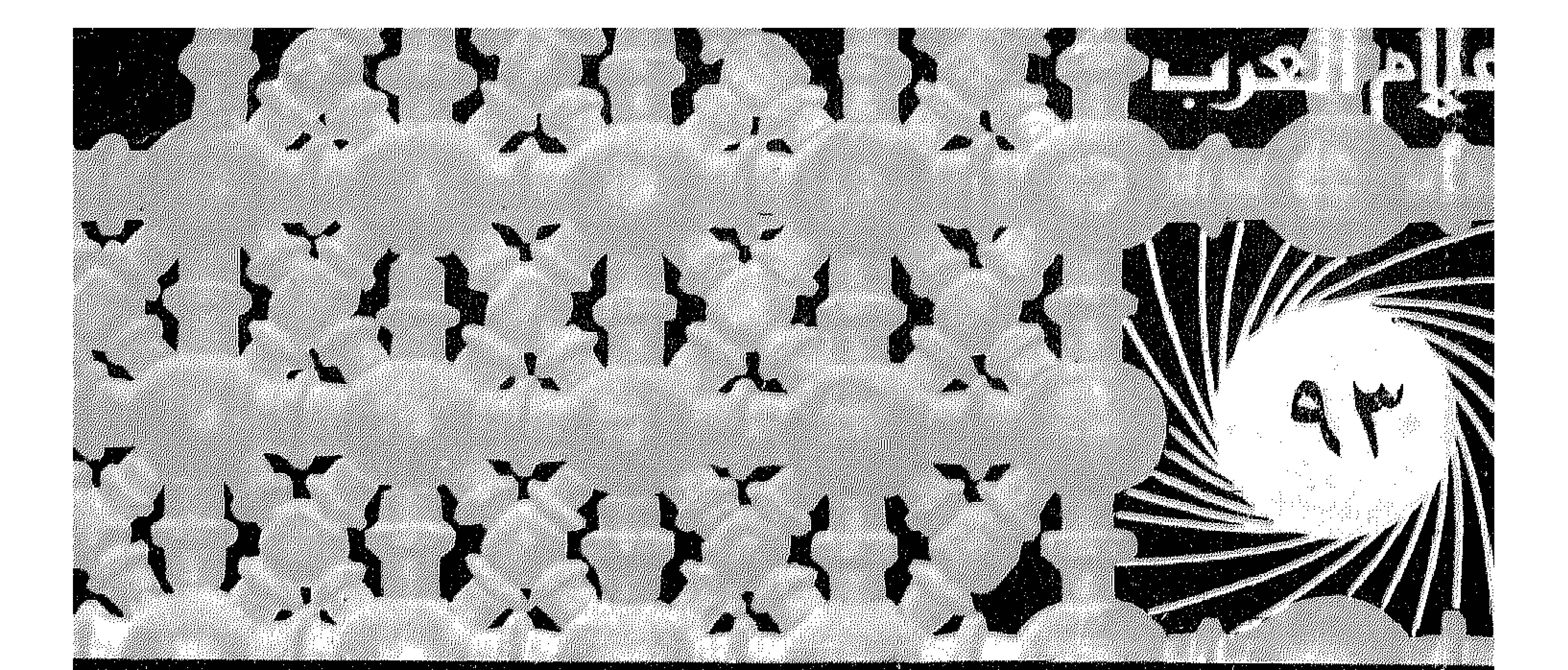


ياقوت الحموي

الجغرافي الرحالة الأديب

بقلم

أبو الفتوح محمد التوانسي

أعلام العرب
٩٣

ياقوت الحموي
الجغرافي الرحالة الأديب

بقلم
أبو الفتوح محمد التوانسي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه الحضارة العربية الاسلامية قد احتلت مكانها المرموق بين الحضارات الانسانية عقب انهيار الحضارتين الرومانية والفارسية وحين أشرقت على العالم بأضوائها الباهرة ـ كانت تستند الى قواعد وأصول دينية ، تشمل أسمى نظام عرفته الانسانية فى تاريخها الطويل ، هذا النظام الجديد الفريد جاء يدعو الى عمارة الأرض ، واستثمار خيراتها المباركة ، ويجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، ويوفق بين مطالب الروح وحاجات الجسد ، ويسوى فى العزة والكرامة بين الأسود والأبيض ، ويبنى العقيدة على الحرية والاختيار ، ويتيح للنفس الانسانية مجالات الرقى الروحى والخلقى .

ذلك النظام هو الاسلام الذى ساد أكبر جزء من العالم فى ذلك الحين فى سنوات قليلة ، وبنى فلسفته الآلهية ، وأسسه الحضارية على المؤاخاة بين العقل والدين ، واستخدام الفكر والمنطق فى خدمة قضايا الانسانية وحل مشكلاتها .

وكانت الانسانية يومئذ فى أدق مرحلة من تاريخها ، فوجدت

فيه علاجا حاسما لاضطرابها ، ودواء ناجعا لعللها وأسقامها ، وعندئذ سلك سبيله الى الانتشار السريع ، الذى أثار الدهشة والاعجاب فى العالم كله .

ومما يلفت النظر فى النظام الحضارى الاسلامى أنه فى أصل تكوينه قام يدعو الى احترام العقل ، ويحث على طلب العلم ، والانتفاع بثمرات الفكر ، فكانت أول آية نزلت من القرآن الكريم دعوة كريمة الى تعلم القراءة :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (١) .

وقد كانت القراءة ـ ومازال ـ أداة التحصيل العلمى، ومفتاح أبواب الحكمة وكنوز المعرفة الانسانية ، فما لبث أن تدفق تيار الحركة العلمية فى الاسلام ، يحمل معه علوم الدنيا والآخرة ، وأخذت الحضارة العربية الاسلامية تزحف الى الأقاليم المفتوحة ، وتظلل بأجنحتها القوية بلدانا كثيرة ، حتى وصلت الى جنوبى فرنسا غربا والى غربى الصين شرقا .

ونحن حينما نطلق كلمة (الحضارة) فاننا نريد منها الاجتماع البشرى ، وما يصحبه من رقى وتأخر ، وتأثير وتأثر ، ويذهب علماء

---

(١) سورة العلق الآيات من (١ ـ ٥) .

تاريخ الحضارة الى أن المدنية تستهدف النواحى العلميـة والمادية ، وما يتصل بها من اختراع وابتكار فى حياة الأمم •

وأما (الثقافة) فيراد منها الجـوانب الروحيـة والمعنوية ، التى تتمثل فى الدين والعادات والتقاليد والفنون والآداب والفلسفات ، ومذاهب الحياة ، غير أنهم قد يعدلون عن هذا أحيانا ، ويقولون : ان الحضارة مرادفة للمدنية وجامعة لمعانى الثقافة •

وعلى هذا الأساس اذا تحـدثنا عن حضـارة العرب والمسلمين فاننـا نقصـد منها الأسس التى وضعها الاسـلام متمثلة فى العقائد والأخلاق والآداب ونظم الحياة ، وما أبدعه المسـلمون فى البيئـات التى أظلتها راية الاسلام من علم وفن وأدب وفلسـفة وحكمة ، وما ابتكروه من مخترعات ، ووصلوا اليه من مكتشفات أثرت علم الانسانية ، وزادته خصبا ، حتى غدا علما واسعا ، يتناول كل شئون الحيـاة ، وعلما عمليـا تطبيقيـا ، يستخدم فى النهوض بالبشرية ، وتوفير الخير للانسانية ، واذا رجعنا الى المصـادر العـربية ــ وفى مقدمتها معاجم اللغة ــ وجدناها تفسر الحاضرة بأنها خلاف السكنى فى البـادية ، ويعرفها ابن خلدون بالتوسع والتـأنق فى أسـباب المعاش ، فى حين أن البداوة هى الاكتفـاء بالضرورى من أسـباب المعاش ، ثم اذا ألقينا نظرة سريعـة على تاريخ الحضـارة العـربية الاسـلامية ــ وجدنا العـرب والمسـلمين قد أضـافوا الى التراث الانسـانى ثروة ضخمـة فى مختلف العلوم وقد حـاول كثير من

العلماء والمؤلفين من العرب والمسلمين ـ أن ينوهوا عن هذا التراث العظيم ، فنرى ابن خلدون يعقد فصولا ممتعة فى مقدمته المشهورة عن علوم العرب والمسلمين ، ونجد (حاجى خليفة) يفعل مثل ذلك فى كتابه (كشف الظنون) ، وصديق حسن خان العالم الهندى المسلم يؤلف موسوعته الضخمة فى ذلك وهى كتابه المشهور (أبجد العلوم) ، ثم ابن النديم فى فهرسته ، وكذلك حاول علماء عصرنا العرب فى مصر وفى الأقطار العربية تسجيل انطباعاتهم عن مضمون الحضارة العربية الاسلامية فى كتبهم ومحاضراتهم .

أما علماء الغرب فقد تحدث كثير منهم عن علوم العرب والمسلمين ، ومنهم (ألدوميلى) الايطالى فى كتابه (العلم عند العرب) ، وسارطون العالم الأمريكى فى كتابه (تاريخ العلم) وجوستاف جرونباوم فى كتابه (حضارة الاسلام) وغيرهم ، ولكن مما يدعونا الىالأسف البالغ أننا نرى الغربيين يهتمون اهتماما بالغا بدراسة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية فى مؤلفاتهم الضخمة فى عصرنا ، ونحن أبناء تلك الحضارة نعزف عنها كل العزوف ، مع أن ثورتنا التى نعيش فيها ، ومجتمعنا الجديد الذى نؤمن بمبادئه، وندين بقيمه واتجاهاته ـ يقومان على احياء النظم الاسلامية ، وتجديد شباب الاسلام ، ويستمدان أهدافهما من الحضارة العربية الاسلامية ، ولا شك أن ذلك مما يدفعنا فى حماس واصرار الى دراسة تاريخ هذه الحضارة .

وفى كتابى هذا أقدم للقراء العرب والمسلمين ياقوتا الحموى، وهو أحد أعلام الجغرافية المسلمين ، الذين يكونون بحوثهم فى الجغرافية الوصفية والطبيعية والفلكية حلقات مترابطة فى سلسلة تاريخ الأدب الجغرافى العربى والحضارة العربية الاسلامية ، لعلى بذلك أرسم خطا واضحا فى الطريق ، لتوجيه شباب العرب والمسلمين الى الاقبال على الدراسات العربية الاسلامية ، فى مختلف صورها ، باعتبارها الآن الأساس القوى لمنطلقنا الثورى فى الميدان العلمى ، وفى جميع نواحى الحياة ، وليس فى هذا التوجيه دعوة الى الرجوع الى العلم القديم ، وانما هو تنبيه خالص على ما فى حضارتنا العربية الاسلامية من جوانب كثيرة صالحة للبناء ، يمكن وصلها بالعلم الحديث ، والسير فيها قدما الى الأمام ، والعرب قد خاضوا فى اقتدار وأصالة فى نواح كثيرة من مختلف الثقافات الانسانية، وسجلوا فى كل ناحية انتاجا عظيم القيمة، اذ بعد أن نقلوا التراث اليونانى وغيره من تراث الأمم القديمة نقلا أمينا دقيقا — أخذوا يتوافدون على دراسته ، وتصحيح ما فيه من أخطاء ، ثم انتقلوا من هذه المرحلة الى مراحل الاستيعاب والهضم والتوليد والابتكار ، حتى وصلوا الى تراثهم الضخم العظيم ، الذى ينسب اليهم ، وكانت علوم الجغرافية من العلوم التى اشتغلوا بها بدافع حاجتهم الى التنقل والأسفار وركوب البحار ، ولبعض البواعث الدينية الأخرى .

وقد التزمت فى هذا الكتاب تقسيمه الى أربعة فصول بعد المقدمة تيسيرا لدراسته ، فالفصل الأول فى الجغرافية عند العرب فى الجاهلية والاسلام والقرآن والجغرافية والفصل الثانى فى عصر ياقوت فى ميزان التاريخ ، وفى حياة ياقوت ونشأته وثقافته ، وتفوقه فى وضع الموسوعات الجغرافية والتاريخية والأدبية، والفصل الثالث فى نماذج من معجم البلدان ، وفى مادة المعجم وقيمتها الجغرافية والأدبية والتاريخية ، والفصل الرابع فى ياقوت بين الجغرافيين ، ومعجم الأدباء والرأى فيه ، وفقنا الله فيما فيه مستقبل وطننا العربى الكبير و ورحم الله الزعيم الخالد فقد كان رائدا للعروبة وحامى حمى الاسلام •

الفصل الأول

العرب والجغرافية فى عصر ما قبل الاسلام :

كانت العرب فى الجاهلية تعرف الجغرافية بمعنى وصف الأرض ؛ لأنهم كانوا على خبرة واسعة بوصف بلادهم ومواطنهم ، مما لا تعرف أى أمة من وصف بلادها ، ولما اتسعت فتوحاتهم بعد الاسلام سموا هذا الفن : « علم المسالك والممالك » أى الجغرافية الوصفية التخطيطية ، أما الجغرافية الرياضية التى تبحث فى شكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب ، فقد نقلوها عن الهنود ، ثم عن اليونان .

ويرجح الباحثون أن معلوماتهم الجغرافية تقوم أساسا على التجارب العملية ، التى يحتاج اليها التجار عادة ، والتى يستعين بها العرب الرحل على تتبع مساقط الغيث ومنبت الكلأ والعشب ، وقد كان العرب ـ وبخاصة سكان القسم الجنوبى من الجزيرة العربية ـ

يقومون بدور الوسيط التجارى بين الهند وأفريقية الشرقية وبلاد دجلة والفرات والامبراطورية الرومانيـة ، ولا شك أن المعلومات الجغرافية التى كانت وليدة هذه الحـاجة ـ وكانت تتنـاول وصف الطرق والآبار وموارد المياه والجبال والقبـائل وغيرها ـ قد تردد صداها بين المؤلفين العرب وغيرهم ، ممن عاشوا فى هذه الأعصار ، ويشير (كراتشوكوفسكى) فى كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» الى بعضهم ، ومنهم العالم الكلاسيكى القديم (ايزيدور الخركى) ، ويقول : انه وضع مصنفا وصف فيه طرق القـوافل بين انطاكيـة وحدود الهند ، وهو من سكان سواحل الخليج (الفارسى) العربى ، وربما كان عربى الأصل ، ويعلق على ذلك الأستاذ صلاح الدين هاشم مترجم كتاب العلامة الروسى بقـوله : « انه لا يُعلم من أمر (ايزيدور) هذا شىء يذكر ، ويبدو أنه من مدينة تجارية تقع على فم الخليج (العربى) ويظن بعضهم أنها (المحمرة) ، وأنه عاش أيام (أغسطس قيصر) فى القرن الأول الميلادى » .

ولكن هذا الكتاب وغيره من الكتب التى يقال انها قد ألفت فى ذلك العهد البعيـد ـ لم تعكس بالدقـة المعلومات الواضحة عن التصورات الجغرافية للعرب فى جاهليتهم ، ولكن الشعر الجاهلى قد حفظ لنا كثيرا من هذه المعلومات ، كما سنوضحه بعد ، ومن الواضح أن هذه المعلومات كانت محدودة ؛ لأنها كانت داخل الاطار الذى رسمته طبيعة الحياة فى العصر الجاهلى .

لقد كان العـرب فى جاهليتهم على علم دقيق بأحـوال الجـو والكواكب والنجوم ، وقد ساعدهم على هذا واقع حياتهم ، اذ كان عليهم أن يعلموا شيئا عن النجوم الثابتة وسير الكواكب المتحركة ، وغيرها من الأجرام السماوية ، كما كان عليهم أن يتابعوا تغيرات الطقس ، فعرفوا مدارات الكواكب وهى السـموات ، وقد عرفوا السماء بأنها كل ما علاك فأظلك ، ويتفق اعتقادهم فى السماوات مع معتقـدات أصحاب الأديان السـابقة ، فأطلقوا على السماء الدنيـا (الرقيع) وعلى السماء الثالثة (الصاقورة) أو (الحاقورة) وعلى السماء الرابعة (الخضراء) ، وعرفوا الفلك بأنه مدار النجوم الذى يضمها ، والمجرة بأنها (أم النجوم) ومن كواكبها الشمس ، وأطلقوا على القمر (الهلال) من أول أن يهل الى ثلاث ليال ، ثم هو قمـر بعد ذلك الى أن يهل عليهم ثانيا ، ويبدو أن القمر كانت له أهمية خاصة فى حياتهم تفوق غيره من النجوم ، وقد عبر عن ذلك ابن منظور الافريقى بقوله : « أنسوا بالقمر ؛ لأنهم يجلسـون فيه للسمر ، ويهديهم السبل فى سرى الليـل والسـفر ، ويزيل عنهم وحشـة الغاسق ، وينم على المؤذى والطارق » .

ولأهمية القمر عندهم جعلوا له منازل وأنواء ، والمنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، وهى عند أهل الهند سبعة وعشرون ؛ لأن القمر يقطع فلك البروج فى رأيهم فى سبعة وعشرين يوما وثلث يوم ، ولكنهم حذفوا الثلث ؛

لأنه ينقص عن النصف ، كما هو فى اصطلاح علماء التنجيم .

وأما عند العـــرب وسـكان البـادية فهو يقطعها فى ثمـانية وعشرين يوما ، وكانوا يقســمون هذه المنـازل الى أنواء ويقول أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجى فى كتاب الأنواء :

« السنة عند العرب أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، ولكل نوء ثلاثة عشر يوما ، الا نوء الجبهة فانه أربعة عشر يوما ، فزادوا فيه يوما ، حتى تكمل الســنة ، وتصبح ثلاثمائة وخمســة وستين يوما » .

والعرب يجعلون النوء للغـارب من الكواكب ؛ لأنه ينهض للغروب متثاقلا ، ويقول المنجمون منهم : انه الطالع وذهب المبرد الى أن النــوء هو على الحقيقــة الطالع من الـكواكب لا الغارب . وللأنواء ارتباط وثيق بالظواهر الجوية ، ولذلك نراهم فى أكثر الأحيان يريدون من النوء المطر ، وان كان قد عرف فى المصطلحات الحديثة بمعنى العاصفة البحرية ، وعرف العرب كثيرا من الكواكب غير القمر ، عرفوا (الزهرة) « Venus » وعطارد Mercury وعرفوا من النجوم ما يناهز مائتين وخمســين نجما ، وقسم العرب منطقة فلك البروج الى اثنى عشر برجـا ، جمعها بعض الشــعراء فى قوله :

حمل الثَّوْرُ جوزةَ السرطانِ ورعى الليثُ سنبل الميزانِ

وزنوا عقربا وقوسا بجدْى ومن الدلو مشربُ الحيتانِ

وقسموا السنة أربعة فصول : الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وعرفوا أحوال الجو المختلفة ، وما يعقب ذلك من الظواهر الجوية .

ومن معارف العرب فى جاهليتهم ما يسمونه (علم نزول الغيث) ، وقد كانوا بما لهم من تجارب فى هذه الناحية يستطيعون أن يستدلوا بأحوال الرياح والسحاب والبرق على نزول المطر ، ولعلهم كانوا أبرع من غيرهم من الأمم القديمة فى التنبؤ بوقت نزول الغيث ؛ لأنهم كانوا فى أشد الحاجة اليه ، اذ كانت حياتهم من سقى وزرع متوقف عليه ، ويروى صاحب الأغانى قصة ان دلت على شىء — فانما تدل على هذه الحاسة القوية الغريبة فى التنبؤ بالوقت الذى يجىء فيه الغيث يقول : خرج أعرابى مكفوف البصر ، ومعه ابنة عم له ، لرعى غنم لهما :

قال الشيخ لابنة عمه : أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى .

فقالت : أراها كأنها ربرب (١) معزى هزلى .

---

(١) (الربرب) : القطيع من بقر الوحش ، والمراد قطيع من المعزى الموصوفة بالهزال والضعف .

قال : ارعى واحذرى •

ثم قال بعد ساعة : انى أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك وانظرى •

قالت : أراها كأنها بغال دهم (١) ، تجر جلالها (٢) •

قال : ارعى واحذرى •

ثم مكث ساعة وقال : انى لأجد ريح النسيم قد دنا ، فانظرى•

قالت : أراها كأنها بطن حمار أصحر (٣) ، فقال : ارعى واحذرى •

ثم مكث ساعة وقال : انى لأجد ريح النسيم فماذا ترين ؟

قالت : أراها كما قال الشاعر :

دانٍ مُسفٌّ فُوَيْقَ الأرضِ هيدبُهُ ... يكادُ يدفعه من قام بالرّاحِ (٤)

كأنما بين أعلاهُ وأسفلِهِ ... ريطٌ منشَّرةٌ أو ضوءُ مصباحِ (٥)

---

(١) (بغال دهم) بغال سود •

(٢) (جلالها) : الجلال واحد هاجل ، وهو للدابة كالثوب للانسان ، تصان به •

(٣) (حمار أصحر) : حمار أبيض وفيه حمرة ، وصحر الحمار : نهق نهاقا شديدا •

(٤) (المسف) الدانى من الارض ، والهيدب : السحاب الذى يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة .

(٥) (الريط) : جمع ريطة : وهى كل ثوب لين رقيق •

فمن بمحفله كمن بنَجْوَتِهِ والمستكِن كمن يمشى بِقرْوَاحِ[1]

فقال : انجى لا أبالك ! فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليها •

وهذه القصة فى جملتها تدل على أن العرب لشدة ذكائهم وقوة حاستهم الفلكية ـ كانوا يستدلون بأوصاف السحب وألوانها المختلفة على قرب نزول الغيث ، كما تترجم عن سرعة بديهة ابنة عم الشيخ ، وقدرتها العجيبة على وصف النسيم بأوصاف دقيقة ، وتشبيهه بهذه التشبيهات المحكمة ، كذلك تدل على قوة حاسة الشم عند الشيخ المكفوف البصر والارتباط الغريب بين هذه الحاسة وأحوال النسيم المختلفة ، كذلك تدل أبيات الشعر التى وردت فى القصة على مدى احتفاظ الشعر العربى فى الجاهلية بكثير من معلومات العرب فى الجغرافية الفلكية ، وكأن ابنة عم الشيخ تقول فى هذه الأبيات التى تمثلت بها : ان السحب قد دنت من الأرض ، حتى لأكاد أدفعها بكفى ، وكانت الأضواء تخترقها فتفصل بين أعلاها وأسفلها ، وهى تريد أضواء البرق الخاطف، ثم هى لتزاحمها

---

(١) (فمن بمحفله كمن بنجوته) : المحفل : مجرى معظم السيل ، يريد ان اى ناحية منه سواء لكثرة المطر . والقرواح : الفضاء •

وكثرتها ترى كأنها قطعة سوداء فى كل نواحيها ، ولا يمكن أن يستتر منها انسان ـ الا اذا كان سائرا فى فضاء لا تحجبه تلك السحب .

وعرف العرب الرياح ، وهى عندهم أربع : الشمال والجنوب والصبا والدبور ، وقد أشاروا اليها فى شعرهم ويقولون : ان الشمال تهب من مطلع بنات نعش الى مغرب الشمس صيفا ، وكانوا يكرهونها لبردها ، ولأنها كانت تذهب بالغيم والحيا والخصب فى زعمهم ، وقد يسمونها أحيانا الشآمية ، وقد كانوا فى أثناء هبوبها يتمدحون بالانفاق والكرم ، وأما الجنوب فقالوا فيها :

انها تهب من مطلع سهيل الى مطلع الشمس شتاء ، وأما الصبا فمهبها من مطلع الشمس الى مطلع العيوق ، والعيون كوكب مضىء أحمر ، يقع شمالى مطلع الثريا بقدر ثلاث قامات رمح ، أو أرجح بالنسبة للرائى من الأرض ، ويطلقون عليها رقيب الثريا .

وكانت العرب تفضل الصبا من الرياح وتحبها ؛ لأنها ريح لطيفة رقيقة ، تأتى بالسحاب والمطر ، وفيها الرى والخصب ، ويسمونها أيضا اليمانية .

وقالوا فى سبب تسميتها بالصبا : ان النفوس كانت تصبو اليها ؛ لطيب نسيمها وروحها ، والصبوة عندهم الميل ، يقال : صبا الى كذا اذا مال اليه ، وجاء فى الأثر الشريف : « ما بعث نبى الا والصبا معه » .

وأما الدبور فمهبها من مغرب الشـمس الى مطلع سهيل ، وما بين كل واحدة من هذه الرياح الأربع صفات وخواص ، يعرفها ذوو الخبرة منهم •

ومما يستدلون به على نزول الغيث الرعد والبرق ، فالرعـد اذا أرزم : أى صوّت صوتاً غير شديد ـ استدلوا به على بعد نزول المطر ، واذا تهزم : أى صوت أشد الصوت ـ استدلوا به على قرب نزول المطر •

وكانت العـــرب فى الجاهليـة على علم دقيق بفنـون الملاحة البحرية ، مما يدل على أنهم ركبوا البحار ، لأن كثيرين منهم كانوا يعيشون على سواحل (بحر القلزم) البحر الأحمر ، وعلى السواحل المطلة على المحيط الهندى فى جنـوب الجـزيرة ، ومنهم من كان يعيش على شواطىء الخليج العربى ، وفى الجزر التى تقع فيه •

وهؤلاء جميعا كان منهم عدد كبير من التجار ، وكانت لهم تجارات واسعة فىالهند والحبشة وبلاد الروم ، وقد أشار (القرآن الكريم) فى كثير من آيه البينات الى ركوب العرب البحر ، وجريان الفلك بهم فوق ميـاهه المضطربة وأمواجه المتلاطمـة ، والشـعر الجاهلى ملىء بالأمثلة الناطقة ، التى تدل على الماهم الدقيق بفنـون الملاحة ، التى هى من وحى خبرتهم وتجاربهم العملية •

قال عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته المشهورة :

ملأْنا البرَّ حتَّى ضاقَ عنَّا وماءُ البحرِ نملؤُه سفينا

إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ تخِرُّ له الجبابِرُ ساجدينا

فالشاعر يقول : ان قومه لكثرتهم قد ضاق عنهم البر ؛ ولذلك ملئوا البحر بسفنهم الغادية والرائحة ، واذا بلغ صبيهم الفطام سجد له الجبابرة من غير العرب لشجاعته ، وخوفا من بأسه •

ولا يخلو قول الشاعر فى البيت الثانى من مبالغة ظاهرة •

ويدل اهتمام العرب — وبخاصة سكان سواحل الممرات المائية — بالسفن على علمهم الدقيق بصناعتها •

وقد صنعوها لتكون مركبا لهم فى البحر ، والسفينة مأخوذة من سفنه بسفنه اذا قشره ، وقد سميت بذلك ؛ لأنها تقشر وجه الماء ، وصاحبها (السفان) ، والدسار واحد الدسر ، وهى خيوط تشد بها ألواح السفينة ، ويقال هى المسامير ، ويشير اليها (القرآن الكريم) فى قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » ، والمجداف ما تجدف به السفينة ، والجؤجؤ : صدر السفينة ، والمرساة : آلة ترسى بها السفينة ، والنوتى : الملاح ، وهو الذى يلى الشراع ، والشراع كالملاءة الواسعة فوق خشبة ، تصفقه الريح ، فتمضى بالسفينة •

ومن أسماء السفن عنـدهم : الفلك والقـرقور ، والجارية ، والخلية ، وهى أسماء السفن الكبيرة •

ومن أسماء السـفن الصـغيرة : الزورق ، والبوص ، وقال الجوهرى : والبوصى ضرب من السـفن ، وهو معرب والقـارب سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية الكبيرة ، تستخف لحوائجهم •

لا شك أن هذه الثقافة اللغوية دليل على مبلغ علم العرب فى العصر الجاهلى بفنون الملاحة البحرية ، وقد كانت عنايتهم الواضحة بوضع أسماء لأنواع السفن المختلفة وأجزائها ـ نتيجة طبيعية لهذه الثقافة ، حتى قيل : ان علم الملاحة من أوسع علوم العرب ، وكان قائما على معارف ومعلومات ، كسبوها بخبرتهم ، ومنها معرفة سموت البحر ، ومهاب الرياح وعواصفها ، ورخائها ، وممطرها ، وغير ممطرها ، وجميع الأنواء ، وما فى البحار من جبال وجزر ، هذا بالاضافة الى أن العلم بصناعة النجارة،كان ضرورة يفرضها الاشتغال بالملاحة ، وقال ابن خلدون : « وقد يحتاج الى صناعة النجارة فى انشـاء المراكب البحـرية ذات الألواح والدسر ، وهى أجـرام هندسية ، صنعت على قالب الحوت ، ليكون ذلك الشكل أعون لهـا على مصادمة الماء » •

ان من المؤكد أن عرب الجاهليـة كانوا على علم بالجغرافيـة

الفلكية والوصفية ، وأن هذا العلم كان نابعا من تجاربهم ومما أملته عليهم ظروف حياتهم وبيئتهم .

الجغرافية الوصفية فى لغة العرب وشعرهم قبل الاسلام وبعده

بالرغم مما أشرنا اليه من علم العرب بصناعة السفن ، وأنهم قد أثروا لغتهم بأسمائها ، وأسماء أجزائها المختلفة ، فانهم أضافوا الى لغتهم ثروة أخرى ، كالتعريف ببعض المصطلحات الجغرافية ، وضمنوا شعرهم الكثير من أسماء الأماكن ووصف البقاع والمدن ، فهم يقولون : والجزيرة ما ارتفع عنها الماء ، وهى مأخوذة من الجزر ، الذى هو ضد المد ، ثم توسعوا فى ذلك فأطلقوا اسم الجزيرة على كل ما دار عليه الماء ، ويلاحظ أنهم لم يفرقوا بين الجزيرة وشبه الجزيرة ، بدليل أنهم سموا بلادهم جزيرة ، و لايحيط بها الماء الا من ثلاث جهات ، ويقولون فى وصف مدينة الرسول (صلوات الله عليه) .

فأما الحجاز ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة ، وأكمل السلام ، وقيل هى من نجد ، وهى بلدة طيبة مباركة ، كثيرة الخيرات ، عذبة المياه ، وافرة النخيل والثمار ، أهلها وسكنتها يودون الغرباء ، ويحبون من هاجر اليهم ، ويقولون فى الطائف :

وهو بطن من جبل غزوان بشرقى مكة ، وهو شديد البرد ،

كثير الفواكه ، لما فيه من كثرة البساتين ، التى تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال .

وأما نجد فهى أطيب أراض فى الجزيرة ، وقد لهج الشعراء قديما وحديثا بذكرها ، مترنمين برباها الجميلة ، وريا عطرها ، يقول شاعرهم :

أقولُ لصاحبي والعيسُ تَهْوِى بنا بين المُنيفة فالضِّمارِ[1]
تمتَّعْ من شَميم عَرار نجـــدٍ فما بعدَ العشيَّة من عرارِ[2]
ألا يا حبَّذا نفحاتُ نجدٍ وريَّا روضه غِبَّ القِطَارِ[3]

وقال ابن الدمينة :

ألا يا صَبا نجْدٍ متى هِجْتِ من نجدِ
لقد زادنى مَسْراكِ وجدًا على وجْدِ[4]

---

(١) (المنيفه) : ماء لتميم ، والضمار : اسم موضع ، وقوله فالضمار من حق العطف أن يكون بالواو ، لان بين لاتدخل الا بين شيئين متباينين ، وتأويل ذلك انه اراد بين أجزاء المنيفة .

(٢) (الشميم) : مصدر من شم يشم ، والعرار : وردة ناعمة صفراء طيبة لرائحة .

(٣) (النفح) : لضوع الرياح بالنسيم الطيب ، والريا : الرائحة ؛ القطار : جمع قطر وهو المطر .

(٤) الصبا : ريح القبول ، وهاجت : ثارت : والمعنى ألا ياصبا نجد=

وقال الصمة بن عبد الله :

قفا ودِّعا نجداً ومن حلَّ بالحمى
وقلَّ لنجد عندنا أن يُوَدَّعا

بنفسيَ تلك الأرضُ ! ما أطيبَ الرُّبا !
وما أحسن المصطاف والمتربَّعا !

ويقولون : ومن المدن المشهورة باليمن (صنعاء) وكانت من أحسن البلاد مساكن ، وأطيبها وأصحها هواء ، يقال : ان شتاءها فى غاية البرودة ، ومع ذلك لا يحصل منه ضرر لأحد ، وكانت هذه المدينة من أشهر بلاد العرب وأنزهها ، وكانت تحاكي دمشق الشام لكثرة مياهها وأشجارها ، وهى معتدلة الهواء ، حسنة الأسواق ، واسعة التجارة .

وقالوا فى (مأرب) : وهى من مدن اليمن القديمة ، كانت لطيفة الهواء حسنة التربة ، لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة ، حتى ان الغريب اذا دخلها وفي ثيابه (قمل) أو (براغيث) ماتت ولذلك وصفها القرآن الكريم بأنها بلدة طيبة ، وقيل : المراد بطيبها صحة هوائها ، وعذوبة مائها ، ووفور نزهتها ، وأنه ليس فيها حر يؤذى فى الصيف ، ولا برد يؤذى فى الشتاء ، وكان عن

= متى كان هبوبك من نجد ، التى هى ارض الاحباب ، فلقد زادنى مسراك حزنا على حزن ، فما كان منك هبوب الا كان منى وجد .

يمين البلدة وشمالها بساتين كثيرة ، ويقال ان لكل منزل من منازل البلد جنة عن اليمين ، وأخرى عن الشمال ، وذلك بسبب كثرة ما كان من المياه فى أرضها ، وقالوا ان (بلقيس) ملكة سبأ ـ لما أقامت السد جعلت له أبوابا ، بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه بركة ، فيها اثنا عشر مخرجا على عدة أنهارهم ، وكان الماء يخرج لأهل اليمن بالسوية ، الى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان ، وقيل ان الذى بنى السد (حمير) أبو القبائل اليمنية ، وقيل بناه (لقمان الأكبر بن عاد) ، ورصف أحجاره بالرصاص والحديد ، وكان فرسخا فى فرسخ، ولم يزالوا فى أرغد عيش ، وأخصب أرض ، حتى ان المرأة تخرج وعلى رأسها (المكتل) (١) ، فتعمل بيديها ، وتسير ، فيمتلىء المكتل ، مما يتساقط من أشجار بساتينهم ، الى أن أعرضوا عن الشكر ، وكذبوا الأنبياء عليهم السلام ، فسلط الله على سدهم (الخلد) (٢) ، توالد فيه فخرقه ، فأرسل الله سبحانه وتعالى سيلا عظيما ، فحمل السد ، وذهب بالجنان وكثير من الناس ، ويعرف (بسد مأرب) ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى الميلادى ، ويلاحظ فى النماذج السابقة أن الجغرافية الوصفية عند العرب تتصل أقوى اتصال بالتاريخ ، وأن العرب يجعلون الشعر فى خدمتها .

---

(١) المكتل : بكسر الميم : الزنبيل وهو ما يعمل من الخوص ، يحمل فيه التمر وغيره .

(٢) (الخلد) : بالضم والفتح : الفأر الأعمى .

كذلك نلاحظ أن ثقافة العرب الجغرافية تجمع بين الجغرافية الوصفية والجغرافية الفلكيـة ، وكان ذلك واضحا فى حيـاتهم فى الجاهلية ، ثم ظهر ذلك بشكل أكثر عمقا واتساعا بعد الاسلام .

الجغرافية عند العرب بعد الاسلام :

اشتد اقبال العرب والمسـلمين على الدراسـات الجغرافية بعد الاسلام ، وكانت الحوافز التى دفعتهم الى ذلك أول الأمر ترجع الى أسباب دينية ، لها صلة وارتباط ببيان أحوال البـلاد ، التى فتحت صلحا أو عنوة ، ليتقرر فى ضوء ذلك ما يؤخـذ منها من الجـزية والخراج ، والى هذا ذهب أصحاب السير والمغازى ورواة الأخبار ، ذلك لأن البحوث الجغرافية العربية الاسـلامية قد نشـأت فى بداية تكوينها متصلة بأخبار الفتوح والغزوات ، ويضاف الى ذلك أن أداء فريضة الحج كانت عاملا آخر ساعد على التعرف على المسالك والطرق البرية والبحرية المؤدية الى مكة والمدينة وبخاصة اذا قدم الحجاج من أقطار نائية بعيدة ، كذلك كانت الرحلة فى طلب العلم استجابة لدعوة القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم لأحاديث الرسول (صلوات الله عليه) : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . و « اطلبوا العلم ولو بالصين ».

ويؤكد العلامة الايطالى (نللينو) ما سبق أن أشرنا اليه من جمع العرب بين الجغرافية الوصفية والفلكية ، فيقول فى كتابه (تاريخ الفلك عند العرب) فى القرون الوسطى (ص ١٠٥ - ١٠٨) : « ان قدماء أهل بابل قد تصوروا السماء كأنها سبع طبقات منضدة ، وجعلوا فى كل طبقة أحد النيرين والكواكب الخمسة المتحيرة ، على حسب قدر أبعادها من الأرض ، وهو فى طبقته كأنه ساكنها وربها ، فانتشر هذا الرأى عند أمم أخرى ، مثل اليونان والسريان ، وراج عند عوامهم أيضا ، حتى أخذه أهل الحضر من الجاهلية ، كما يظهر من ورود ذكره فى جملة من النصوص القرآنية :

« تُسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » (سورة الاسراء) .

« الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » (سورة الطلاق) .

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » (سورة المؤمنون) .

« فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها » (سورة فصلت) .

« ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا » (سورة نوح).

« وبنينا فوقكم سبعا شدادا » (سورة النبأ) .

قال : ومن المحتمل أن العرب كانوا يسمون سماء الكوكب فلكه ، كما ورد فى الآية (الشريفة) : « وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » (سورة الأنبياء)

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » (سورة يس) .

ولفظ الفلك مأخوذ على المحتمل من كلمة بابلية Palakka ولكن لا نعرف شيئا مما كانت العرب تقوله فى طبيعة السموات .

ثم قال : وكان العرب قد ميزوا الكواكب الخمسة المتحيرة من النجوم الثابتة ، وسموها بأسماء مخصوصة قديمة الأصل ، مجهولة الاشتقاق ، لم يزل استعمالها الى الآن . انى لا أجهل أنه فيما وصل الينا من أشعار الجاهلية لا يوجد ذكر للكواكب الخمسة المتحيرة غير الزهرة وعطارد ، ولكنى لا أشك فى قدم أسماء زحل والمشترى والمريخ أيضا ، لأنها مذكورة عند المؤلفين المسلمين ، قبل أن تنقل اليهم العلوم الدخيلة (١) ، ولأن عدم معرفة اشتقاقها ، مع عدم مشابهة ظاهرة بينها وبين أسمائها باللغات الأخرى ـ السامية والفارسية ـ يدل على أنها قديمة الأصل عند العرب .

أما عطارد فقيل ان عرب تميم كانوا يعبدونه ، وأما الزهرة

---

(١) وردت بعض اسماء هذه الكواكب فى شعر الكميت الاسدى المتوفى سنة (١٢٦ هـ) فقد روى انه قال يصف ثورا وحشيا «كأنه كوكب المريخ أو زحل» .. ارجع الى كتاب (نثار الازهار فى الليل والنهار) لجمال الدين محمد الافريقى المعروف بابن منظور ص ١٨٣ من طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ .

فقد قال المؤلفون السريان واليونانيون : ان بعض العرب المجاورين للشام والعراق كانوا يعبدونها عند ظهورها فى الغدوات ، وكانوا يسمونها اذ ذاك (العزى) .

ثم قال : وكان أهل البادية من أحوج الناس الى معرفة الكواكب الثابتة الكبرى ، ومواقع طلوعها وغروبها ، لأنهم كثيرا ما اضطروا الى قطع الفيافى والقفار ليلا ، مهتدين برؤية الدرارى ، فلولاها لضلت جيوشهم ، وهلكت قوافلهم فى الكثبان والبرارى ، كما ورد فى سورة الأنعام : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » . فلا غرو أن عرفوا عدة من الكواكب الثابتة ، وسموها بأسماء مخصوصة ، يذكر منها جزء فى أشعارهم مثل : الفرقدين والدبران ، والعيوق ، والثريا ، والسماكين ، والشعريين ، وغيرها ، ولكن لا يتوصل الى فهم سعة معرفتهم بالكواكب الثابتة الا من اطلع على كتاب أبى الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى (١) المتوفى (سنة ٣٧٦ هـ ــ ٩٨٦م)

---

(١) فى «كتاب تراث العرب العلمى» الصوفى من افاضل المنجمين ومصنفى الكتب الجليلة فى الفلك ، وقال فيه ابن العبرى : كان الصوفى فاضلا نبيهانبيلا، واعترف علماء الفرنجة بقيمة مؤلفاته فى الفلك ، ودقة وصفه لنجوم السماء ، مما يساعد على فهم التطورات التى تطرأ على النجوم ، وقال (سارطون) انالصوفى من أعظم فلكيى الاسلام ، ومن كتبه : كتاب الكواكب الثابتة (مصورا) وكتاب الارجوزة فى الكواكب الثابتة (مصورا) ، ويمتاز كتاب الكواكب الثابتة برسومه الملونة للابراج وبقية الصور السماوية ، وقد مثلها على هيئةالاناس والحيوانات ، ويقرر (سارطون) أن هذا الكتاب أحد الكتب الرئيسية الثلاثة ،التى اشتهرت فى علم الفلك عند المسلمين .

فى الكواكب والصور فانه عند وصف كل صورة على طريقة الفلكيين يجمع أسماء الكواكب المستعملة عند عرب البادية ، وقد بلغت هذه الأسماء نحو مائتين وخمسين وأكثر •

فمن كتاب عبد الرحمن الصوفى ، ومن أقوال العرب فى منازل القمر – نرى أنهم فى اثبات الصور النجومية قد سلكوا طريقة الفلكيين اليونانيين ، حتى لنجد توافقا بين صورهم والصور اليونانية » •

ونجد فى القرآن الكريم اشارات فى كثير من آيه الى الثقافة الفلكية ، التى كان العرب على علم بها ، فقد خاطبهم الله تعالى فى هذه الآيات بتوجيه نظرهم الى التدبر فى خلق السماوات والأرض ، وما أبدعه سبحانه فيهما ، مما فيه سعادتهم فى الحياة الدنيا ، وعبرة لهم فى الحياة الأخرى ، وفيما يلى تفصيل هذا الموضوع •

القرآن الكريم والجغرافية

القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، أنزله الله على رسوله محمد النبى الأمى ، يدعو الناس الى الحق والى صراط مستقيم ، وقد خاطب القلوب بالموعظة الحسنة والعقول بالدليل القاطع ، ولفت نظر الناس الى ما فى الكون من آيات باهرة وعبر وعظات بالغة ، وهذا مما يحدد لنا مهمة كتاب الله الكريم ، فهو يستهدف دعوة الناس الى الاقرار بوحدانية الله

وعبادته ؛ ولذلك حرص القرآن الكريم على اقناع العقول بالاشارة الى بعض الآيات الكونية ، التى تتضمن الاستدلال على قدرة الله ، وأنه المستحق للعبادة وحده ، وقد أقر هذا الكتاب العظيم الخالد مبادىء سامية لاقامة مجتمع انسانى ، تسوده العدالة والمساواة واحترام الحقوق ، والتمتع بالسعادة ، ولذلك لم يكن القرآن قط كتابا فى الجغرافية ، أو فى أى علم من العلوم ، وما جاء فيه من الارشادات الصادقة الى علوم الحضارة الانسانية ، فانما كان الغرض منه لفت العقول الى النظر الواعى والتأمل العميق والايمان بقدرة الله تعالى ، فاطر السموات والأرض •

وذلك مما يدعو الى العجب من بعض علماء الاستشراق الذين حاولوا أن يخرجوا القرآن فى بحوثهم عن طبيعته ، بادعائهم أنه جاء يقرر بعض النظريات العلمية ، ثم يتخذون هذه الدعوى الباطلة وسيلة الى اثبات أن القرآن قد استعاد هذه النظريات مما عرفته الأمم الماضية ، وتقوم هذه الدعوى عندهم على أن القرآن من عند محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنه جمع فيه المعلومات التى نقلها عن مصادر غير عربية ، ومما يؤيد جهلهم بطبيعة القرآن ومهمته التى نزل من أجلها على سيد الخلق أنهم يجهلون بالاضافة الى ذلك أسرار اللغة التى نزل بها القرآن ، والتى تقوم على استخدام المجازات فى التعبير فمثلا نجد المستشرق الروسى الكبير (كراتشكوفسكى) بالرغم من دقته وانصافه للعرب فى كثير من المواطن يتصور أن القرآن قد

وصف السماء وصفا ماديا حسيا ؟ اذ خيل اليه أن كلمة (بنينا) فى قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » وكلمة (سقف) فى قوله تعالى: « وجعلنا السماء سقفا محفوظا » قد وضعتا على حقيقتهما ، وهذا ولا شك خطأ جسيم وقع فيه العلامة الروسى لجهله ببلاغة القرآن الكريم وحسن استخدامه للأساليب الفنية المجازية ، فقد فاتته هذه الدقائق البلاغية ، كما عزت على غيره من علماء الاستشراق ، هذا بالاضافة الى اقحامهم العقيدة الدينية فى مجال البحث العلمى ، وتصورهم أن القرآن الكريم انما هو كتاب فى التاريخ أو الفلك أو الجيولوجيا وغيرها من العلوم ، وغاب عنهم أنه كتاب رسول ورسالة ، وأنه وحى من السماء •

ونلاحظ أن (كراتشكوفسكى) فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى (الفصل الأول) ـ الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى ـ قد جره تصوره الخاطىء الذى أشرنا اليه الى الوقوع فى أخطاء أخرى ، منها أن القرآن حينما تحدث عن الشمس والقمر كان ذلك الحديث بقصد بيان مهمتهما الأساسية، وهى تحديد الوقت اليومى أو السنوى ، كذلك نراه ينظر الى الآيات التى ذكرت المشرقين والمغربين بأنها آيات غامضة ، ويزعم أن القمر ذكر فى القرآن مرتين فقط ، مع أنه قد ذكر سبعا وعشرين مرة ، وأن لفظ النسىء لم يتضح معناه الى الآن ، مع أنه لو رجع الى أى معجم من معاجم اللغة العربية لعرف معنى

النسيء ، وهو التأجيل والتأخير ، وقد ورد لفظ النسيء في معلقة الشاعر العربي الجاهلي (عمرو بن كلثوم) :

ألسنا الناسئين على معد　　شهور الحل نجعلها حراما

ثم يزعم أن القرآن جاء بنظرية رئيسية ، وهي أن الأرض مسطحة ، وليست كروية ، ويحاول أن يربط بينها وبين ما عرفه اليهود عنها واليونان في عهد هومير ، وقد حمله على هذا الزعم الغريب جهله ببلاغة اللغة العربية في موضوع السماوات فقد تصور كلمات القرار والمهاد والفراش والبساط تصورا حسيا ، كما سبق أن تصور كلمتي (بينا) و (سقفا) وقد جاءت كلمات القرار والمهاد والفراش والبساط وصفا للأرض في الآيات الكريمة التي استشهد بها وهي :

١ - « أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا » (سورة النمل - ١٦) .

٢ - « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا » (سورة النبأ - ٦) .

٣ - « والله جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » (سورة البقرة - ٢٢) .

٤ - « والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (نوح - ١٩) .

٥ ـ « الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، لعلكم تهتدون » (سورة الزخرف ـ ١) .

واستدلاله بهذه الآيات على أساس التفسير الحسى لمدلول كلمات المهاد والقرار والفراش والبساط ـ دليل على جهله بأسرار الأسلوب البيانى ، الذى تميز به القرآن الكريم ، هذا الى أنه قد حيرته نظرية البحرين ، فذهب يلتمس تفسيرا لها فى كلام المستشرقين قبله ، ومنهم « بارتولد » الذى يقول : انهما نهر الفرات والخليج الفارسى ، « وفنسنك » الذى يزعم أن الآيات المتعلقة بالبحرين تفترض وجود محيط سماوى ، وتلك تأويلات وتفسيرات بعيدة عن المعنى القرآنى ؛ اذ كل الآيات التى وردت عن البحرين هى :

١ ـ قوله تعالى : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » (سورة فاطر ـ ١٢) .

٢ ـ وقوله تعالى : « أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أ اله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون » (سورة النمل ـ ٦١) .

٣ ـ « وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا

ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (الفرقان ـ ٥٣) .

٤ ـ وقوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (الرحمن ـ ١٩) .

هذه الآيات الكريمة واضحة منكشفة المعنى لدى كل عربى مثقف يقرأ القرآن ، فهى لا تحتمل لبسا ، وليس فيها شيء من الغموض ، والغرض منها التدليل على قدرة الله تعالى ، ولفت النظر الى أثرهما فى الكون والحياة ، ومن المألوف فى لغتنا أننا نثنى الشيئين بتثنية أحدهما ، فنحن نطلق البحرين على البحر الملح والنهر العذب معا على التغليب ، ونطلق الأبوين على الأب والأم ، والقمرين على الشمس والقمر على التغليب أيضاً ، ولم ترد الآيات بقصد تحقيق نظرية جغرافية ، ولذلك كان الحديث عن تحديد البحرين خارجا على مهمة الكتاب الكريم ، ثم يسوقه الحديث الى أن القرآن قد أتى بنظرية البحار السبعة مؤيدا قوله بنص الآية الكريمة :

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله » (لقمان ـ ٢٧) ويحاول ارجاع الاشارة الى البحار السبعة ـ الى أنه ترجمة لحكمة عبرية قديمة ، ويتهم المقدسى بأنه فهم هذا الفهم ، كما يشير الى التأثير السحرى للرقم سبعة ، والحقيقة التى لا شك فيها أن

(كراتشكوفسكى) يجهل التعبير البيانى فى الآية وأن الرقم (سبعة) يراد به فى لغتنا العربية مطلق التعدد، على أننا لو أخذنا الآية الكريمة بمنطوقها الحسى لدلت على وجود بحار ثمانية ، وعندئذ تنهار نظرية البحار السبعة ، كما هى فى وهم العلامة الروسى ، والواقع الذى لا يحتمل شكا أن هذا المستشرق العظيم باحث دقيق ، يميل الى الاستيعاب ، ولكنه لم يسلم من خطأ شائع وقع فيه جميع المستشرقين، وهو اقحام العقيدة الدينية فى مجالات البحث العلمى ، فسيطرت عليه فكرة أن القرآن الكريم من وضع محمد ، الى جانب عدم فهمه لسر الاعجاز البيانى فى القرآن ، فذهب الى ما ذهب اليه من آراء خاطئة ثم يستمر فى زيادة حجم حصيلة أخطائه ، فيتحدث عن ذى القرنين ويأجوج ومأجوج ، ويزعم أن معلومات محمد (صلوات الله عليه) فى القرآن قد وصلت اليه عن طريق الأساطير السريانية .

وحينما يحاول الموازنة بين القرآن الكريم والشعر العربى القديم من حيث المادة الجغرافية ـ يدعى أن الشعر العربى أكثر واقعية ودقة وأغزر مادة من القرآن فى النواحى الجغرافية ، ولكن بالرغم من قلة المادة الجغرافية فى القرآن فانه أتى بنظريات جغرافية استعارها من مصادر أجنبية ، وبدهى أنه ما دام قد افترض من أول الأمر فى بحثه أن القرآن هو مجموع المعلومات التى حصل عليها محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ فانه ليس غريبا أن يقرر ما ذهب اليه من آراء لا تتفق مع الحقائق ، ثم يخلط العلامة الروسى بين

أحاديث الرسول والمرويات ، التي تتناول تفصيلات خرافية لا أساس لها ، وينسب الى ياقوت الحموى أنه أتى بشيء من هذه المرويات ، ومنها ما يتعلق برحلة عبادة بن الصامت الى الرقيم (١)، وهو المكان الذى يرقد فيه أهل الكهف ، ولكن ياقوتا حين نقل بعض هذه المرويات الخرافية لم يكن غافلا ، فقد نبه فى مقدمة معجم البلدان على ما فيها مما تأباه العقول ، ولا يقبله المنطق الصحيح ، وسنشير الى ذلك بالتفصيل عند الحديث عن مقدمة كتابه (٢). نمو المعلومات الجغرافية لدى المسلمين .

ان من المؤكد أن معلومات العرب الجغرافية بعد الاسلام قد أخذت تنتقل الى دور النضج والاكتمال ، بعد أن عكف المسلمون على ترجمة الثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية ، فازداد حجم هذه المعلومات وعمقها ؛ لأن اطلاعهم على معارف الأمم القديمة فى هذا الميدان عمق دراستهم ، وأمدهم بأساليب وأنماط من البحث الجغرافى ، وما كاد يقع فى أيديهم كتاب (المجسطى) لبطليموس الجغرافى ، بعد ترجمته الى اللغة العربية ، حتى درسوه دراسة واعية ، واستعانوا بخبراتهم التى كسبوها من أسفارهم وأرصادهم

---

(١) (الرقيم) لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ، ونصب على باب الكهف، وقيل الرقيم هو الكتاب ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وكتاب مرقوم أى مكتوب، والرقيم أيضا اسم الوادى الذى فيه الكهف .

(٢) ارجع الى تعليق على تاريخ الادب الجغرافى العربى للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء — الاستاذة بجامعة عين شمس .

وبأساليبهم العلمية السليمة على تصحيح كثير مما ورد فى هذا الكتاب من آراء ، ثم قاموا بدراسات واسعة عن طريق قيامهم بكثير من الرحلات الى مختلف البلاد والأقطار شرقا وغربا ، فتكونت لديهم مادة جغرافية مخصبة ، استخدموها فى وضع مؤلفات قيمة فى علوم الجغرافية ورسم الخرائط ، التى تصور الكرة الأرضية ، وما عليها من يابس وماء ، وأثناء ذلك ظهر عدد من الملاحين والتجار المسلمين ، الذين عرفوا بالمغامرة والجرأة فى ركوب البحار ، ومنهم تاجر مشهور يدعى (سليمان البحار) ، وكان من أشد المغامرين ، الذين لا يرهبون البحار ، وقد وفق بجرأته وشجاعته فى معرفة الخطوط البحرية ، التى بين الهند والصين ، وقد تمكن بذلك من السير فى هذه الخطوط بسفنه عدة مرات ، تردد خلالها على الصين مرة بعد مرة ، وقام بوصف البلدان التى زارها فى مذكراته ، وقد أثارت بعاداتها وتقاليدها دهشته ، وتعتبر مذكراته البذرة الأولى فى تكوين علم الجغرافية الوصفية العربى الاسلامى ، ومن الملاحظ أن المسلمين العرب قبل رحلات (سليمان البحار) كانوا قد درسوا الجغرافية العلمية ، واعتمدوا فى هذه الدراسة على كتاب (بطليموس) .

ويقال ان المسلمين فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب وبتوجيه منه ـ لم يحاولوا أول الأمر التوغل فى البحار البعيدة ، وقد روى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر ، كتب الى الخليفة (عمر) كتابا

يصف فيه البحر ، ومما جاء فى هذا الخطاب « واعلم يا أمير المؤمنين أن البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، كدود على عود » ؛ لذلك منع الفاروق المسلمين ركوب البحر اشفاقا عليهم ، وحفظا لأرواحهم ، وابقاء على جند المسلمين الذين يحتاج اليهم فى حماية الثغور ومواطن المخافة فى ديار المسلمين ، ولكن فريقا من أهل مصر ومن ساكنهم لم يعملوا بأمر الخليفة عمر ، لأنهم كانوا يمارسون صناعة السفن والاتجار بركوب البحار منذ أزمان طويلة قبل الاسلام ، وكانوا قد كسبوا خبرة واسعة ، فاستمروا بدافع الحاجة يعملون على بناء السفن فى ثغور رشيد ودمياط والاسكندرية وغيرها ، وكانت لهم تجارات مع أهل اليمن وسكان سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ولما بلغ ذلك عمر رضى الله عنه لم يشدد النكير عليهم ، وأغفل ذلك ، وبعدئذ أخذ المسلمون فى خلافة عثمان رضى الله عنه • وفى عهد (عبد الله بن أبى سرح) أمير مصر وقتئذ يعملون على اعداد أسطول عربى اسلامى من مائة سفينة حربية ، وقد تصدى للأسطول الرومانى فى معركة مشهورة تسمى (ذات الصوارى) ، وانتصر الأسطول العربى الناشىء على أضخم أسطول معروف فى البحار فى تلك الأيام برهبته وقوته ، فدل ذلك على جرأة المسلمين ومهارتهم النادرة فى الحروب البحرية •

ويبدو لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أمر

المسلمين بعدم ركوب البحر ، وحين سكت عن ذلك ، كانت له وجهة نظر سياسية ، ترتبط بصالح المسلمين ، ويتولى العلامة ابن خلدون شرح ذلك بقوله : « ان العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافة البحر وركوبه ، وأما الروم والافرنج فانه لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه ، وأحكموا الدراية بثقافته ، فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم الأعاجم خولا لهم وتحت أيديهم ، تقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النوتية فى حاجتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، فأصبحوا بصراء بها ، فشرعوا فى الجهاد فى خضمه ، وأنشئوا السفن فيه ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأعطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم النصارى ، واختصوا بذلك فى ممالكهم وثغورهم ، ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته ، مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس » .

فابن خلدون يقرر أن عمر لم يأذن للمسلمين فى ركوب البحر أولا ، بسبب عدم درايتهم بالثقافة البحرية فى ابان نهضتهم ويؤيد رأى عمر أن عمرو بن العاص لما ولى مصر للمرة الثانية كان المسلمون وقتئذ قد وصلوا الى درجة كبيرة من العلم بفن سلوك البحار والسير فى أعاليها ، واقتحامها فى جرأة ، فأوضح ذلك لعمر ، فلم يقف عند رأيه الأول ، بل أذن لعموم المسلمين بركوب

البحر والغزو فيه ، ولعل الحكمة فى ذلك قد وضحت لنا ، فيما قصده الفاروق من الحظر أولا ، ثم الاذن ثانيا .

ومنذ ذلك الحين أقبل المسلمون على دراسة الثقافة البحرية وفنون الغزو فى البحار ، وانشاء السفن وبناء الأساطيل التجارية والحربية ، حتى كان ما لدى المسلمين فى عهد معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى ألفا وسبعمائة سفينة من جميع الأنواع ثم أخذت القوة البحرية العربية الاسلامية تقوى تدريجا ، حتى أصبحت مرهوبة الجانب فى البحر الأبيض المتوسط ، فغزا المسلمون أكثر جزره وسواحله ، وساعدهم ذلك على فتح الأندلس ، فاتسعت بذلك دائرة معارف المسلمين الجغرافية ، وظهر فى العصور الاسلامية المختلفة مشرقا ومغربا جغرافيون مسلمون ، برزوا فى مجال الجغرافية الوصفية وغيرها ، وكانت أكثر معلوماتهم الجغرافية نتيجة مباشرة لرحلاتهم وأرصادهم العلمية ، هذا بالاضافة الى نشاطهم العلمى البارز فى تصحيح آراء القدماء ، وقد أبدى المأمون العباسى اهتماما كبيرا بالنواحى الجغرافية والفلكية ، فأمر بتأسيس دار الحكمة، وزودها بمكتبة حافلة بالمراجع والمخطوطات والخرائط، وأنشأ مرصدا فلكيا ، ثم كلف علماء الفلك فى عصره قياس فلك البروج ، وعمل الزيجات لحركات الكواكب ، وبقياس درجتين أرضيتين ، لامكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذى قبل ، تم رسم خريطة جغرافية كبيرة للعالم المعروف وقتئذ ، وكان محمد

ابن موسى الخوارزمي من العلماء الذين استعان بهم على ذلك ، وينسب الى الخوارزمي أنه وضع كتابا عظيم القيمة فى علم الجغرافية، يسمى (صورة الأرض) ويبدو أنه اعتمد في وضعه على كتاب (المجسطي) ، ولكن مع توسع واضافات جديدة ، وصل اليها العرب المسلمون عن طريق أرصادهم ، وتصحيحات لكثير من آراء بطليموس •

واستمر الأدب الجغرافى ينمو نموا سريعا عند مسلمى العرب، مما يدل على النزعة القوية ، التى سيطرت على نفوسهم فى التنقل والرحلة ، وقد بدأت هذه النزعة ملونة بلون دينى أثناء رحلتهم الى الأراضى المقدسة ، ولكن سرعان ما تطورت بعد اتساع الفتوحات الاسلامية الى رحلات واسعة النطاق بقصد التجارة ، ثم التعرف على ما خلقه الله تعالى فى هذه المعمورة من يابس وماء ، فدفعهم ذلك الى دراسة الجغرافية الرياضية مع تطبيقاتها المتصلة برسم الخرائط ، وتتميز معلوماتهم فى الجغرافية الوصفية من معلومات غيرهم من الأمم بأنهم أضافوا الى ما كسبوه من معارف الاغريق والرومان عن الأراضى والبحار ـ التعرف على أربع مناطق أخرى من العالم ، كانت المعلومات عنها يشوبها كثير من الغموض ، ومن هذه المناطق الأقاليم الواسعة الواقعة حول بحر قزوين ، والبقاع والأماكن التى تمتد الى الشمال الشرقى من البحر الأسود ، ولم يكن أحد من الجغرافيين قبل المسلمين يعرف شيئا عن بحر Aral آرال ،

ولم تجد بحيرة (خوارزم) آرال مكانها على الخرائط الا فى عهد المأمون لأول مرة ، وقد زار ابن فضلان هذه الأصقاع أثناء وفادته الى ملك (البلغار) موفدا من قبل المقتدر الخليفة العباسى ، وكان العرب وقتئذ يطلقون كلمة (بلغار) (١) على بلاد الصقالبة ، وهم الروس، ثم على الشعب نفسه ، وعلى عاصمتهم، التى كانت تقع شرقى نهر (الفولجا) ، وهو الذى كان يسميه الجغرافيون المسلمون نهر (أتل) ، وتعتبر كتابة ابن فضلان عن هذه الجهات أول مصدر موثوق به ، فقد وصف شعوب الصقالبة وصفا دقيقا، تناول حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتجاراتهم ، وعرض للظواهر الطبيعية فى بلادهم .

ويقال ان ياقوتا انتفع كثيرا بما كتبه ابن فضلان ، ونقل عنه كل ما يتعلق بكلمة (بلغار) فى كتابه معجم البلدان ، مما سنعرض له فيما بعد ، ونجد البيرونى يتعرض لوصف شعوب اقليم (بيكال) Baikal كما وصف أهل ورنج باسكندنافيا وتناول بالوصف الدقيق الصناعات المعدنية فى أوربا الشمالية ، وأمدنا بمعلومات دقيقة ، ذات قيمة علمية عن بحر الثلج Ice-sea فى الشمال الشرقى من أوربا ، فكان ذلك تمهيدا لارتياد التجار العرب لتلك

---

(١) (بلغار) قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الاتل (الفولجا) ، وتمثل ولاية (قازان) الروسية ، وهى بلاد بلغار التى يرد ذكرها فى كتب الفقه الاسلامى، ولاتزال أطلالها وآثارها باقية ، اما بلغار الحالية فهى مملكة فى البلقان معروفة الآن .

الأنحاء البعيدة ، وأما بالنسبة للمعلومات الجغرافية عن افريقية فقد كانت معلومات اليونان لا تتجاوز المناطق الساحلية ولكن العرب لما فتحوا مصر أخذوا يتوغلون فى كشف الأراضى الداخلية والصحارى الافريقية الشاسعة ، بقصد التجارة ونشر الاسلام فى داخل القارة الافريقية ، وكان من نتائج ذلك وضع بعض المؤلفات الجغرافية عن افريقية ، وفى مقدمتها كتاب (المهلبى) عن السودان، ومن الراجح أن ياقوتا اعتمد عليه فى جغرافيته عن السودان فى كتابه (معجم البلدان) • أما عن آسيا وأقاليمها الداخلية فقد كانت المعلومات السابقة على الجغرافيين المسلمين ضئيلة ومحدودة ، فلما قام المسلمون برحلاتهم الى هذه الديار دفعهم حب الكشف والتعرف على مختلف البلدان أن يبعدوا فى رحلاتهم فى قلب القارة الآسيوية ، فتعرفوا على جميع بلدان آسيا الوسطى ، وامتدت رحلاتهم الى الصين ، فوصلوا اليها عن طريقى البر والبحر ، وفى عصر المغول ظهر بشكل واضح أثر الجغرافيين المسلمين فى العلم الجغرافى عن الصين ، وعندما وضعت الخريطة الرسمية لبلاد الصين اعتمد فى وضعها على معلومات المسلمين الجغرافية ، وقد أشار الى ذلك « ألبرت هرمان » Albert Hermann ، وقيل ان الذين قاموا بوضعها واعدادها الجغرافيون المسلمون •

كذلك كانت المعلومات الجغرافية عن بلاد الهند ما تزال قليلة ، وتحجبها أوصاف غير واضحة ، حتى فتح المسلمون بلاد

السند والجنوب الغربى للبنجاب (Sina, S.W. Punjab) ، ووقتئذ بدأت المعلومات الجغرافية عن هذه البلاد تتضح ، وتتسع ، بفضل الجهود العلمية التى قام بها الجغرافيون المسلمون ، والجاليات العربية من التجار ، الذين أقاموا على سواحل (كنكان) Kankan وملبار Malabar وكان لمعلومات (سليمان البحار)أو التاجر عن الصين والهند أثر كبير فى نمو الثقافة الجغرافية ، التى استمدت منها قصص السندباد ، كذلك كان أبو زيد السيرانى من الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين أضافوا الى تاريخ الأدب الجغرافى العربى بكتابه (سلسلة التواريخ) معلومات وافية عن الجغرافية الهندية ، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى هذه البلاد ، وبذلك تجمعت معلومات غزيرة فى الجغرافية الوصفية وغيرها ــ انتفع بها الجغرافيون الذين جاءوا بعد ذلك أمثال ابن خرداذبة والاصطخرى والمقدسى وياقوت وابن بطوطة وغيرهم •

الأثر الذى تركه العرب فى العالم الغربى

أما الآثار العلمية والفلسفية ، التى تركها العرب فى العالم الغربى ــ وبخاصة العلوم الجغرافية ــ فاننا نترك العلامة المستشرق (جون درابر) J. Draper يحدثنا عنها فى كتابه (تطور أوربا الفكرى) الجزء الثانى ص (٤١ ــ ٤٢) (١) « ينبغى على أن أنعى

(١) ارجع الى كتاب « مآثر العرب على الحضارة الأوربية» جلال مظهر ــ تقديم كمال رفعت ، وسعد عفرة » مكتبة الانجلو ١٩٦٠

على الطريقة المنظمة ، التى تحايل بها الأدب الأوربى ، ليخفى عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ، أما هذه الآثار فانها على اليقين سوف لا تظل كثيرا بعد الآن مخفية عن الأنظار ؛ ان الجور المبنى على الحقد الدينى والغرور الوطنى لا يمكن أن يستمرا الى الأبد ، ماذا يقول فلكى حديث عندما يتذكر همجية أوربة فى ذلك الزمن ويجد (أبو الحسن الفلكى العربى) يتحدث عن أنابيب توضع فى احدى نهاياتها عدسة عينية أو العين ، وفى النهاية الأخرى عدسة شيئية، كما استعملت فى مرصد المراغة ؟ وماذا يقول اذن عند ما يقرأ عن محاولات عبد الرحمن الصوفى فى تحسين طريقة تقدير لمعان النجوم ؟

ألا يكفى زيج بن يونس الفلكى (١٠٠٨) م المسمى بزيج الحاكم ، أو زيج نصير الدين الطوسى ، الذى ألف فى المرصد المذكور آنفا فى المراغة (١٢٥٩) م ، أو قياس الزمن (بواسطة) ذبذبات البندول ، أو طرق تصحيح الجداول الفلكية (بواسطة) الأرصاد المنظمة ؛ لكى تكون مسائل تدل دلالة قاطعة على مبلغ ما وصل اليه العرب من النبوغ الفكرى ؟ لقد ترك العربى طابعه الفكرى فى أوربة منذ زمن طويل ، قبل أن ينبغى على أوربا أن تعترف بذلك ؛ اذ طبع فكره على قبة السماء بطريقة لا تمحى ، تعبر عنها أسماء النجوم المتناثرة فيها ، ويستطيع أن يدركها كل من يعرف أسماء النجوم » .

ولكى يؤكد هذا العلامة المنصف الأثر العربى بطريقة علمية لا تقبل جدلا ــ كشف عن أسماء بعض النجوم والمصطلحات التى وصل اليها العرب فى بحوثهم الجغرافية الفلكية ، وسموها بأسماء عربية خالصة ، وقد بقيت حتى نقلها الغرب عنهم فى غير تورع منكرا الأثر العربى فيها ، مع أن أسماءها تتحدى هذا الانكار الجائر •

ولذلك يقول (درابر) : وهنا نستطيع أن نذكر قائمة طويلة من أسماء النجوم والمصطلحات ، التى ما زالت تعرف فى اللغات الأوربية بأسمائها العربية ، وهذا قليل من كثير •

أما نحن فنكتفى بذكر بعضها فيما يأتى على سبيل المثال :

(الدبران) Aldebaran ، و (رأس الغول) Algol

و (النصل) Alnasl (النسر الطائر) : Altair

و (السماك الأعزل) Azimech و (منكب الجوزا) Betelgeuze

الفصل الثانى

عصر ياقوت فى ميزان التاريخ

لم يكن انقسام الدولة العباسية بعد عصر المتوكل على الله العباسى ، والانحلال السريع الذى بدأ يتسرب الى جسم هذا العملاق الضخم ، والتفكك الذى أصاب أجزاء الدولة العربية الاسلامية الكبرى - نذير سوء بالنسبة للتفكير العلمى ، واستمرار حركة النمو فى العلم العربى ، بل على العكس رأينا الحكام الجدد فى الدول والامارات التى انفصلت عن خلافة بغداد ، وأصبح لها كيان مستقل - يعملون فى نشاط دائب متصل على دعم ملكهم ، بكل مقومات الحضارة ، وقد ساعدهم على ذلك أن قوة الدفع للحضار العلمية فى بغداد فى عصر المأمون - كانت وما تزال على درجة من القوة ، بحيث أفسحت المجال أمام هؤلاء الحكام للاستعانة بعدد كبير من العلماء فى كل علم وفن ، لتأسيس ملك لهم يقوم على

دعائم وطيدة راسخة ، تضمن له البقاء والاستمرار ، ولذلك نلحظ بقوة في العصر العباسى الثانى الذى يمتد فى التاريخ من (٤٤٧ هـ ـ ٦٥٦ هـ) ، ويبدأ من يوم أن وضع السلاجقة (١) أيديهم على زمام الحكم فى بغداد الى أن سقطت عاصمة الخلافة العباسية فى أيدى التتار ـ أن الحركة الفكرية كانت ما تزال ناشطة فى هذا العصر، وقد تردد صدى هذه النهضة الفكرية فى بلاط الغزنويين فى الشرق ، والفاطميين والأيوبيين فى مصر ، والأمويين فى الأندلس ، وكان من بواعث هذه النهضة ظهور بعض الفرق الدينية من شيعة وسنية، وقد استعانت هذه الفرق بالعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، عن طريق الحجاج والجدل ، واستخدام الأدلة العقلية ، اذ كان كل فريق ينتصر لآرائه ، ويؤيدها بسيل من الحجج المنطقية والأدلة النقلية ، وقد كانت هذه النهضة الفكرية تسير فى طريقها ، فى حين كان العالم الاسلامى يشكو من الضعف والتصدع والانحلال السياسى .

---

(١) (السلاجقة) ينسب هؤلاء القوم الى سلجوق (بفتح السين) بن تقاق (بضم التاء) وهو أحد رؤساء الاتراك وكانوا فى اول امرهم يسكنون بلاد ما وراء النهر فى مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخا ، والسلاجقة نوع من الاتراك الغز ، ويتصل نسبهم بالجد الاكبر بسلاطين الاتراك العثمانيين ، ويعتبر عصرهم بالنسبة لعصر الغزنويين اكثر ازدهارا وكان ملكهم اعظم رقعة وقوتهم اعز سلطانا ومنعة ، واليهم يرجع الفضل فى تجديد قوة الاسلام ، واعادة تكوين وحدته السياسية (تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى) د . حسن ابراهيم حسن . الجزء الرابع .

وذاعت شهرة بعض المدن فى هذا العصر ؛ اذ كانت تعد مراكز للثقافة العربية الاسـلامية ، ومنها أصـبهان والرى حيث يقيم بنو بويه ، الذين عرفوا بتشجيع العلمـاء واجـزال الصـلات لهم ، وبخارى حيث يحكم السامانيون ، وكان منصور بن نوح السامانى قد أسس مكتبة زاخرة بالنادر من الكتب والمخطوطات ، وفى طبرستان نجد شمس المعالى قابوس بن وشمكير يجـذب الى بلاطه العلمـاء والأدباء والفلاسفة ، ومثل ذلك نراه فى خوارزم وغزنة ، وغيرها من المراكز الثقـافية ، كذلك فى (مرو) حاضرة خراسان حيث بلاط السلاجقة ، وقد أقام ياقوت فى هذه المدينة فترة من حياته ، ويقول فيها : « وقد أخرجت من الأعيـان وعلمـاء الدين والأركان ما لم تخرج مدينـة مثلهم » . كما أطنب فى وصف خزائن الكتب فيها ، حين فارقها أمام غارات التتار سنة (٦١٦ هـ) فقد قال : « وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة » .

وفى حلب حاضرة الحمـدانيين كان يتردد على بلاط سيف الدولة بن حمدان أشهر الفلاسـفة والعلمـاء والأدباء ، كالفارابى وابن خالويه وأبى الطيب المتنبى ، وفى مصر فى أيام الطـولونيين والاخشيد والفاطميين تعددت مراكز الثقافة فكانت فى الفسطاط ، ثم فى القطائع والقاهرة ، وقد نافست قرطبة بغداد وغيرها من المراكز الثقافية الأخرى فى المشرق ، أما معاهد الدراسة التى كانت موئل العلماء والدارسين ، ومقـر حلقـات الدرس والمناقشـة ــ فكانت

المساجد فى مقدمتها وقد ظل المسجد النبوى الشريف مأوى لفقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم على طلب العلم ، وقد كان المسجد فى ذلك العصر فضلا عن أهميته الدينية ، باعتبـاره مكانا مقدسـا لتـأدية العبـادة ، كان فى الوقت نفسـه المكان الذى يؤمه خليفـة المسلمين لادارة شئون الدولة والخلافة ، وكان المنبر أشبه بالعرش، يلقى منه بيان الخليفـة لشرح سـياسة الدولة ، وكانت تذاع منـه القرارات الهامة ، وكان المكان الذى يتخذه العلماء والدارسون مقرا لهم ، والمعهد الذى يتلقى فيه الناشئون اللغة العربية وأصول الدين الاسلامى ٠

وكان مسجد عمـرو بن العـاص فى مصر من أهم المعاهد الثقافية فى عهد الطولونيين والاخشيد ، ثم خلفه الأزهر الشريف فى عهـد الفاطميين ، وبذلك أضحى أعظم المراكز الثقـافية فى الشرق ، والى جانب هذه المساجد مسجد القرويين بفاس ، وقد أنشىء حول منتصف القرن الثالث الهجرى ، ولا شك أن المساجد وقتئذ كانت تعتبر معاهد كبرى وجامعـات ، تشـهد بديمقراطيـة التعليم عند المسلمين ، ويليها فى الأهمية والثقافة الزوايا ، ومفردها (زاوية) ، وهى مأخـوذة من الفعـل (انزوى ينزوى) ، بمعنى اتخـذ ركنا من أركان المسـجد للاعتكاف والتعبد ، وقد نشـأت الزوايا أول الأمر مساكن ملحقة بالمساجد ثم تطورت الى (أبنية صغيرة) منفصلة ، يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس، ويعقدون

حلقات الدرس فى علوم الدين وما يتصل بها من العلوم العقليـة والنقلية ، كما كان يعقد فيها مشايخ الصـوفية حلقـات الذكر ، وتطلق الزاوية أحيـانا على المعهـد والرباط الذى تقيمـه احـدى الفـرق الدينيـة كالصـــوفية والقادرية والتيجانية والسـنوسية ، والشاذلية ، والخلوتية ، وفى المغـرب العـربى أطلقت الزاوية على مسجد خاص بطائفة من طوائف الصوفية ، أو على ضريح لأحـد الأولياء ، وكان يلحق بكل منهما مقبرة يدفن فيهـا من لهم عـلاقة بالطريقة أو كانوا من أقارب الولى بعد وفاتهم ، وبالاضافة الى ذلك كانت تضم اليها حجرات ، ينزل فيها الضيوف ، والمنقطعون للعلم والعبادة .

وقد تطورت الزوايا ، وازدادت أهميتها الثقافية والعلمية ، وبخاصة فى بلاد المغرب .

ومن معاهد الثقافة الاسلاميةالعربية الكتاب والمدرسة، والكتاب مشتق من كتب وهو المكتب أيضا ، وأما المدرســة فاسم مكان من درس الذى مصدره درسا ودراسة ، ولم تسمع التاء فيها فى شعر قديم ، ولم نجد من علماء اللغة بعد بناء المدارس من أنكرها مع أن المفعلة سماعية فى اللغة ، ولم تنشـأ المدرســة قبل القـرن الرابع الهجرى ، وأول مدرسة عرفت بهذا المعنى هى المدرســة البيهقيـة بنيسابور ، ثم تتابع انشـاء المدارس بعد ذلك ، ومن معـاهد التعليم

والثقافة فى العصر العباسى الثانى (البيمارستان) (١) ، وقد كان المدرسة التى تعلم فيها العلوم الطبية ، ثم بيوت الحكمة ، وفى مقدمتها (بيت الحكمة) الذى أنشىء فى عهد هرون الرشيد ، ثم أنشئت مدارس الحكمة لنشر المذهب الاسماعيلى ، ثم دار الحكمة فى القاهرة التى أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى .

تلك مراكز الثقافة ومعاهدها التى اشتهرت فى العصر العباسى، وقد كانت وما تزال ذات أثر فى دفع تيار الحركة العلمية ، وان لم يكن ذلك بالدرجة والقوة التى كانت عليها فى القرون الأولى من عصور الازدهار العلمى ؛ اذ ما كاد القرن السادس الهجرى ينتصف حتى بدأت العوامل ، التى كانت تدفع تيارات العلوم الى الزحف الى الأمام ـ تضعف كثيرا عما كانت عليه فى القرنين الثالث والرابع ، وسبب ذلك ازدياد عناصر الفوضى والاضطراب وانتشار بواعث الفتنة بين الحكام المستقلين ، ثم بين هؤلاء الحكام أنفسهم وخليفة (بغداد) ، الذى لم يبق له من سلطان الخلافة الا اسمها ، مما أفقد النشاط العلمى كثيرا من الحوافز الطبية ، وأدوات التشجيع والنمو ، وفى الوقت نفسه كانت الصلة بين العصر الذهبى للمأمون وما وصل اليه الحال فى القرنين السادس والسابع قد ضعفت، لذلك

---

(١) (بيمارستان) لفظة فارسية ، استعملها العرب ، ومعناها (مجمع المرضى) المستشفى ، لان « بيمار » معناه المريض ، « وستان » : الموضع ، وأول من صنعه (بقراط) الحكيم اليونانى ، وكان يسميه (أخشندوكين) .

توقفت قوة الدفع ، ولكن ليس معنى هذا أن الحـركة العلمية قد جمدت تماما ، وأن العلم العربى قد توقف فعلا ، ذلك لأن ومضات قوية سريعة كانت تلمع هنا وهناك ، فهى ما تلبث أن تخبو وتنطفىء فى مكان ، حتى تشرق وتضىء فى مكان آخر • وقد عاش ياقوت فى الربع الأخير من القرن السادس ، وامتدت حياته الى نهاية الربع الأول من القرن السابع الهجرى ، فحيـاته جمعت بين قرنين من قرون التخلف العلمى والحضارى بالنسبة الى القرون السابقة ، التى ازدهرت فيها الحضارة العربية الاسلامية ، فمثلا نرى القرن السابع قد شهد مصرع الخلافة العباسية فى بغداد ، والقضاء على كثير من معالم الحضارة العربية الاسلامية على أيدى التتار •

وكان التأليف فى العـلوم الجغرافيـة قد بدأ يبرز فى اطار لامع ، وفى صورة واضحة زاهية ، منذ القرن الثالث الهجرى بظهور طائفة من الجغرافيين البارزين ، منهم جغرافيو المدرسـة اليونانيـة والزيجات الكبرى كالخـوارزمى والبتـانى والجغـرافيون اللغويون كهشـام بن الكلبى وأبى زيد السـيرافى ، وجغـرافيو المدرسـة الكلاسيكية كالبلخى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، ونلاحظ فى الفترة التى عاش فيها ياقوت فى العصر العباسى الثانى ، أو فى العصر السلجوقى الأول ـ أن العلم العربى أخذ يضعف تدريجا ، وقد بدأت مظاهر الضعف تظهر بشكل واضح منذ القرن السابع ، فى هذه الفترة من تاريخ العلم بدأ ياقوت حيـاته العلميـة بالرحـلة

والأسفار فى تجارة سيده ، ولكنه أثناء ذلك وجد نفسه مدفوعا بقوة ذاتية ، منبعثة من أعماق نفسه الى الاشتغال بنواح ، لا تمت بأى صلة الى العمليات التجارية ، وحساب الأرباح والخسائر ، فاندفع بهذه القوة الى التعرف على أسماء الأمكنة والبقاع والبلدان ، التى يمر بها وما توالى عليها من أحداث ، ومن نشأ فيها ، أو اتخذها دار اقامة من العلماء والأدباء ، وبهذه القوة أيضا أضحى مشغوفا بالالمام بمعلومات وافية عن كل هذه الأشياء ، وكان يسجل مايستحق التسجيل فى مذكراته ، ثم سيطرت عليه رغبة عارمة فى التردد على دكاكين الوراقين فى كل بلد ، للاطلاع على ما فيها من مراجع ومخطوطات جغرافية ، وكان يبذل بسخاء فى شراء بعضها ؛ للتزود منها بعد عودته الى بغداد ، كما كان يتردد على خزائن الكتب المشهورة ، وفى مقدمتها مكتبات (مرو) •

كان ياقوت يفعل ذلك بدافع من الرغبة الملحة فى تزويد نفسه بالمعارف الجغرافية ، والاستعداد الفطرى لهذا النوع من الدراسة العلمية ، وأخذ تفوقه يظهر واضحا فى علوم الجغرافية ، ولا شك أنه كان متأثرا فى ذلك بعوامل مختلفة ، لا تمت كثيرا بصلة الى عصره ، كان متأثرا بالعلماء الذين سبقوه فى هذا الميدان ، كما كان متأثرا بميوله الخلاقة ودوافعه النفسية ؛ لذلك خطا ياقوت بالتأليف الجغرافى فى عصره خطوات فسيحة، متخطيا كل الحواجز، التى تحول بينه وبين الأصالة والابتكار فمضى فى طريقه يتأمل ، ويلاحظ ، ويدرس ، ويؤلف •

ومن الراجح أن حياته بدأت ببداية عصر الناصر لدين الله وولده وحفيده فى بغداد ، فقد تولى أبو العباس أحمد بن المستضيء خلافة بغداد فى سنة ٥٧٥ هـ ، وقد طالت مدة خلافته ، التى استمرت ستة وأربعين عاما ، وأطلق على نفسه لقب الناصر لدين الله ، ويبدو من قصة حياة هذا الخليفة العباسى أنه كان طموحا مقداما ، يجرى الدم العربى الحر الجرىء فى عروقه ولكن هذه البداية الطيبة لم تلبث الا قليلاً ؛ اذ انقلب طموحه طمعا وحقداً ، واقدامه جبنا شائنا ، وقد مهد لهذه النهاية المزرية بارتكابه خطأين جسيمين: الأول يتمثل فى استعانته بشاهات خوارزم للقضاء على نفوذ السلجوقيين الذى كان يؤرقه ، ويقض مضجعه ، وقد نسى وهو يرتكب هذا الخطأ أنه لجأ الى دولة فتية ناهضة ، لها أطماع واسعة فى الخلافة نفسها ، فكان مثله فى ذلك كمثل المستجير من الرمضاء بالنار .

وأما الخطأ الثانى الذى لا يمكن أن يغفره له التاريخ فهو اتصاله بالمغول ؛ لكى يعاونوه على التخلص من (خوارزم شاه محمد) وهو أحد شاهات خوارزم الناهضين ومن ذوى البأس والشجاعة ، وكان يعلم أن الناصر يريد التخلص منه ، فسعى فى الحصول على فتوى من طائفة من أشهر علماء المسلمين ، تقضى بخلع الناصر ، واقامة خليفة أصلح منه للمسلمين من العلويين ، يتولى زمام الخلافة فى بغداد ، واعتمد (خوارزم شاه محمد) على

هذه الفتوى ، وتحرك فى عسكر جرار نحو بغداد ، يريد الاستيلاء عليها ، وعندئذ فقد الناصر صوابه ، وجانبه السداد فى الرأى ، وحسن التصرف فى الأمر ، واحسان المشورة ، وتغلب على تفكيره سلطان الهوى والرغبة فى الحكم ، فلجأ من فوره الى (جنكيزخان) سلطان المغول وقائدهم ، ولقد كان فى هذا التصرف الأثيم بداية النهاية لحكم خلفاء بنى العباس ، وزوال سيطرتهم الباقية ، والقضاء التام على خلافتهم فى دار السلام ؛ اذ ما كاد رسل الناصر يصلون الى سلطان التتر ، حتى تحول المد التترى نحو الغرب ، والحقيقة أن رسل الناصر وان كانوا قد نبهوا العاهل التترى الكبير الى انهاء مصير الخلافة المتداعية والاستيلاء على ميراثها ــ الا أن التتر أنفسهم لم يكونوا فى غفلة عن سلب ميراث الخلافة ، ولكن الناصر قد هيأ لهم الفرصة للاسراع فى تنفيذ مخططهم بغزو جميع أراضى الخلافة العباسية فى وقت لم يكن موضوعا فى حسابهم ، فاندفعوا كالسيل الجارف نحو بغداد ، وحاربوا (شاه خوارزم) ، وقضوا على مملكته الناهضة ، كما استولوا على الجزيرة والموصل وآسيا الصغرى ودخلوا بغداد سنة (٦٥٦ هـ) ، وكان آخر خليفة للعباسيين فى بغداد وقتئذ ــ المستعصم بالله ، وقد روى أن (هولاكو) أمر بقتله مع ولديه وستة من الخصيان ، ويقول (دوسون) : « ان تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ، ووحشيتهم لا تترك الا صورا بغيضة ، وأن حكمهم كان انتصارا للفوضى والفساد » .

وقد يختلف سير (هنرى هاوارت) مع (دوسون) فى وصف المغول ، ولكن النتائج المترتبة على حكمهما تكاد تكون واحـدة ، يقول سير (هنرى هاوارت) : « ان المغـول جنس من الأجناس ، التى درجت تحت ظلال الفقر وشظف العيش ، يجرى فى دمائهم مزيج قوى من الحـديد ، ينبعث فى فترات منظمـة ، ليقضى على الترف والثراء اللذين ســادا فى ذلك العصر ، وتحطيم الفـن والثقافة ، التى لا تترعرع الا فى ظل الرخاء وبسطة العيش والأمن، ويحول هذا الجنان الذى جهد الانسان فى غرسها وتعهدها ـ الى صحراء جرداء مقفرة ، فهم أشبه بالوباء والقحط ، أو أشبه بآلة تدمير وتخريب ، أتت على شعوب كانت غارقة فى بحار من الترف والنعيم ، فذهبت ضحية غارات المغول » .

هذه الصورة السريعة تلقى ضوءا على عصر ياقوت ، فقد كان عصرا مشحونا بعـوامل الفتن والاضطرابات والفوضى ، وفى هذا الجو المضطرب لا يمكن أن تتوافر أسباب الهدوء وعوامل الاطمئنان النفسى ، والتشـجيع المـادى ، وهى بواعث البحث العلمى ، التى تهيىء فرص الدراسة للعلماء ، وسيتضح لنا فيما بعد من سيرة ياقوت أنه فر هاربا من (مرو) أمام التتار خوفا على حياته ، وبالرغم من كل ذلك رأينا ياقوتا يخرج على المألوف فى عصره ، ويخطو بالتأليف الجغرافى خطوات عظيمـة ، لفتت نظر البـاحثين ، يقـول العـالم الايطالى (ألدومييلى) فى كتابه « العلم عند العرب وأثره فى تطور

العلم العالمى » : « ان كتب الجغرافية تضاءلت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (الميلاديين) بصورة ملحوظة ، بعد نمو وانتعاش ظاهرين ، وذلك بالرغم من أننا نجد فى هذا العصر كتابا من أعظم الكتب ، الذى صنف فى بابه ، ذلك الكتاب الزاخر الكبير ، والقاموس الجغرافى العظيم (معجم البلدان) الذى صنفه أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين البغدادى » . ونلاحظ أن «ألدوميلى» لا ينسى أن يشير فى كتابه الى أن ياقوتا قد نقل قسما كبيرا من كتابه من مؤلفين سابقين وعندما نرجع الى حديث ياقوت عن هؤلاء المؤلفين نراه لم يحاول تحديد القدر الذى نقله ، وينبغى أن نشير الى أن عصر ياقوت لم يكن مجدبا كل الاجداب ، ففيه برز فى المشرق والمغرب معا العالم النباتى والعشاب المشهور (ابن البيطار) المتوفى سنة (٦٤٦ هـ) والطبيب النباتى والرحالة عبداللطيف البغدادى (٥٥٧ ـ ٦٢٩ هـ) ، وهذا مما يرجح أن تيار العلم العربى فى عصر ياقوت كان ما يزال سائرا فى طريقه ، ولكن بخطوات بطيئة ، وفى صور باهتة أحيانا كثيرة وزاهية أحيانا قليلة ، وذلك بالنسبة لسيره فى عصور الازدهار السابقة .

ياقوت

نشأته وحياته

نشأ ياقوت عالما موسوعيا ، شأنه فى ذلك شأن غيره من علماء سلفنا الصالح ، الذين وضعوا أسس الحضارة العربية الاسلامية .

والموسوعية بالنسبة لعلمائنا القدامى كانت الطابع الذى يتميز به المبرزون والراسخون فيالعلم منهم، وعصرنا الحاضر وان برزت فيه فكرة التخصص فى العلم أو فى بعض فروعه ــ الا أن اتجاها جديدا بدأ يتضح ، ولا يمكن أن نغفله فى مجال الدراسات العلمية العالية فى الدول الأوربية المتقدمة ، وهو يبدو لنا من أن العلماء فى هذه الدول يعلقون اليوم أهمية كبرى على أن العالم أو الدارس وان كان ينبغى أن يركز على مادة التخصص أو فرع التخصص ــ الا أن ذلك يقتضيه فى الوقت نفسه أن يلم الماما جيدا بكل مايتصل بهذه المادة أو ذلك الفرع من العلم من معلومات وثقافات قريبة أو بعيدة ، ويثور العلماء اليوم بصفة خاصة فى الاتحاد السوفييتى على فكرة التخصص الضيق ، ويرون أن المهندس مثلا لا بد أن يعد اعدادا عمليا ونظريا واسعا ، وأن يدرب على النظرة الفلسفية الى الحياة ، ولهذا يجب أن يدرس الفلسفة العملية ، وأن يتعمق فى العرف على أسس علم الادارة ، والاقتصاد السياسى ، والاقتصاد العملى ، وأن يضيف فضلا عن ذلك الى مادة التخصص التىاختارها معلومات واسعة ، تتميز بالجدة والقيمة الفنية ، حتى يكون مبدعا ،

ولا شـك فى أن هذه الاتجـاهات من ملامح الموســوعية العـر
الاسلامية •

وانه لمن الانصاف لعلمائنا أن ننبه على أنهم كانوا يلمون ا
كافيا وواسعا بمعارف كثيرة متنوعة فى استقصاء وعمق ، ولكن ت
يغلب على كل منهم بالرغم من ذلك نوع خاص من المعرفة ، فا
سينا برز فى الطب وان كان يعد من الفلاسفة ؛ لأن الحكمة الط
شديدة الاتصال بالحكمة النفسية ، ومن أجل ذلك عرف عن ا
سينا أنه كان يستخدم التحليل النفسى فى علاج بعض الأمراض
وهو أسلوب من أحدث الأساليب الطبية فى عصرنا •

كذلك نجد (الرازى) طبيبا يشار اليه بالبنان ، وان كان ؛
الوقت نفسه كيمائيا بارعا ، وفنانا يعتمـد على نغمـات الموسيقى
علاج أنواع من الأمراض ، وكذلك يعتبر هذا الاتجاه فى العلا
الطبى من أحدث الأساليب الطبية فى عصرنا •

وعلى هذا الأساس كان العرب يفهمون الموسوعية فى العلم
مما ساعدهم على الخلق والابتكار فيـه ، وقد كان ياقوت الحمو
عالما من علماء العرب الذين جمعوا بين معارف كثيرة ، فقد جمع بي
الجغرافية والأدب وعلوم الشريعة واللغـة العـربية وغيرها ، ولكم
شهرته كانت بارزة فى علوم الجغرافية ، ومن المؤكد أن اهتمامه بفر
التراجم كان وثيق الصلة بطريقته التى جـرى عليها فى التعريف
بالأماكن والبلدان ؛ لأنه كان حريصا على تسجيل أسـماء العلمـ

والأدباء ، الذين ينسبون اليها ، ولعله رأى أن المجال لم يتسع أمامه في معجم البلدان للتراجم المفصلة للعلماء والأدباء وأمثالهم — فأحب أن يفرد لهم ولغيرهم معجما خاصا ، سماه (معجم الأدباء) .

وياقوت هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب البغدادى ، وقيل ابن عبدالله الرومى الجنس ، ونسبته الى حماة وان كان بغدادى الدار ، ولد سنة (٥٧٥ هـ) وقيل سنة (٥٧٤ هـ) ببلاد الروم (آسيا الصغرى أو بلاد الأناضول) ثم أسر وهو صغير من بلده فقيل له (الرومى) ، وقد يكون من المرجح أن أباه (عبد الله الرومى) قد أسره الروم ، وعاش زمانا فى بلادهم ، وليس فى ذلك موضع لعجب أو استغراب ، فان طبيعة النضال والكفاح القائمة بين القومية العربية وأعدائها من الروم وغيرهم فى سبيل الحفاظ على كيانها — كانت تقتضى حتما التحاما مسلحا عنيفا ومستمرا بين الجانبين : الروم والعرب ، وليس ببعيد أن يكون عبد الله الرومى قد اسره الروم من قبل ، وظل زمانا فى بلادهم ، حتى ولد له ياقوت فى أرض الروم ، ثم أسره العرب وهو طفل ، فعاد الى وطن أبيه ، ولكى يسير فى خط حياته المرسوم ، اشتراه تاجر بغدادى يدعى (عسكر ابن أبى نصر الحموى) ، فنسب ياقوت اليه أو الى حماة ، كما أشرنا من قبل ، ولذلك سمى (ياقوتا الحموى) .

ويزعم (ألدو ميلى) الايطالى فى كتابه (العلم عند العرب) : أنه ولد من أبوين يونانيين فى (آسيا الصغرى) وتوفى فى حلب

سنة (١٢٢٩ م) ، ولكنه لم يأت بما ينهض دليلا على صحة زعمه ، كما يزعم الأستاذ (جاك • س• ريسلر) بالمعهد الاسلامى بباريس فى كتابه (الحضارة العربية) أن ياقوتا كان عبدا يونانيا ، ثم أعتق ، وتجول فى أنحاء العالم العربى ، وشرع يعلم نفسه بنفسه ، ويلاحظ أن الأستاذ (ريسلر) لم يشر الى صلة ياقوت بعسكر بن أبى نصر الحموى ، وهى صلة كانت على جانب كبير من الأهميـة فى تطوير حياة ياقوت العلمية ، وتمكينه من القيـام برحلاته التجـارية ، التى استغلها فى التأمل العلمى ، والتعرف على البلدان ، ثم يقول (ريسلر) وانه اطلع على مكتبات (طشقند) و (مرو) و (بلخ) ، وعرف كل مافيها من كنوز المعرفة ، وبخاصة فى ميدان العلوم الجغرافية ، وقد فرض عليه وهو ذو عقـل مبتكر أن يشـتغل بنسخ الكتب ، لكى يعيش ، والحقيقة أن (ياقوتاً) لم يلجأ الى الاشتغال بالنسخ الا بعد أن وقعت الجفوة بينه وبين سيده ، مما سنشير اليه فى موضعه ، ثم انه لم ينسخ الكتب من أجل أن يعيش فحسب ، وانما فعل ذلك رغبة فى تحصيل المعرفة ، والاطلاع على المخطوطات النادرة •

٢ ـ شخصية ياقوت وما يوحى اليه اسمه :

يتميز ياقوت بسعة الأفق والاطلاع الواسع : فقد استطاع أن يضع فى معجمه لبنات قوية فى بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية فى عصره ، واسمه وان كان يحمل معنى العبودية والاسترقاق ـ الا أن ذلك لم يغض من قيمته كعالم عربى مسلم ، أسهم فى احياء التراث

العربى الاسلامى، وقد جرت العادة عند العرب أن يطلقوا على الأرقاء أسماء الحجارة الكريمة وبعض أنواع الطيب ، كالزمرد والياقوت والكافور ، وقد حاول علامتنا الجغرافى بعد أن أعتقه سيده ــ أن يستبدل باسمه اسما آخر ، لا يحمل معنى العبودية الذى يكرهه ، فاختار لنفسه اسم (يعقوب) ، ولكنه أخفق فى محاولته ؛ اذ لزمه اسمه القديم ولصق به ، ولم يعرفه معاصروه الا به ، ولم تذكره الدوائر العلمية الا بهذا الأسم الذى أراد التنصل منه .

ومن الواضح أن نسبته وهى (الرومى) تشعر بأنه رومى الأصل ، نشأ أول ما نشأ فى بلاد الدولة البيزنطية ، وربما كان اغريقى الأصل ، وقد أشرنا الى هذه النسبة من قبل ، ويمكن أن نضيف الى ذلك أنه كان من تقاليد العرب التى تتسم بالطابع الانسانى ــ أنهم اذا وجدوا أنفسهم أمام شخص مجهول الأب ذكروه بأنه (ابن عبد الله) ، وهذا ما حدث بالنسبة لياقوت فى رأى بعض الباحثين ، وأنا لا أستبعد ما سبق أن حققته من قبل ، وقد شارك (ياقوت) فى اسمه مشاركة تامة اثنان من علماء العرب ، أولهما أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى ، وهو شاعر وأديب توفى سنة (٦٢٢ هـ ــ ١٢٢٥ م) والثانى ياقوت بن عبدالله الرومى ، وقد عاش بالموصل ، وكان أديبا نحويا وخطاطا ، وقيل انه ينسب الى مدرسة ابن البواب المشهور ، واتفاق عالمين فى الاسم مع ياقوت ليس أمرا غريبا ، وقد وقع هذا التوافق بالنسبة الى علماء كثيرين ، ومنهم

جابر بن حيان ، وكان لتعـدد اسم جابر أثر كبير فى تلك الحملة التى شنها بعض المستشرقين وفى مقدمتهم (ألدوميلى الايطالى) على الوجود التاريخى لجابر بن حيان ، والقاء ظلال كثيفة من الشـك فى وجود (أبو الكيميا العربية) • ولياقوت نسـبة أخـرى وهى (الحموى) وقد استعارها من سيده التاجر (عسـكر بن أبى نصر الحموى) ، وكان من أهل حماة ، ثم انتقل الى (بغداد) ، وأقام فيها •

وقد أفاد ياقوت من صحبـة سـيده (عسـكر بن أبى نصر الحموى) ، فقد عنى بتعليمه وتدريبه على الأسفار ، مما كان له أثر عظيم فى مستقبله العلمى ؛ اذ كانت هذه الأسفار تستهلك القليل من وقته فى ممارسة الشئون التجارية لسيده ، وأما الكثير منه فقد كان يقضيه فى دكاكين الوراقين ، واقتناء الكتب وجمعها ونسخ بعضها اذا تعذر الحصول عليها •

وقد يبدو هذا أمرا عجيبا فى حياة ياقوت بعد أن أعده سيده للتجارة ، وشحن ذهنه بالثقافات المتصلة بالأعمال التجـارية ، غير أن هذا قد يتبدد اذا علمنا أن الرحلات والأسفار عند العرب كانت من دواعى التأمل العلمى هذا الى ما لدواعى الفطرة والميول الطبيعية من أثر فى الاسـتجابة ، التى وجهت ياقـوتا ، ولذلك نراه يعطى دكاكين الوراقين ، وملاحظة الأماكن التى يمر بها ، والتعرف عليها ـ أكبر نصيب من عنايته واهتمامه ، ويركز على الاطلاع على تلك

الثقافات التى تلائم مزاجه الفطرى ، تلك هى الثقافات الجغرافية ، التى أولع بها ، واستمر حاله على هذا النحو وقتا ، ليس بالقصير ، الى أن وقعت بينه وبين سيده جفوة مفاجئة ، أعقبتها القطيعة وانفصام عرا الروابط التى كانت بينهما ، وانتهى الأمر بعتق ياقوت ، واطلاقه من أسر عبوديته سنة (٥٩٦ هـ) •

وعندئذ وجد ياقوت نفسه حرا طليقا ، واتسع لديه الوقت ، الذى عاونه على تحقيق مآربه واشباع ميوله ، فاغتنمها فرصة ذهبية ، وراح يعمل فى صبر دائب ونشاط متصل على الاطلاع والبحث والدراسة ، فاشتغل أولا بنسخ الكتب لقاء أجر يتقاضاه ليعيش منه ، وليزود مكتبته بما ليس فيها ، واستمر فترة من حياته يشق طريقه مكافحا فى سبيل لقمة العيش والعلم معا ، ولو قدر لياقوت أن يستمر طويلا سائرا فى هذا الخط ، الذى ألجأه اليه سيده لكان له شأن آخر ، ولكن ما تلبث العلاقات أن تعود بينه وبين سيده على نحو ما كانت ، ويتصل ما انقطع بينهما لأن عسكرا الحموى شعر بعد هجر ياقوت له ـ بأنه وقع فى خطأ جسيم ، وأنه ينبغى أن يصلح خطأه ـ بأن يحاول استرجاع ياقوت ، فيستدعيه ويسترضيه ، ويعيده الى خدمته معززا مكرما ، ثم يعطيه مالا وتجارة واسعة ، ويأمره بالسفر ، ويطول سفر ياقوت فى هذه المرة فوق العادة ، فقد أغرته الأرباح الطائلة ، التى ظلت تتدفق الى جيبه ثم يعود من سفره بعد غيبة طويلة الى بغداد ، ليجد سيده قد توفاه

الله ، ويستطيع ياقوت أن يرضى زوج سيده وأولاده ببعض المال، ويحتجز الباقى لنفسه ، فيصبح بعد عشية وضحاها صاحب رأس مال ضخم ، ولكن ماذا يصنع بهذا المال ؟ انه لم يفكر كثيرا ؛ لأنه وجد أن تجارة الكتب هى السبيل الى تحقيق آماله ، ولعله اختار هذا النوع من التجارة ، ليجمع بين الخبرة التى كسبها من الاتجار فى مال سيده واشباع دوافعه النفسية وميوله الى القراءة والاطلاع على أكبر عدد ممكن من المراجع والمخطوطات .

وقد كانت الوراقة يومئذ المدرسة الكبرى والجامعة العريقة والمعهد الذائع الصيت ؛ لأنه كانت تتوافر فيها وقتئذ جميع أدوات التثقيف والتحصيل العلمى ، فوجد ياقوت فى رحابها كل ما ساعده على ارضاء طموحه العلمى ، وتزويد نفسه بالثقافات الجغرافية ، ولذلك بدأ يقوم برحلاته المشهورة .

٣ ـ رحلاته وأثرها فى مادته الجغرافية

يقال ان سيد ياقوت ـ عسكر بن أبى نصر الحموى ـ بدأ يصطحبه فى أسفاره ، وكان ما يزال حدثا صغيرا ، فلما اكتمل جسمه ونضج عقله أخذ يبعث به وحده فى أسفار كثيرة ، وكان ياقوت فى أول عهده برحلاته يكثر من التردد على جزيرة (كيش) وقيل (كرش) « Krish » ، وتقع فى بحر (عمان) فى الخليج العربى ، وكانت وقتئذ تعتبر من أهم المراكز التجارية العربية

الاسلامية ؟ اذ كان يفد اليها كثير من تجار العالم العربي الاسلامى وغيره من الأقطار ، حتى أصبحت مركزا كبيرا لتجمع أعداد كبيرة من ممثلى التجار من مختلف الأقطار والشعوب ، وقد اكتسبت هذه الجزيرة تلك الشـهرة لموقعها التجارى الفـريد ، ولتوافر الخصب فيها ، فقد عرفت بكثرة نخيلها وثمارها وعيونها التى يتدفق منها الماء العذب ، مما كان يقوم بحاجة أهلهـا وتلك الأعـداد الكبيرة من التجـار الذين كانوا يأتون اليها من بلدان شتى ، ويجتمعون فيها للتبادل التجارى •

ومما يؤكد ما كان لهذه الجزيرة العجيبة من شهرة تجارية ، وصل خبرها الى العالم الغربى ـ أن الرحالة (بنيامين التُطيلى) Benjamin of Tuoela قد زارهـا قبـل ياقوت ، فسر منهـا ، ومدحها كثيرا فى مذكراته ، مبينا أهميتها التجارية ، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وبعد مائة عام من زيارة (بنيامين) لها أى فى القرن الثالث عشر ، وفى النصف الثـانى منه ـ زارها (ماركوبولو) البندقى Marco Polo

وما لبثت هذه الجزيرة العربية تتمتع بشـهرتها زمانا ، حتى بدأت تفقد أهميتها التجارية تدريجا ، بسبب منافسة (هرمز) لها على الساحل الفارسى للخليج العربى • وفى أثناء ذلك بدأ ياقوت يقوم بعدد من الرحلات ، وبخاصة بعد انفصاله من سيده ، فكانت

رحلته الأولى فى سنة (٦١٠ هـ) ، وقد زار خلالها تبريز والموصل والشام ومصر .

وفى سنة (٦١٣ هـ) خرج من دمشق الى حلب فاربل فارمنيه ، ومنها الى تبريز ، ثم ايران الشرقية ، وقيل انه أمضى عامين بنيسابور وأثناء اقامته بها علق قلبه حب فتاة من أهلها ، وكان أول حب له ، وفى رواية أخرى تقول : انه لما قدم هذه المدينة طاب له المقام فيها ، فاشترى جارية تركية من أحد أسواقها ، لم ير أن الله تعالى قد خلق أحسن منها خلقا وخلقا ، وقد ارتاح اليها ، وصادفت من نفسه محلا كريما ، ومن قلبه شغفا وحبا ، غير أنه لم يلبث أن أبطرته النعمة ، فاحتج بضيق ذات اليد وباعها ، فامتنع عليه القرار ، وجانب المأكول والمشروب ، حتى أشرفت نفسه على البوار ، فأشار عليه النصحاء باسترجاعها ، فعمد الى ذلك، ولكنه أخفق، ولم يجد سبيلا الى تحقيق غايته ، لأن الذى اشتراها كان غنيا ، وقد حلت فى قلبه ، ونالت منه أضعاف ما نالت من قلب ياقوت ، فأسف أشد الأسف وندم غاية الندم ، ثم لم يلبث أن ترك (نيسابور) متجها الى (هراة) و (سرخس) ، حتى بلغ (مرو) ، وفى هذه المدينة أمضى عامين ، حيث أعجبته مكتباتها المشهورة ، فظل يتنقل بينها ، ويتردد عليها ، مستغلا كل أوقاته فى القراءة والاطلاع وتدوين المذكرات ، ويبدو أن (ياقوتاً) قد اطمأن كثيرا الى (مرو) ، فأثنى عليها كل الثناء ، وسره المقام فيها ، بالرغم مما تناقله الرواة وتحدثوا

به عن بخل أهل هذه المدينـة ، حتى ذمهـا الجاحظ في بخـلائه ؟
ولكنه قرر الاقامة فيها وقضـاء بقية أيامه ، كما روى أنه فكر فيها
لأول مرة فى وضع (معجم البلدان) سنة (٦١٥ هـ ــ ١٢١٩ م)
غير أن الرياح تأتى أحيانا بما لا تشتهى السفن ، فقد أفسد عليـه
المقام فيها والعمل على تجميع مواد معجمـه المشـهور ــ ما نقل الى
مسامعه من فظائع التتار ، واجتياحهم لكثير من البلاد الاسـلامية ،
واستيلائهم على بخارى وسمرقند ، وارتكابهم أشنع الجرائم ، ففر
هائما على وجهه من مرو قاصدا خراسان ، وقد كان لهذا الهرب
المفاجىء من مرو تأثير كبير على مادته العلمية الجغرافية ، التى بدأ
يجمعها استعدادا لوضع كتابه المشهور (معجم البلدان) ، اذ ترك
هذه المادة مرغما فى مكتبات مرو . وفى طريقه مر بالرى وقزوين
وتبريز الى أن بلغ الموصل ، فدخلها فقيرا معدما ، لا يملك شيئا ،
ولكنه لم يلبث أن غادرها متجها الى (حلب) حيث وجد فى عطف
الوزير الفيلسوف (القفطى) وزير الظاهر بن صلاح الدين الأيوبى
ما ساعده على تحسين حاله ، وفى كنف هذا الوزير العالم الفيلسوف
صاحب كتاب (اخبار العلماء بأخبار الحكماء) وجد الفرصة سانحة
للعمل السريع فى اعداد مادة معجمه من جديد ، واسـتمر يعمل
جادا نشيطا ، حتى أتم التسويدة الأولى للمعجم فى سنة (٦٢١ هـ ــ
١٢٢٤ م) ، ثم رفعها اليه ، ومن الواضح أن (ياقوتاً) كان يستهدف
من ذلك الحصول على اجازة الوزير لكتابه ، وأن يكسب رضاه ،

لأنه شملة بعطفه ، وقد ذكر هذا الوزير ، وكان يعرف بالقاضي الأكرم ، وهو جمال الدين بن الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم ابن عبد الواحد الشيباني في كتابه (انباء الرواة على أبناء النحاة) أن ياقوتا كتب اليه رسالة من الموصل بعد وصوله اليها هاربا من التتر ، يصف فيها حاله ، وما جرى له معهم ، وهو يبدأ رسالته بما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم •

أدام الله على العالم وأهليه والاسلام وبنيه ـ ما سوغهم وحباهم ومنحهم وأعطاهم من سبوغ ظل المولى الوزير أعز الله أنصاره ، وضاعف مجده واقتداره ، ونصر ألويته وأعلامه ، وأجرى باجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه ، وأطال بقاه ، ورفع الى عليين علاه ، في نعمة لا يبلى جديدها ، ولا يحصى عددها ولا عديدها ، وأدام دولته للدنيا والدين ـ يلم شعثه ، ويرفع مناره ، ويحسن بحسن أثره آثاره ، ويفتق نوره وأزهاره ، وينير نواره ويضاعف أنواره ، وأسبغ ظله للعلوم وأهلها ، وللآداب ومنتحلها والفضائل وحاملها •••

ثم يقول : وكان المملوك لما فارق الجناب الشريف ، وانفصل من مقر العز اللباب والفضل المنيف ، أراد استعتاب الدهر الصالح، واستدرار (خلف) الزمان الغشوم الجامح ، اغترارا بأن الحركة

بركة ، والاغتراب داعية الاكتســاب ، والمقــام على الاقتــار ذل وانتقام .

إن الليالىَ والأيام لو سُئلت عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وطر ، أو ادراك أرب ، ومع عبوس الحظ ابتســام الدهــر الفظ ، ولم أزل مع الزمان فى تقييد وعتاب ، حتى رضيت من الغنيمة بالاياب ...

ثم يقــول : الى أن حدث بخراســان ما حدث من الخراب والويل المبير والتباب ، وكانت ـ لعمر الله ـ بلادا مونقــة الأرجاء رائعة الانحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة ، قد تغنت أطيــارها ، فتمايلت طربا أشــجارها ، وبكت أنهــارها فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصح مزاج اقليمهــا ... الى أن يقول : فجاس خلال تلك الديار أهل الـكفر والالحـاد ، وتحكم فى تلك الأستار أهل الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالممحو من الســطور ، وأمست تلك الأوطان مأوى للأصــداء والغــربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتناوح فى أراجيها الريح السموم ، فانا لله وانا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت فى العضــد ، وتشيب الولد ، وتنخب لب الجليد ، وتســود القلب ، وتذهل اللب ، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن الأوبة الى حيث تســتقر فيه النفس بالأمن آيســا ... فتوصــل ، وما كاد حتى اســتقر بالموصــل ، بعد مقاســاة أخطار ، وابتــلاء

واصطبار » ... ويقول السيد أمين الخانجي في كتابه (منجم العمران) عنها : وهي رسالة طويلة ، ذكر فيها تجوله في الأصقاع ، وتنقله في البلاد ومن أرادها فليرجع الى وفيات الأعيان لابن خلكان.

ويهمنا ونحن أمام رسالة نسبت الى ياقوت ، أن نقف وقفة قصيرة ؛ لأنها وثيقة تاريخية تلقي ضوءا على أحداث العصر ، ويمكن أن نستنبط منها ما يلي :

١ ـ لقد رسم ياقوت في هذه الرسالة صورة واضحة لما كان يلقيه التتر (١) في قلوب الناس من الرعب والفزع ، ثم ما حل بخراسان من التخريب والتدمير ، وما أصاب أهلها ونزل بهم من خطوب وويلات ، وما تعرض له ياقوت نفسه من الأخطار ، التي كانت تلاحقه الى أن وصل الى الموصل .

٢ ـ وواضح في الرسالة اهتمام ياقوت بوصف أحوال البلاد الاسلامية ، قبل اجتياح التتار لها ، وقد كانت تنعم بما فيها من

---

(١) (التتر والتتار) : اسم شعب يختلف مدلوله باختلاف العصور ، وقد ورد في الكتابات الاورخونية القديمة ، التي ترجع الى القرن الثامن الميلادي ذكر طائفتين من القبائل التترية ، وهما التتر التسع ، والتتر الثلاثون ، ويذهب (Thomsen) الى ان اسم تتر كان يطلق في ذلك العهد على المغل او فريق منهم ، وليس على الشعب التركي ، ويقول : ان هؤلاء التتر كانوا يعيشون على وجه التقريب في الجنوب الغربي من بحيرة (بيكال) واطلق ابن الاثير في كتابه (طبعة نورنبرج) ج ٢ ص ١٧٨ وما بعدها هذا الاسم على اسلاف (جنكيز خان) ، ويقال ان (جنكيزخان) نفسه استعمل هذا الاسم رسميا .

جنات ذات أعناب ، وما تميز به هواؤها من اعتدال ولطف ، ثم ما صارت اليه بعد أن غزتها جحافل التتار ، وأحدثته فيها من تخريب وتدمير وقتل وسفك دماء ، وقد وصف التتر بأنهم من أهل الكفر والزيغ والالحاد ؛ لأنه لا يفعل بأرض الاسلام وأهلها مثل ما فعلوه الا الكافرون الضالون ، مما يدل على أن ياقوتا كان ذا عقيدة اسلامية صافية ، ويؤيد ذلك ما أبداه من أسف شديد على تفكك عرا الدولة العربية الاسلامية ، وانهيارها الساحق أمام هذه الجحافل الملحدة المتبربرة ، ثم حزنه الدفين العميق على تركه مدينة (مرو) الزاهرة العامرة بمكتباتها ، وهو الذى وصف كتبها النادرة من قبل بأنها أنسته الأهل والأحباب والوطن والأصحاب .

٣ — وياقوت بالرغم من أنه رومى الأصل — الا أن لغته العربية فى الكتابة ، قد وصلت الى مستوى يجارى فيه أدباء عصره فهو يؤثر السجع ويلتزمه ، ويستخدم المحسنات البديعية ، ويستشهد بالشعر ، فلم يخرج فى ذلك على مألوف عصره ، وان بدا متكلفا بعض التكلف .

٤ — وياقوت وهو العالم الكبير والجغرافى العظيم — يزل زلة كبيرة فى رسالته؛ اذ جعل نفسه مملوكا لوزير حلب ، والمعروف أن سيده قد أطلقه منذ زمن بعيد ، وتمتع بحريته وقتا ليس بالقصير ، ولكن يبدو انه لم ينس عبوديته الأولى ، وكان ينبغى عليه أن يحرر نفسه من كل قيد من قيود الرق ، بالرغم من كل الاعتبارات التى

تحمله على استعمال صيغ وعبارات مخصوصة فى مخاطبة من يظنهم أعلى مقاما وأسمى مكانة منه •

٥ ـ ولكننا نلاحظ أن أسف ياقوت لم يكن كافيا ، بالنسبة لانهيار الممالك الاسلامية ، وأقاليم الخلافة العباسية الكبرى أمام التتر ؛ اذ كان من واجبه وواجب غيره من الكتاب والمؤلفين الذين كانوا يندبون وقتئذ حظ الخلافة العباسية ـ أن يدعوا فى كتابتهم الى تكتل العرب والمسلمين ، ووقوفهم صفا واحدا ضد أعدائهم ، ولا يمكن أن نقبل عذر أصحاب الأقلام آنئذ ، بأنهم لم يكونوا على درجة من الوعى والنضج السياسى ـ تتيح لهم أن يوجهوا كتاباتهم وجهة وطنية قومية ، بدليل أن ياقوتا نفسه كان متعصبا ضد على كرم الله وجهه ، ويقال انه طالع كتب (الخوارج) (١) ، واقتنع

---

(١) (الخوارج)

جماعة من المسلمين ، كانوا فى أول امرهم من رجال على كرم الله وجهه ، يحاربون معه ضد معاوية فى الشام ، ولما نشأت بدعة التحكيم ـ وافقوا عليها اول الامر ، ثم رجعوا عنها ، فقالوا : لا حكم الا لله ، واعتزلوا عليا ، ونزلوا (حروراء) بظاهر الكوفة ، ثم أوقع بهم على بالنهروان قرب المدائن سنة ٣٨ هـ لانهم كانوا يعبثون ويفسدون ، ويرتكبون المحارم ، غير انهم صاروا فيما بعد حزبا سياسيا ودينيا ، له شأنه الخطير فى التاريخ الاسلامى ، ومن آرائهم :

ـ ان الامارة يجب الا تكون مقصورة على أسرة بعينها ، وان كل مسلم صالح لان يلى الخلافة ، متى كان متصفا بالتقوى والشجاعة .

ـ وان كل خليفة يسىء السيرة يجب عزله ..

ولذلك وصفت مبادئهم السياسية بأنها ديمقراطية ، اذ كانوا من هذه الناحية يستهدفون اقامة حكومة جمهورية اسلامية . =

بما فيها ، وكان يصوب آراءهم فيما ذهبوا اليه من آراء فى التحكيم وغيره •

ولما قدم دمشق اتصل بنفر من أهلها فيأحد أسواقها، وكانوا من غلاة (الشيعة) (١) ، فأخذ يناظرهم ، وجرى بينه وبينهم ، حديث ذكر فيه عليا (رضى الله عنه) بما لا يرضون ، فسخطوا عليه ، وثاروا به ، وكادوا يقتلونه ، لولا أنه أسرع فى الفرار من دمشق قاصدا حلب ، وروى أنه غادرها بعد ذلك قاصدا فلسطين

= ولكن مذهبهم الدينى يقوم غالبا على التعصب الشديد ، والاسلام بظاهر القرآن ، وانهاك الجسم بالصلاة ، والشدة على من ليس من مذهبهم من المسلمين •

ومن فرق الخوارج الازارقة ، وكانوا يقولون بتكفير المسلمين ، وهم بخلاف الاباضية .

(١) (الشيعة) طائفة من المسلمين تؤمن بمبدأ التشيع ، وهو بدعة طارئة على المسلمين ، وأول من ابتدعها (عبد الله بن سبأ اليهودى) ، وهو يهودى من اليمن ، أسلم واظهر الاسلام فى ايام عثمان رضى الله عنه ، ثم انتقل الى الحجاز ، وقام بنشر التشيع بعده (المختار بن أبى عبيد) ، وقد مالت نفوس الفرس الى آراء الشيعة ، وآمن الكثيرون منهم بهذا المذهب ، واذا كان مذهب الخوارج هو المذهب الديمقراطى فى الاسلام ، لانه يرمى الى عدم حصر الخلافة فى اسرة معينة ـ فان التشيع هو المذهب الارستقراطى لانه يرمى الى حصر الخلافة فى آل على بن أبى طالب ، والفرق بين مذهبى الشيعة والخوارج : ان مذهب الشيعة سياسى ودينى معا ، أما مذهب الخوارج فمذهب سياسى فحسب ، وترى النظرية الشيعية وجوب اتصال حق الخلافة ببيت النبوة ، فالخلافة فى رأى الشيعة منصب دينى ودنيوى ، اذ يتعين القائم فيه بتعيين الامام الذى سبقه ، مستدلين على ذلك بأن الرسول صلوات الله عليه ، قد أوصى بالخلافة الاولى للامام على ، والامام فى رايهم معصوم ، لا تحل مخالفته ، ولا يجوز عزله .

ومصر ، ولكنه فى نهاية المطاف عاد الى حلب أخيرا ، وبدأ فيها منذ أول يناير سنة (٦٢٥ هـ - ١٢٢٨ م) يعمل على تهذيب معجم البلدان ، غير أن منيته قد عاجلته قبل أن يفرغ من عمله ، وكانت وفاته فى ٢٠ من أغسطس سنة (٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) بخان عند أحد أبواب حلب ، ولم يتجاوز الخمسين من عمره وقيل انه وقف مكتبته الكبيرة على مسجد ببغداد ، وقام ابن الأثير المؤرخ بتنفيذ وصيته •

٤ - أساتذة ياقوت وشيوخه

أشرنا من قبل الى أن (عسكر بن أبى نصر) كان فى حاجة ماسة الى تعليم ياقوت ، لكى يضبط له حساب تجارته ، وما كاد ياقوت يجلس بين أيدى المؤدبين والمعلمين - حتى ظهرت فطرته المخصبة ، وانكشفت ميوله واستعداداته ، فبدا تفوقه فى دراسته واضحا ، وقد دفعه ذلك الى مزيد من الاطلاع والأخذ عن العلماء ، فكان من أساتذته المشهورين (العكبرى) الأديب اللغوى ، شارح ديوان أبى الطيب المتنبى ، والمطلع على شرح العكبرى لهذا الديوان يلمس فيه النزعة اللغوية ، ثم كان من أساتذته وشيوخه (ابن يعيش) النحوى ، شارح كتاب المفصل فى النحو للزمخشرى ، وهذا الشرح مشهور ، ويقع فى عدة أجزاء ويلاحظ أن شيوخه كانوا من اللغويين والنحويين ، لأنه أراد أن يدعم ثقافته اللغوية ، لكى يتغلب على عجمة لسانه ، ولكنه بالرغم مما بذله فى ذلك فان

لغته لم تصل الى مستوى عال من البلاغة ، ولكننا برغم ذلك نجد كتابته فى التأليف وفى انشاء الرسائل ــ وقد درسنا له نموذجا منها ــ على درجة طيبة من الاجادة الفنية .

ومن العجيب أن يروى عنه أنه كان شاعراً رقيقاً وقد رويت له أشعار ــ وان كانت قليلة ــ الا أنها تدل على خيال مخصب وطبع أصيل ، قال الكمال الموصلى فى كتاب (عقود الجمان) أنشدنى أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادى ، صاحب تاريخ بغداد ، قال أنشدنى ياقوت فى غلام تركى ، وقد رمدت عينه ، وعليها رفائد سوداء .

ومُوَلَّد للترك تحسب وجهه بدراً يضيءُ سناهُ بالإشراقِ
أرْخى على عينيه فضل وقايةٍ ليرد فتْنتها عن العُشّاق

٥ ــ ياقوت كما يراه المستشرقون

وصفه المستشرق الروسى الكبير (كراتشكوفسكى) بأنه الجغرافى العربى الوحيد ، الذى ظهر فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وأنه قد حاول محاولة جادة وضع مرجع كبير ، يجمع ما تفرق من المادة الجغرافية المعروفة فى عصره ، وكان ذلك فى وقت كادت فيه هذه المادة وغيرها من مواد التراث العربى الاسلامى ــ توشك أن تضيع فى طوفان من الفتن المتلاحقة والمصائب المتابعة ، التى بدأت تجتاح العالم الاسلامى كله ، بسبب

الغزو التترى المخرب المدمر لكل مظاهر الحضارة والمدنية ، ولقد كان هذا المعجم فى الصورة التي رسمها فيه ياقوت ، وفى المادة التى جمعها فيه ـ ممثلا بكل دقة لآخر انعكاس للوحدة الاسلامية ، التى كانت قائمة فى عصور ازدهار الاسلام .

ويهتم المتحدثون عن ياقوت من المستشرقين بتقرير مسـألة هامة ، وهى وجـود الارتبـاط القـوى بين ياقوت ومعجم البـلدان فالحديث عن كل منهما يعتبر تعبيرا عن الآخر ، ويقـول الأسـتاذ (نفيس أحمد) فى كتابه (جهود المسلمين فى الجغرافية) : « ان أهمية معجم البلدان ترجع الى أنه يصور العالم الاسلامى فى الفترة السابقة على الخراب ، الذى أصاب ثقافته وثروته بأيدى المغول » .

ولا شك فى أن معجم البلدان فى الوقت الذى ألف فيه كان من أفضل المصنفات الجغرافية ، التى قام بها مؤلف عربى فى العصور الوسطى ، ومن الأدلة على ضخامة هذا العمـل الجليل الذى قام به ياقوت ـ أن ذلك المعجم يتـألف من ثلاث آلاف وثمانمـائة وأربع وتسعين صفحة ، وتتناول هذه الصفحات الكثيرة بين سطورها مادة علمية للجغرافية فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات، كذلك تعكس هذه الصفحات الكبيرة ألوانا وصورا دقيقة للجغرافية التاريخية ، وما يتصل بها من دين وحضارة ، وأجناس ، وفصائل بشرية ، وأدب شعبى (Folklore) وأدب فنى ، وفى هذه الصور التى جمعها ياقوت ، وأنفق فى سبيل جمعها الكثير من الطاقة والجهد

ـ خلاصة المعلومات الجغرافية التى وصل اليها العرب والمسلمون فى مدى القرون الستة الأولى للهجرة وما قبلها ، وذلك بالاضافة الى طائفة كبيرة من النصوص الأدبية والشواهد الشعرية ، التى تقرب من خمسة آلاف بيت ، وهى ولا شك تكون مادة أدبية ، ذات قيمة فنية .

تلك مادة معجم البلدان فى اجمال ، ولا ريب فى أنها تلقى ضوءا قويا على الجهود التى بذلها ياقوت فى احياء ناحية من نواحى التراث العربى الاسلامى .

وقد بدأ المستشرقون فى أوربة يتعرفون على ياقوت، ويقومون بدراسات له منذ القرن التاسع عشر ، وكانت المخطوطات التى تحمل آثاره العلمية والأدبية قد تسربت الى المكتبات الأوربية المعنية بالتراث الشرقى ، وبخاصة التراث العربى الاسلامى ، ومن أوائل علماء الاستشراق الذين وجهوا عنايتهم الى دراسة ياقوت العالمان (راسموسن) Rasmussen (١٨١٤ م) و (فرين) Frahn (١٨٢٧ م) ، فقد نسب الى هذين العالمين أنهما نقلا عن معجم البلدان القطعة الخاصة بابن فضلان ، وهو الرحالة العربى الذى رأس البعثة ، الموفدة من المقتدر العباسى الى ملك (بلغار) ، هذه البعثة التى كان لها أثر قوى فى دعم الصلات والروابط بين الروس والعرب منذ العصر العباسى الثانى .

وكان العلامة (فرين) أول من كتب عن شخصية ياقوت ،

وعرف به ، غير أن المتن الكامل لكتاب معجم البلدان ظل مخبوءا لم ير النور الا فى سنة (١٨٦٠ م) •

ومن علمــاء الاستشراق الذين قدروا جهــود ياقوت العــالم (سنكوفسكى) ، فقد وصف ياقوتا بالدقة والاجتهاد واعترف بأن علم الاستشراق مدين له ، لأن ياقوتا فى معجمه حفظ وسجل بكل دقة آثارا قيمة فى جغرافية وتاريخ العصور الوسطى ، ولأنه كان من علماء العرب غير المتحمسين الذين عنوا بدراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية التى كانت معروفة فى عصره (١) •

بيد أن العالم المستشرق (فرديناند فستنفلد) كان فى مقدمة المستشرقين الذين قاموا بجهود صادقة متصلة فى اخراج أول طبعة كاملة لمعجم البلدان ، وترجع أهمية هذه الطبعة فى أوربة الى العمل العلمى البارز الذى اضطلع به (فستنفلد) فى تحقيق الشخصيات التاريخية ، التى ذكرها ياقوت ، ولكى يتمكن من النهوض بهذا العمل الثقافى الكبير اضطر الى مراجعــة عــدد كبير من المصــادر والمراجع المختلفة ، ولذلك اعتبرت طبعته من أفضل الطبعات ، التى كانت المصدر الوحيد لجميع المشتغلين بالدراسات العربية فى الميدان الجغرافى •

ويشير (كراتشكوفسكى) الى طبعة الخانجى للمعجم فى مصر،

---

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ــ للمســتشرق الروسى الــكبير (اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى) ــ دار النشر والترجمة والتأليف .

ويرى أن الاضافة التى قام بها الخانجى ، وهى (منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان) لا تمثل قيمة كبيرة من وجهة النظر العلمى ، وقد يكون العلامة الروسى على حق فيما ذهب اليه ـ اذا وضعنا فى اعتبارنا أن أسلوب ياقوت فى تأليف معجمه والعمل العلمى الذى قام به كان ملائما للاتجاهات العلمية فى عصره ، أما القيام بعمل يعتبر امتدادا لهذا الأسلوب فى عصرنا ـ فانه من غير شك يعد عملا خاليا من الابتكار ويوضح العلامة الروسى رأيه فى منجم العمران بقوله : ان عمل الخانجى لا يزيد على أن يعطينا فكرة عن أن الأوساط المثقفة فى الشرق العربى ـ ما تزال تسير على الأنماط القديمة فى تأليف المعاجم الجغرافية التقليدية .

ومن الذين شغلوا بدراسة المادة الجغرافية لياقوت (باربييه دى مينار) ، فقد اعتمد على معجم البلدان فى وضع دراسة منسقة عن ايران ، وقد أفادت المادة التى جمعها (دى مينار) فى نواح أخرى ، اذ كانت عونا لمن قاموا بدراسة الحروب الصليبية ، ووضع فهرس منظم للموضوعات الأدبية الشعبية الفلكلورية (Folklore) كذلك قام (مدنيكوف) (١) Mednikov بتحليل عام لمعجم البلدان ، القاه فى محاضرة له ، ولكنها لم تطبع ، وقد تناول فيها

---

(١) (مدنيكوف) : هو نيقولاى ميدنيكوف ، مستشرق روسي ، كان أستاذا لكراتشكوفسكي (١٨٥٥ م ـ ١٩١٨) ، وقد ترجم وجمع وشرح اخبار جميع رجال التاريخ والجغرافية العربية القديمة عن (فلسطين) ، واخرج ذلك فى كتاب ، يقع فى اربعة اجزاء كما الف كتابا كبيرا ضمنه الافعال العربية على نظام الجداول .

طريقة ياقوت فى جمع ودراسة المصادر ، التى اعتمد عليها ، ومنهجه العلمى فى نقد النصوص ، التى أوردها فى معجم البلدان •

ويقول (نفيس أحمد) : ولقد قام ياقوت بدراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، والحق أنه هدانا باشاراته التى وردت فى ثنايا كلامه الى كتب متعددة ، لم يعد يتيسر الحصول عليها ، ويبدو استعماله المنهج النقدى ، الذى يأخذ به الجغرافى الحديث ، حين ينقد اشارات بطليموس الى مدن ومواضع من جزيرة العرب ، فيذكر ياقوت أنه قد فشل فى تحقيق كثير من الأماكن التى وردت فى كتابات بطليموس ، لأنها لم تعد بعد قائمة •

وسنشير الى ذلك بشىء من التفصيل حينما نتناول مقدمة ياقوت لكتابه (معجم البلدان) فى موضعها من هذا الكتاب •

وقد اعترف بأسبقية ياقوت وأصالته فى التأليف الجغرافى المستشرق الأمريكى (سارتون) فى كتابه (المدخل لتاريخ العلم) والمستشرق الفرنسى (كارادىفو) فى كتابه (مفكرو الاسلام) •

٦ ـ العوامل التى ساعدت ياقوتا على التفوق فى وضع الموسوعات الجغرافية والأدبية •

أشرنا من قبل الى أن ياقوتا نشأ كغيره من علماء العرب

والمسلمين عالما موسوعيا ، بيد أن شهرته فى تأليف الموسوعات الجغرافية والأدبية كانت تفوق شهرة غيره من علماء عصره ، ولذلك عوامل يمكن اجمالها فيما يأتى :

١ ـ قالوا ان الجفوة التى وقعت بينه وبين مولاه (عسكر بن أبى نصر الحموى) لأول مرة ـ كانت سببا فى عكوفه على نسخ الكتب والاشتغال بالوراقة ، وياقوت وان كان قد قام بهذا العمل باعتباره وسيلة من وسائل كسب العيش والارتزاق ـ الا أنه قام به فى الوقت نفسه تلبية لدوافع نفسية على درجة من القوة ، قد استولت عليه ، واستجابة لميول طبيعية ، سيطرت على تفكيره ، فتوفر على الاشتغال بعلوم الجغرافية ، وقد ساعده على ذلك رغبة ملحة فى التحصيل والدراسة •

٢ ـ ثم قيامه بعمل عظيم كان ذا أثر قوى فى اشباع دوافعه النفسية ، فانه لما توفى مولاه عسكر بن أبى نصر ، نال منه أموالا كثيرة ، فلم يجد وسيلة نافعة فى رأيه ، وأجدى فى تقديره ، لاستخدام هذا المال وتثميره من الاتجار به فى الكتب والمخطوطات، فأدى ذلك الى نمو مكتبته وازدحامها بمختلف المراجع ، وعندئذ اتسعت أمامه مصادر المعرفة ومراجعها ، وهو الرجل الطلعة ، فثقف منها ، وأروى غلته ، وبذلك ازداد علما وثقافة وقدرة على تأليف الموسوعات •

٣ ـ هذا بالاضافة الى كثرة أسفاره ورحلاته ، التى استغرقت

شطرا كبيرا من حياته ، مترددا أثناءها على كثير من البلدان ، والأقطار المتعددة ، وقد استغل هذه الرحلات فى زيارة أكبر عدد ممكن من دور الكتب وخزائنها النفيسة والاطلاع على ما فيها من المراجع ، ونسخ ما فيها من كتب ، هذا الى أن هذه الرحلات قد هيأت له فرصة التعرف بنفسه على الأماكن والبقاع والبلدان ، التى مر بها ، أو أقام فيها .

٤ ـ وكان ياقوت بطبيعته محبا لاقتناء الكتب ، ولا شك أن هذا الحب كان نابعا من رغبة عارمة فى القراءة والاطلاع ، ويقول ابن خلكان فى نهاية ترجمته لياقوت : أنه وقف كتبه على مسجد الزيدى بدرب دينار بمدينة السلام (بغداد) ، وسلمها الى الشيخ عز الدين بن الأثير صاحب الكامل فى التاريخ .

٥ ـ وفضلا عن أن ياقوتا كان عالما غزير المادة فى ميدان العلوم الجغرافية ـ فقد كان الى جانب ذلك أديبا كبيرا ، ومؤرخ آداب ، برز فى كتابة فن (تراجم الأشخاص) بوضعه موسوعته الثانية المشهورة ، وهى (معجم الأدباء) غير أن تراجمه الأدبية فى هذا المعجم لم تسلم من بعض النقد ، مما سنشير اليه فى موضعه عن هذه الموسوعة الأدبية الكبرى .

جاء فى تاريخ (اربيل) الذى عنى بجمعه أبو البركات بن المستوفى أن ياقوتا قدم (اربل) فى رجب سنة (٦١٧ هـ) وكان مقيما فى (خوارزم) ، وفارقها للواقعة التى جرت بين التتر والسلطان (محمود بن تكش خوارزم شاه) ، وكان قد تتبع التواريخ ، وصنف كتابا سماه (ارشاد الألباء الى معرفة الأدباء) يدخل فى أربعة جلود كبار •

ومن تصانيفه : معجم البلدان ، ومعجم الشعراء ، وكتاب (المشترك وضعا المختلف صقعا) ، وهو من الكتب النافعة ، وكتاب (المبدأ والمآل) فى التاريخ ، وكتاب « الدول » ، وكتاب (أخبار المتنبى) ، ومجموع كلام أبى على الفارسى ، و «المقتضب فىالنسب» يذكر فيه أنساب العرب •

ويقول (كراتشكوفسكى) : ان ياقوتا وضع كتابين ، أتم طبعهما قبل أن يؤلف معجمه الكبير (معجم البلدان) وقد هبطت قيمتها العلمية بعد ظهور معجم البلدان ، ولكنه يناقض نفسه حين يقول ان أحد الكتابين وهو (المشترك وضعا المختلف صقعا) وضعه بعد المعجم ، ويزعم أنه قد استخرجه من المعجم ، ليكون أسهل عند المراجعة ، ولذلك كانت مادته مختصرة ، ووجه التناقض واضح فى كلام العلامة الروسى ، فقد ادعى أن كتاب (المشترك وضعا لمفترق

صقعا) ، وضع قبل المعجم الكبير ، ثم رجع وقال : انه وضع بعد المعجم ، وكان بمثابة مختصر له ، ولا يفوتنا أن نشير الى أن ياقوتا قد ذكر في مقدمة معجم البلدان ـ أنه ينفر من المختصرات ، ولا يؤمن بفائدتها ، ويطالب بأ لايقدم أحد على اختصار معجمه ، فان ذلك يفقده قيمتــه العلميــة ، وقد أجمع أكثر الباحثين على أن ياقوتا هو صاحب كتاب (المشترك وضعا والمفترق صقعا) ، ولكن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون مختصرا ؛ لأنه شمل ألفا وواحدا وتسعين اسما ، عالجت أربعة آلاف ومائتين وواحدا وستين موضعا جغرافيا .

أما الكتاب الثاني فهو (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنــة والبقاع) ، ونلاحظ أن المستشرق الروسي كان مضطربا في نسبته الى ياقوت ، فقد زعم بأنه من وضعه ، ثم عاد يتشكك ، ويقول : ان (وينبول) Juynboll طبع مســودة هذا الكتــاب ، وهو موجز للمعجم الكبير ، وقد ألفه صفي الدين بن عبد الله المؤمن بن الحكم المتوفى سنة (٧٣٩ هـ ـ ١٣٣٧ م) ، ثم يقول : ان (رينيو) Reinaud عثر على ثلاث مسودات لهذا الكتــاب ، وقد نسب الأولى الى ياقوت ، وان كانت لم تصل الينا ، ولكنه يرتاب في قول (رينيو) بدعواه أن ياقوتا له موقف خاص من المختصرات ، فاذا وضعناه في اعتبارنا كانت نسبة هذا الكتاب اليه موضع شك كبير ، وأما المسودة الثانية فيرى (رينيو) أنها منسوبة الى صفي الدين ،

ثم ينسب الثالثة الى السيوطى ، والحقيقة التى لا تحتمل شكا أن كتاب مراصد الاطلاع من وضع ياقوت ، وأن صفى الدين بن عبدالمؤمن هو الذى قام باختصاره •

ومع هذا فان ياقوتا لم يشتهر الا بمعجميه العظيمين : (معجم البلدان) و (معجم الأدباء) لأنهما من الموسوعات التى طارت شهرتها شرقا وغربا ، اذ هما حافلان بألوان من الثقافات الجغرافية والدينية والأدبية والتاريخية واللغوية ، وغيرها ، وانصافا لياقوت، وتقديرا لمكانه بين الجغرافيين المسلمين ــ سأبدأ بدراسة (معجم البلدان) •

(١) معجم البلدان

ان النسخة التى بأيدينا عنى بتصحيحها وترتيب وضعها ، وكتابة المستدرك عليها ــ محمد أمين الخانجى الكتبى ، وقد قرأها على الأستاذ الأديب النحوى والراوية الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطى ، نزيل القاهرة ، وتقع فى ثمانية أجزاء ، وقامت بطبعها مطبعة دار السعادة ، بجوار محافظة مصر (القديمة) ، وتقع فى ثمانية مجلدات ، وملحق بها مجلدان لمنجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، وهما يمثلان الجزأين التاسع والعاشر •

عرض وتحليل لمقدمة الكتاب

بدأ ياقوت كتابه (معجم البلدان) بمقدمة طويلة ، جرى فيها على مذهب السلف الصالح من علمائنا الأجلاء ، وهى تعطى فكرة واضحة عن أسباب وضعه ، والغرض من وضعه ، وتلقى ضوءا على منهجه العلمى وطريقته فى البحث . وقد افتتحها بحمد الله تعالى والثناء عليه ، ونراه فى تحميده يبدو متأثرا الى حد كبير بموضوع كتابه فى الجغرافية ، وان كان قد تناول الى جانب ذلك فى معجمه هذا ضروبا أخرى من مختلف العلوم والفنون .

قال رحمه الله تعالى متحدثا عن قدرة الله تعالى فى ابداع خلقه للأرض ، التى جعلها مهادا وسكنا لخلقه :

الحمد لله الذى جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ، وبث من ذلك نشورا ووهادا ، وصحارى وبلادا ، ثم فجر خلال ذلك أنهارا ، وأسال أودية وبحارا ، وهدى عباده الى المساكن ، واحكام الأبنية والمواطن ، فشيدوا البنيان ، وعمروا البلدان ، ونحتوا من الجبال بيوتا ، واستنبطوا آبارا و (قلوتا) (١) وجعل حرصهم على ماشيدوا ، واحكام ما بنوا وعمدوا ـ عبرة للغافلين ، وتبصرة للغابرين ، فقال وهو أصدق القائلين : « أفلم يسيروا فى الأرض

---

(١) القلوت اسم الجنس منه قلت باسكان اللام ، وهو النقرة فى الجبل تمسك الماء .

فينظروا كيف كان عاقبة ، الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

أحمده على ما أعطى ، وأنعم ، وهدى الى الرشد ، وألهم ، وبين السداد وأفهم ، وصلى الله على خيرته من أنبيائه والمرسلين ، وصفوته من أصفيائه الصالحين ، محمد المبعوث بالهدى والدين المبين » .

واذا تأملنا هذا التحميد نرى ياقوتا يشير الى أن الله تعالى خلق الأرض ، وما فيها من جبال ووهاد وصحارى وبلاد ، وأنهار وبحار وأودية ، وأنه تعالى لحكمة يعلمها قد هدى الناس الى الاستقرار فى المدن ، ولا شك أن الاستقرار فى الأرض باتخاذ المساكن والأبنية للاقامة ــ كان أول مظهر من مظاهر الحياة الانسانية الراقية ، وكان الخطوة الأولى فى سبيل سير القافلة الانسانية فى معارج الرقى البشرى ، وينسب الى قدماء المصريين أنهم كانوا أول الأمم التى اهتدت الى ابتكار (القالب) المصنوع من (اللبن) الطين ؛ اذ كان هذا القالب هو الوحدة فى التشييد والبناء .

ويتخذ ياقوت من هداية الله تعالى لخلقه بتشييد المبانى واقامة المساكن ، والتنظيم الذى اتبعوه فى تعمير مساكنهم ثم ما حدث لهذه المبانى المشيدة من انهيار وخراب وفناء ، بسبب ظلم أهلها وضلالهم ــ عبرة للناس أجمعين ، فالله تعالى قد علم خلقه اتخاذ المساكن ،

لكى يقيموا فيها عمرانا ومدنية ، حتى يشعروا بأنهم يحيون حياة طيبة ، فاذا مافتنوا بالحياة الناعمة ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم .. أخذهم الله بذنوبهم ، وخرب بيوتهم بأيديهم ، وفى ذلك موطن العبرة فى سلوك الأمم الماضية التى ضلت سواء السبيل، لكى يتعظ الآتون بعدهم .

ولذلك نرى ياقوتا يستدل بالآية الكريمة على أن الناس ينبغى عليهم أن يسيروا فى الأرض ، ليتأملوا ما كان عليه من قبلهم من الأمم ، حين بغوا وأفسدوا فى الأرض ، فأهلكهم الله تعالى ، وما أغنى عنهم ملكهم الكبير الذى أقاموه وشيدوه ، ويلاحظ أن الآية الشريفة قد ربطت بين الحث على الرحلة فى الأرض ، وتأمل ما كانت عليه الأمم السابقة ، ونستطيع أن نفهم من هذا أن ياقوتا جعل الهدف الدينى أول أهداف كتابه ، وهو الرحلة للدراسة والتأمل والعبرة والعظة .

موضوع الكتاب :

ثم يحدد ياقوت موضوع كتابه، فيقول : « أما بعد فهذا كتاب فى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان ، والبحار ، والأنهار ، والغدران ، والأصنام ، والأبداد (١) ، والأوثان .

---

(١) (والابداد) واحده بد ، قال ابن دريد : الصنم نفسه الذى يعبد (فارسى) وجمعه بدده وابداد ، وقيل : البد : بيت الصنم والتصاوير (معرب)

وسنورد فيما بعد أمثلة ونماذج من هذا المعجم الكبير ، لتوضيح منهج ياقوت العلمى فى عرض ما تناوله من هذه الموضوعات التى أشار اليها .

الدوافع النفسية التى حملته على تأليف كتابه :

يوضح لنا ياقوت هذه الدوافع فى قوله : « ولم أقصد بتأليفه، وأصمد ، لتصنيفه لهوا ولا لعبا ، ولا رغبة حثتنى اليه ولا رهبا ، ولا حنينا استفزنى الى وطن ، ولا طربا حفزنى الى ذى ود وسكن، ولكن رأيت التصدى له واجبا ، والانتداب له مع المقدرة عليه فرضا لازبا ـ أوقفنى عليه العزيز الكريم ، وهدانى اليه النبأ العظيم ، وهو قوله عز وجل حين أراد أن يعرف عباده آياته ومثلاته ، ويقيم الحجة عليهم فى انزاله بهم أليم نقماته : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

فهذا تقريع لمن سار فى بلاده ولم يعتبر ، ونظر الى القرون الخالية فلم ينزجر ، وقال وهو أصدق القائلين: قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» . أى انظروا الى ديارهم كيف درست ، والى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست ، عقوبة لهم على اطراح أوامره ، وارتكاب زواجره ، الى غير ذلك من الآيات المحكمة والزواجر المبرمة .

ثم يقول : وقد ورد فى الأثر عن السـادات ممـن غبر قال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيـا محل مثلة ومنزل نقلة ، فكونوا فيها سياحين واعتبروا ببقية آثار الأولين .

وقال قس بن ساعدة الايادى ، الذى حكم له النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه يبعث أمة واحدة : « أبلغ العظات السير فى الفلوات ، والنظر الى محـل الأموات » . وقد مدح الشـعراء الخلفاء والملوك والأمراء بالسير فى البلاد وركوب الحـزن والوهاد فوجب علينا لذلك اعلام المسلمين بما علمناه ، وارفادهم بما أفادنا الله بفضله فأتقناه ؛ اذ كان الافتقار الى هذا الشأن يشترك فيه كل من ضرب فى العلم بسهم ، أو اختص منـه بنصيب أو قسـم ، أو اتسم منه باسم ، أو ارتسم بفن أو رسم » .

وفيما يقوله ياقوت تفسير واضح للدوافع التى أثارت فى نفسه القيام بوضع هذا المعجم الكبير ، ولكنه يحرص أولا على أن ينفى عن نفسه أنه قام بذلك اشباعا لرغبة ذاتية ، أو ابتغاء قربة من أحد ، وانما انتدبه الى تأليف هذا المعجم ما كان يحسه فى قرارة نفسه ، من أن الواجب الذى دفعه الى تأليفـه ــ يتمثل فى دينـه القـويم وقرآن ربه الكريم ؛ لذلك قام بهذا العمل استجابة لما يدعو اليه القـرآن الكريم من السـير فى الأرض ، للعلم والمعـرفة والعظة والعبرة ؛ لأن فى ذلك زجرا للنفس وتهذيبا لها ، ودعوة الى العمل بكتاب الله الكريم ، ويؤيد قوله بما روى عن عيسى (عليه السلام)،

وبمـا نسب الى (قس بن سـاعدة الايادى) ، وبمـا قاله بعض الشعراء ٠

ومن هنا يتضح للبـاحث أن ياقوتا ربط بين البحث الجغرافى والقرآن الكريم ، والخبر المأثور ، وشعر الشعراء ، وحاول جاهدا أن يثبت أن القرآن يدعو اليه ، ويحث على طلبه ؛ لما فى ذلك من التعرف على الديار والأماكن والبقاع وصلتها بالأمم الماضية، وماتوالى على كل من أحداث ، وفى هذا تصوير للعقلية العربية ، التى تتميز بالربط بين الحقائق المتشابهة ، واستقطاع المعرفة عن طريق الملاحظة والمشاهدة والاستقراء والبحث والتجربة ، وكل ذلك تهيئه الرحلة فى مناكب الأرض ٠

وفى مناهج التربية الحديثة ما يؤيد أن الرحلة من أحـدث الأساليب التربوية فى تحصيل الخبرة المباشرة ، والحقـائق العلميـة على الطبيعة ، ولا ريب أن ياقوتا ، وهو يدعو الى الرحلة للدراسة، يضع مبدأ جديدا فى الثقافة العربية الاسـلامية ، هذا المبـدأ وهو الرحلة لتحصيل الخبرة من أهم مبادىء التربية التقدمية فى عصرنا الحاضر ٠

ونخرج من هذا بأن الدافع الدينى هو الذى حمل ياقوتا على وضع كتابه (معجم البلدان) ، ويزيد ياقوت هذا الدافع وضوحا فيما بعد ٠

أهمية علم الجغرافية فى الحياة

ثم يشير ياقوت الى أن العلم بما فى الأرض من بلاد وحزون ووهاد ـ يشترك فيه العالم وغيره ، استكمالا للحياة فى الأرض ، وفي هذه الاشارة بيان لأهمية علم الجغرافية فى حياتنا ، وضرورته للناس على اختلاف درجاتهم ، اذ لا تكمل حياتهم الا بمعرفته ، وتطبيقاته ، ولعل هذا هو الذى دفع أبناء الأمم الغربية من شيوخ وشبان الى الرحلة فى الأرض ، وركوب المغامرات فى سبيل التعرف على أجزاء العالم شرقه وغربه ، ومعرفة طبيعة أرضها وأهلها وعامرها وغامرها ، فى حين أن المسلمين والعرب قد نسوا ما يأمرهم به دينهم .

ويحرص ياقوت على تطبيق المناهج السليمة فى البحث ، مثله فى ذلك مثل غيره من علماء المسلمين ، لا يتعرض الى معلومة ما الا اذا سلط عليها أشعة قوية من الفحص الدقيق تكشفها وتوضحها ، وتزيل ما يحيط بها من لبس أو غموض ، وتبرز أهميتها من الناحية العملية ؛ لذلك يقول : فانى رأيت نقلة الأخبار وأعيان رواة الأسفار والآثار ، من عنى بها دهره ، وأنفذ فيها غرضه وعمره ، مع شدة حاجتهم اليها ـ أثناء رواية الأخبار ؛ لذلك تراهم عندما يمر ذكر بقعة من الأرض ، أو بيان وقعة وقعت ، يختلط عليهم الأمر ، وحالهم اما أن يكونوا غالطين أو مغالطين » .

ثم يقول : « وقلما رأيت الكتب المتقنة الخط ، المحتاط لها

بالضبط والنقط ــ الا وأسماء البقاع فيها مهملة أو محرفة ، وعن محجة الصواب منعطفة أو منحرفة ، قد أهملهـا كاتبها جهـلا ، وصورها على التوهم نقلا ، وكم من امام جليل ، ووجه من الأعيان نبيل ، وأمير كبير ، ووزير خطير ــ ينسب الى مكان مجهول ... فاذا سئل أهل المعـارف أخـذوا بالنصف الأرذل من العلم ، وهو « لا أدرى » وبئست الخطة للرجل العاقل ... لاغفالهم عن هذا الفن من العلم الخطير مع جلالته ، واعراضهم عن هذا القصد الكبير مع فخامته ، ومن ذا الذى يستغنى من أولى البصـائر عن معـرفة أسماء الأماكن وتصحيحها ، وضبط أصقاعها وتنقيحها ، والناس فى الافتقار الى علمها سواسية » .

فياقوت يأخذ على غيره ممن سلف اهمالهم لعلوم الجغرافية ، ويضرب مثـالا لذلك ببعض الـكتب التى بولغ فى اتقـان خطهـا وضبطها ، ولكنها مع ذلك لم تسلم من التحريف فى أسماء البقاع ، التى وردت بها ، ولا شك فيما فى ذلك من اضعاف لقيمتها العلمية وبخاصة اذا ورد فيها اسم عالم جليـل ، أو امام لـه خطره بين الناس ، أو عظيم ذو سلطان ، ثم نجد هؤلاء الأعلام ينسبون الى أمكنة مجهولة ، فاذا سئل المختصون من العلماء عن ذلك ــ أجابوا بما يسميه ياقوت « النصف الأرذل من العلم » وهو لا ندرى .

فمثل هذا المنهج فى التأليف العلمى فى نظر ياقوت غير لائق

بأهل الفضل من العلماء ، الذين يهملون فى كتبهم تحديد الأماكن والأصقاع وضبط أسمائها ضبطا دقيقا .

وواضح من كلام ياقوت أنه يشير الى أهميــة علم الجغرافية الوصفية ، وأنه من الضرورى أن توجه عناية شديدة الى التعريف بالأماكن والبقاع تعريفا موضوعيا ، يقــوم على الدقة فى الرواية ، والوصف المبنى على استقصــاء الحقــائق وتمحيصــها ، والمشــاهدة الفاحصة ، والنقل عن الثقات .

ولا يلبث ياقوت حتى يزيد الحاجة الى علوم الجغرافية وضوحا بقوله :

« لأن هــذه الأمــاكن ما هى الا مواقيت للحج والزائرين ، ومعالم الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ومشــاهد للأولياء الصالحين ، ومواطن غزوات وسرايا سيد المرسلين ، وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين ، وقد فتحت هذه الأماكن صلحا وعنوة وأمانا وقوة ، ولكل من ذلك حكم فى الشريعة فى قسمة الفيء (١) وأخذ الجزية (٢) ، وتناول الخــراج (٣) لا يســع الفقهاء جهلها ،

---

(١) (الفيء) ما بعد الزوال من الظل ، سمى فيئا لرجوعه من جانب الى جانب ، وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس والفيء هو الخراج .

(٢) (الجزية) ما يؤخذ من أهل الذمة ، وهم المعاصرون من النصارى وغيرهم ممن يقيم فى دار الاسلام .

(٣) (الخراج) مثلثة الخاء الاتاوة وأصله ما يخرج من غلة الارض والمال ، وهو المال المضروب على الارض .

ولا تعذر الأئمة والأمراء اذا فاتهم فى طريق العلم حزنها وسهلها ؛ لأنها لوازم فتيا الدين ، وضبط قواعد الاسلام والمسلمين » •

وفى العبارة السابقة نرى ياقوتا ما يزال شديد الحرص على توضيح أهمية علوم الجغرافية ، فيجلو لنا أهمية جديدة لها فى ميدان حياتنا الدينية ، وهى أنها شديدة الارتباط بأحكام الفقه الاسلامى، والفتاوى الدينية ، وضوابط قواعد الدين ، مما يكشف أمام الباحثين أن الجغرافية عند المسلمين من العلوم الخادمة لقضايا الشريعة والفقه والأحكام الدينية ، ويبين أن القرآن الكريم كان من أقوى البواعث والدوافع التى حملت المسلمين على الاشتغال بالعلوم الدينية وغيرها من العلوم الدنيوية ، التى تتصل بالدين من ناحية ، وتساعد على وضوح المعرفة الدينية ، والقاء ضوء ساطع على قضاياها من ناحية أخرى •

ولا يكتفى بهذا القدر من الاحتجاج لمزايا هذه العلوم ، فيضيف الى ما تقدم أهمية أخرى ، وهى حاجة أهل السير والأخبار والحكمة والتنجيم اليها •

حاجة أهل السير والأخبار والحكماة والتنجيم الى علوم الجغرافية :

يقول ياقوت : « فأما أهل السير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار فحاجتهم الى معرفتها أمس من حاجة الرياض الى القطار غب اخلاف الأنواء ، والمشفى الى العافية بعد يأس من الشفاء ، لأنها

معتمد علمهم ، الذى قل أن تخلو منه صفحة بل سطر من كتبهم ».

وأما أهـل الحكمـة والتفهيم والتطبيب والتنجيم فلا تقصر حاجتهم الى معرفتها عمن قدمنا ، فالأطباء لمعـرفة أمزجة البلدان وأهوائها ، والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها ؛ اذ كانوا لا يحكمون على البلاد الا بطوالعها ، ولا يقضون لها أو عليها بدون معرفة أقاليمها ومواضعها ، ومن كمال المتطبب أن يتطلع الى معرفة مزاجها وهوائها أو سقم منبتها ومائها ، فصارت حاجتهم الى ضبطها ضرورية ، وكشفهم عن حقائقها فلسفية » .

لذلك صنف كثير من القدماء كتبا سموها (جغرافية) ، ومعناها صورة الأرض ، وألف آخرون كتبا فى أمزجة البلدان وأهوائها مثل (أبقراط) ، و (جالنيوس) وغيرهما » .

ونرى ياقوتا بعد أن أفاض فى توضيح حاجة الأطباء والحكماء والمنجمين الى علوم الجغرافية ـ ينتقل الى بيان ضرورتها الى أهل الأدب أيضا .

حاجة أهل الأدب الى علوم الجغرافية

يقول ياقوت : « وأما أهـل الأدب فناهيك بحاجتهم اليها ، لأنها من ضوابط اللغوى ولوازمه ، وشـواهد النحوى ودعائمـه ويعتمد الشاعر فى تحلية جيد شعره بذكرها ، وتزيين عقود لآلى نظمه بشـذرها ، فان الشـعر لا يروى ، ونفس السامع لا تشـوق

حتى يذكر حاجر وزرود والدهناء وهبود ، ويتحنن الى رمال رضوى ، فيلزمه تصحيح الاسم وأين صقعه ؟ وما اشتقاقه ونزهته وقفره وحزنه وسهولته ؟ فانه ان زعم أنه واد ، وكان جبلا ، أو جبل وكان صحراء ، أو صحراء وكان نهرا ، أو نهر وكان قرية، أو قرية وكان شعبا ... سفُل قدره ، ونزر كثره ، وأمن ضحكه وجعل هزأة ، واستقل فضله ، واستجهل ، فقد ذكر بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذا البيت .

إن بالشِّعْب الذى دون سَلع ‌‌ ‌ لقتيلا دمُه ما يُطَلّْ[1]

ليس من شعر (تأبط شرا) ـ بأن سلعا ليس من دونه شعب

لقد أبدع ياقوت فى تصوير حاجة رجال الأدب الى الجغرافية، وان فيما ذكره بالنسبة لهم يجعلنا نقف وقفة قصيرة امام كلامه للاشادة بهذا العلامة الجغرافى الأديب ، الذى أشار منذ قرون الى أحدث نظرية في دراسة (النصوص الأدبية) وتقوم هذه النظرية على أساس وجود علاقة قوية بين أسماء الأماكن والبقاع والانتاج الأدبى ، وبخاصة الشعر الجاهلى ، فنقاد الأدب فى عصرنا يرون أن العلم بأسماء الأماكن وتحديد مواقعها ، والظروف التى ربطت بين

---

(١) (الشعب) : الطريق فى الجبل ، والسلع بالكسر : الشق فى الجبل ، وبالفتح : اسم مدينة ، قيل هى مدينة الانباط ، ويسمّيها (بطرا) او (بترا) بالطاء والتاء ، وهو اسمها اليونانى ، واطلالها الى الآن بوادى موسى وتعرف باسم (حصن سلع) ، كانت مدينة عامرة ، لها شهرة ايام الرومان ، وملوكها من قضاعة .

الأديب وهذه الأماكن ـ تلقى ضوءا ساطعا على النص الأدبى ، وتساعد على شرحه شرحا دقيقا ، ولقد كان شعراؤنا الأقدمون يتغنون بهذه الأماكن ، ويزينون بها شعرهم ، لاثارة العواطف والأشجان بذكرها ؛ لأنهم فيها التقوا بعزيز ، أو ارتبطوا بحبيب ، لذلك كان من الضرورى لنقاد الأدب ، وشراح نصوصه القديمة والحديثة ـ أن يتعرفوا على هذه الأماكن تعرفا دقيقا ، بالاطلاع على المراجع المعروفة بدقتها . وهذه اللفتة التى استنبطناها من كلام ياقوت ، فيها دلالة واضحة على أن هذا الرحالة الجغرافى كان ذا حس أدبى ، وتبصر بالمناهج الأدبية السليمة ، ولهذا نراه يطالب الأدباء بأن يكونوا على علم بضبط الأماكن وتحديد مواقعها بكل دقة ، لما لها من صلة قوية بالدوافع التى تثير العاطفة ، وتحرك الشاعرية ، ولأن الانتاج الأدبى ، وبخاصة فى العصر الجاهلى ـ قد كان أكثره بوحى منها ، ولا شك أن فى الجهل بوصف هذه البقاع، والارتباطات التى بينها وبين الأدباء ـ حطا لقيمة الفن الأدبى ، والأديب الذى لا يعرفها يكون موضع السخرية ، ومما يزيد من أهمية العلم بها أنها تساعد على تمييز الانتاج الأدبى ، ونسبته الى صاحبه .

أغاليط القدماء فى ذكر الأماكن والبقاع

ثم يحاول ياقوت أن يؤيد ما ذهب اليه من ضرورة حاجة الأدباء الى علوم الجغرافية بمثال حى واقعى ؛ ليزيد رأيه وضوحا ،

وقوة ، فيقـول : « وقد صنف في عصرنا هذا امام من أهل الأدب جليل ، وشيخ يعتمد عليه ، ويرجع اليه فى حل المشكلات الكلامية ـ يقصد أحد الشراح الذين قاموا بشرح مقـامات محمد القاسم ابن على بن محمد الحريرى ـ ثم يصـفه بقـوله : فطبق مفصل الاصابة فى شرح أفانين ضروبها ، وغبّر فى كل وجه كل من فرغ باله لايضاح مشكلها وغريبها ، فانه بهر العقول ، وأدهش الأذهان بما ذكره من أسرار بلاغتها ، وأظهـره من مخـزون براعتهـا ، وأوضحه من مكنون معانيهـا ، وأبانه من فتق الألفاظ التى فيها ، وأورده من الأشباه والنظائر والعيون النواظر ... وسارت النسخ فى الآفاق ... فلم يقدم مقدام متعنت ، ولا هجم مهجـام متبكت على مؤاخذته بشىء مما فيه ، حتى ذكر أسماء الأماكن ، التىأسس عليها أبو محمد المقامات ـ فانبتّ سـلك در عقد لآليـه ، وتداعى ما شيده فضله من مبانيه ، وعاد روضه الأريض مصـوّحاً ، وقريب احسانه مطوّحاً ... وأخذ يخلـّط تارة ويخلط ، ويتعثر فى عشواء الجهالة ويخبط ، فانه قال فى المقامة (الكرجية) :

وكرج بلدة بين (همذان) و (أذربيجان) ، وانما هى بين (همذان) و (أصفهان) .

وقال فى المقامة (البرقعيدية) : وبرقعيد قصبة الجزيرة، وانما هى قرية من قرى ... الموصل ، لا تبلغ أن تكون مدينة فكيف تكون قصبة ، وقال فى (التبريزية) : وتبريز من عواصم الشام ،

بينها وبين مبنج عشرون فرسخا ، وتبريز بلدة أشهر وأظهر من أن تخفى ، وهى اليوم قصبة نواحى (أذربيجان) وآجل مدنها ، الى غير ذلك من أغاليط ، فلو كان له كتاب يرجع اليـه ، وموئل يعتمد عليه لخلص من هذه البلية نجيا » •

ولا شك أن فيما ذكره ياقوت توضيحا لأغلاط الأدباء والنقاد، حين يتعرضون لشرح النصوص الأدبية ، فشارح مقامات الحريرى بالرغم من قدرته اللغوية والأدبية ـ وقع فيما وقع فيه من أخطاء ـ قللت من قيمة مادته اللغوية والأدبية ؛ لأنه لم يجد مرجعا يعتمـد عليه فى تحديد مواقع الأماكن ، التى ذكرها الحريرى ، ومن هنـا تتضح العـلاقة التى بين علوم الجغرافيـة والأدب ، وحينما ترتبط الثقافة الأدبية بالأماكن والبقـاع ـ فلا بد للأديب أو النـاقد من الرجوع الى كتب الجغرافية ، التى تعنى كل العناية بضبط أسماء المواقع ، وتحديد مواضعها تحديدا دقيقا على سطح الأرض •

السبب المباشر فى وضع معجم البلدان

يقول ياقوت : وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب أننى سئلت (بمرو الشاهجان) سنة خمس عشرة وستمائة فى مجلس شيخنا الامام السعيد الشهيد (فخر الدين أبى المظفر عبد الرحيم ابن الامام الحافظ تاج الاسلام أبى سعد عبد الكريم السـمعانى) عن (حباشة) اسم موضع ، جاء فى الحديث النبوى ، وهو سـوق من أسواق العرب فى الجاهليـة ، فقلت : (حباشة) بضم الحـاء ،

قياسا على أصل هذه اللفظة في اللغة ، لأن الحباشة : الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحبشت له حباشة : جمعت له شيئا ، فانبرى رجل من المحدثين وقال : انما هى حباشة بالفتح ، وصمم على ذلك ، وجاهر في العناد بغير حجة ، وناظر ، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ؟ اذ لا معول في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل .

كانت هذه المناقشة بين ياقوت والرجل المحدث ، الذى تعصب لرأيه ـ السبب المباشر ، الذى جعله يعكف على الاطلاع على غرائب الكتب والمراجع ، ودواوين اللغات ، ومن ثم شرع يضع كتابه (معجم البلدان) ، ويحتج لذلك بقوله : فألقى حينئذ في روعى افتقار العالم الى كتاب في هذا الشأن مضبوطا ، وبالاتقان وتصحيح الأغلاط بالتقييد مخطوطا ، ليكون في مثل هذه الظلمة هاديا ، والى ضوء الصواب داعيا ، ونبهت على هذه الفضيلة النبيلة ، وشرح صدرى لنيل هذه المنقبة الجليلة ، التى غفل عنها الأولون ، ولم يهتد لها الغابرون ، وما أحسن ما قال أبو عثمان : ليس أضر على العلم من قولهم : لم يترك الأول للآخر شيئا ، فانه يفتر الهمة ، ويضعف المنة » .

فى العبارة السابقة يتحدث ياقوت عن الطريقة التى سيسلكها فى وضع كتابه ، ثم يشير فى الوقت نفسه الى مبدأ جديد في التأليف والبحث العلمى ، يعزوه الى أبى عثمان الجاحظ ، ويتلخص في ان أبا عثمان ينكر على من يزعمون أن الأول من العلماء لم يترك لمن

يأتي بعده شيئا ، لأن هذا الزعم فى رأيه زعم فاسد ؛ اذ هو ضار بتقدم العلم والابتكار فى أساليب البحث وتجميد العلم ووقف تياره ، وياقوت يسجل رأى أبى عثمان مؤيدا له ، لأنه اذا صح أن الأول لم يترك للآخر شيئا ، فان ذلك يدعو ولا شك الى فتور الهمم وضعف العزائم فى ميدان العلم ومجالات البحث ، وهذا مما يصيب العلم بضرر بالغ ؛ اذ العلم بطبيعته نام ومتطور • ومن خلال هذه الاشارة يتضح لنا مدى ما كان لعلماء العرب والمسلمين من طاقات ذهنية وعلمية ، وقدرة على النقد البناء وتزييف كل ما يقف فى سبيل انحراف البحث العلمى عن طريقه السليم •

ونلاحظ أن ياقوتا ــ فى كل موضع من مقدمته ــ يدعو دائما الى استخدام المناهج السليمة فى الدراسة والبحث ، وابراز الحقائق العلمية الجغرافية فى صور مضيئة ، لا يحجبها الخلط والاضطراب والخطأ فى الضبط ، حتى تكون بريئة مما يشوبها من أغلاط •

العلماء الذين صنفوا فى علوم الجغرافية

ثم يتحدث فى المام ودقة عن المتقدمين من الجغرافيين ، الذين ألفوا كتبا فى هذا الميدان العلمى ، فيقول :

على أنه قد صنف المتقدمون فى أسماء الأماكن كتبا ، وبهم اقتدينا ، وبهم اهتدينا ، وهى صنفان :

١ ـ منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة ، والبلدان المسكونة المشهورة .

٢ ـ ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار ، واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار .

فأما من قصد ذكر العمران فجماعة وافرة : منهم القدماء والفلاسفة والحكماء ، كأفلاطن ، وفيثاغورت وبطليموس ، وغيرهم كثير من هذه الطبقة ، وسموا كتبهم في ذلك جغرافية ، سمعت من يقوله بالغين المعجمة والمهملة ، ومعناه صورة الأرض ، وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدة ، جهلت أكثر الأماكن التي ذكرت فيها ، وأبهم علينا أمرها ...

وطبقة أخرى اسلاميون سلكوا قريبا من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك ، وعينوا مسافة الطرق والمسالك ، وهم (ابن خرداذبة) ، و (أحمد بن واضح) ، و (الجيهاني) ، و (ابن الفقيه) ، و (أبو زيد البلخي) ، و (أبو اسحق الاصطخري) ، و (ابن حوقل) ، و (أبو عبدالله البشاري) ، و (الحسن بن محمد المهلبي) ، و (ابن أبي عون البغدادي) ، و (أبو عبيد البكري) ، وله كتاب سماه (المسالك والممالك) .

وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية ـ فطبقة أهل الأدب ، وهم أبو سعيد الأصمعي ، ظفرت به راوية لابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه ، وأبو عبيد السكوني ،

والحسن بن أحمد الهمذانى وله كتاب جزيرة العرب • وأبو الأشعث الكندى ، وله كتاب فى جبال (تهامة) وأبو سعيد السيرانى، وبلغنى أن له كتابا فى جزيرة العرب ، وأما محمد الأسود الغندجانى ، فله كتاب فى مياه العرب ، وأبو زياد الكلابى ذكر فى نوادره قدرا صالحا وقفت على أكثره ، ومحمد بن ادريس بن أبى حفصة وقفت له على كتاب سماه : (مناهل العرب) ، وهشام بن محمد الكلبى وقفت له على كتاب سماه : (اشتقاق البلدان) ، وأبو القاسم الزمخشرى له كتاب لطيف فى ذلك ، وأبو الحسن العمرانى تلميذ الزمخشرى وقفت له على كتاب شيخه ، وزاد عليه رأيه ، وأبو عبيد البكرى الأندلسى له كتاب (معجم ما استعجم من أسماء البقاع) لم أره بعد البحث والتطلب له ، وأبو بكر محمد ابن موسى الحازمى له كتاب (ما اختلف وائتلف) ، ثم وقفنى صديقنا الحافظ الامام أبو عبدالله محمد بن محمود النجار ، جزاه الله خيرا على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهانى ، من كتاب ألفه الامام أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن السكندرى : فيما اختلف وائتلف من أسماء البقاع ـ فوجدته تأليف رجل ضابط ، فقد أنفذ فى تحصيله عمرا ، وأحسن فيه عينا وأثرا ، ووجدت الحازمى رحمه الله ـ قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه ، ولقد كنت عند وقوفى على كتابه أرفع قدره من علمه ، وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه ، الى أن كشف الله خبيئته ، وتمحض المحض عن زبدته ، فأما أنا فكل

ما نقلته عن كتاب (نصر) قد نسبته اليه ، وأحلته عليه ، ولم أضع نصبه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه » •

الحياة فى المدن المعمورة

قسم ياقوت المؤلفين فى الجغرافية قسمين ، فالقسم الأول : ينسب اليه تأليف الكتب التى تتحدث عن المدن المعمورة والبلاد المسكونة المشهورة ، ويمثل هذا القسم فى رأيه الحكماء والفلاسفة، ويذكر منهم (أفلاطن) ، و (فيثاغورث) ، واذا كان ياقوت يقصد من ذكر (أفلاطن) الفيلسوف اليونانى العظيم (أفلاطون) ـ فقد تحدث هذا الفيلسوف عن المدينة الفاضلة ، وله فى ذلك كتاب (الجمهورية) •

ومن آرائه فى هذا الكتاب أن الغرض من اجتماع الناس فى المدينة ـ هو أن يعملوا بأنفسهم على الوصول الى السعادة والخير ولكن كيف يصلون الى هذه الغاية ، ويحققون ذلك الغرض من اجتماعهم ؟ هنا نرى أفلاطون يتبرع برسم الطريق لهم ، ولكنه طريق مملوء بالأشواك ، مفعم بألوان من الانحراف ؛ لأن أفلاطون عندما ربط بين مذهبه الخلقى ومذهبه فى السياسة زعم أن طبقة الفلاحين والعمال وأصحاب الحرف المادية ـ ينتمون الى القوة الشهوية ؛ ولذلك أنزلهم منزلة أدنى من غيرهم ، من أهل المدينة الفاضلة ، غير أنه يقال ان أفلاطون رجع فعدل عن هذا الرأى الجائر فى كتابه (القوانين) فيما بعد • لا شك أن هؤلاء الفلاسفة

والحكماء بطبيعة تكوينهم الفكرى والفلسفى يعنون بالحديث عن مقومات وخصائص المدينة الفاضلة لأن الحديث عن المدن المعمورة يدعو دائما الى الحديث عن أهل هذه المدن ، وكيفية سياسة أمورهم فى مدينتهم ، كى تستقيم حياتهم وينعموا بمجتمع الرفاهية ، الذى تتحقق لهم فيه أسباب الحياة السعيدة .

العلاقة بين الأمكنة (البيئة) والانتاج الأدبى

وأما الحديث عن البوادى والقفار ومنازل العرب فى الصحراء فينسبه الى القسم الثانى من المؤلفين ، وهو يمثل رجال الأدب وقد تبين من قبل أن هناك صلة وثيقة بين هذه المنازل والآثار الأدبية ، والانتاج الذى ينتجه الأديب ؛ لذلك كان من واجب الجغرافيين الأدباء أن يبذلوا كل طاقتهم الفنية فى وضع كتبهم ، التى تتحدث عن هذه المنازل ، وتلك البوادى والقفار حديثا واعيا ، يوضح معالمها على نمط دقيق .

كذلك أشار ياقوت من قبل الى أهمية علوم الجغرافية ، بالنسبة للأدباء ، لأنها توقفهم على الأماكن والآثار الباقية والمواطن المختلفة فهذه وتلك من أهم الدوافع التى تثير الشاعرية ، وتنشىء فى النفوس الحاجة الملحة الى القول تعبيرا عن الأشجان وترويحا للنفوس ، التى ألح عليها الحنين الى تلك المنازل ؛ ذلك لأن حياة العرب فى البادية تقوم على الحل والترحال ، والسفر والاقامة ، تبعا لمنابت الكلأ ، ومساقط الغيث ، وبسبب ذلك علقت نفوسهم

بالذكريات ، التى تثيرها فيهم هذه المنـازل ، حينما يمرون بها أو يذكرونها ، ويطيـل ياقوت الحـديث عن الأدباء الذين ألفـوا فى الجغرافية ، ويبدى أسـفه لأن كتاب أبى عبيد البكرى الأندلسى لم يقع فى يده كذلك يثير كلام ياقوت فى نفوسنا تلك الأمانة العلمية ، التى هى صفة علماء العرب والمسلمين جميعا ، وان خرج على ذلك القليـل منهم ، ممن نبـــه عليهم ، ولا يكادون يذكرون ، ويهتم بالاشارة الى كتب الذين سبقوه فى التأليف الجغرافى ، ويبين مدى ما كان لبعض هذه المراجع من أثر فى نفسه وما أفاده منها ، ويتجه باللوم العنيف الى الحازمى ، ويقسو عليه ؟ لأنه اختلس كتاب أبى نصر لنفسه ، وبذلك يضرب ياقوت المثل الرائع فى الأمانة العلمية والصدق فى النقل حين يقول : وما نقلتـه عنــه ــ يقصـد أستاذه أبا نصر ــ نسبته اليه وأحلته عليه .

ونلاحظ أن الأمانة العلميــة ، والتمـاس المراجع القديمــة للسلف من العلماء عنصران هامان يدخلان فى منهج ياقوت العلمى، بيد أنه لم يقتصر على المصادر والمراجع الجغرافيــة وحـدها ، فقد وجد أن هناك ينابيع أخرى لها أهميتها فى موضوع كتابه ولذلك أخذ يطلبها استكمالا للبحث واتماما للفائدة ، يقول : « وهذه الكتب المدونة فى هذا الباب التى نقلت منها ، ثم نقلت من دواوين العرب القدماء والمحـدثين ، وتواريخ أهل الأدب والمحـدثين ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهدته فى أسـفارى ، وحصلته فى تطوافى أضعاف ذلك ، والله الموفق ان شاء الله » .

ياقوت ينقد كتب الطبقتين :

يقول : ان كتب الطبقة الأولى من الحكماء والفلاسفة ترد فيها أسماء الأماكن مصحفة مغيرة ، بسبب تخليط النساخ ، وعدم دقتهم ، وأما كتب الطبقة الثانية وان كانت تتميز بأصولها المضبوطة، فانها فى الوقت نفسه تشوبها بعض العيوب ، التى منها عدم الترتيب وشدة الاختصار ، وأن مؤلفيها ركزوا على تصحيح الألفاظ ، وأهملوا ما عدا ذلك من أغراض هامة ، ويعبر عن ذلك بعباراته التى يقول فيها : « فأما الطبقة الأولى فأسماء الأماكن فى كتبهم مصحفة مغيرة ، وفى حيز العدم مصيرة ، قد مسخها من نسخها ، وأما الطبقة الثانية فانها وان وجدت لها أصول مضبوطة ، وبخطوط العلماء منوطة مربوطة ، فانها غير مرتبة ، ولشفاء الغليل غير مسببة، لشدة الاختصار وعدم الضبط والانتشاب لأن قصدهم منها تصحيح الألفاظ لا الابانة عما عدا ذلك من الأغراض ، والبحث عما يعترض فيها من الأعراض » .

وياقوت يمهد بهذا النقد الى المنهج الذى رسمه لكتابه ، فهو لا يرتضى كتب الطبقة الأولى ؛ لأنها انحرفت عن هدف هام يسعى اليه ، وهو الدقة فى ضبط أسماء الأماكن ، ولا يرتضى كتب الطبقة الثانية ؛ لأنها وان تميزت بأصولها المضبوطة ـ فانها أغفلت أسسا لها أهميتها فى نظره ، ومنها عدم الترتيب ، وشدة الاختصار والتركيز على تصحيح الألفاظ مع أهمال أغراض أخرى ، لها

قيمتها العلمية . وفى ضوء هذا النقد نراه يحدد الأسس السليمة ، التى يقوم عليها منهجه فى تأليف موسوعته الجغرافية فيما يلى :

الأسس السليمة التى ارتضاها لتأليف معجمه :

يبدأ ياقوت فى وضع التخطيط الدقيق للأسس التى سيلتزمها فى تأليف موسوعته ، وتتلخص فى المبادىء الآتية :

١ ـ ضبط ماشتته ، واشتبه فيه العلماء السابقون ، مع اضافة ما أهملوه من أسماء البلدان .

٢ ـ ترتيب أسماء البلدان بحسب حروف المعجم ، لأن ذلك يساعد على التنسيق فى عرض أسماء الأماكن وعلى الاحاطة والاستيعاب .

٣ ـ العناية بضبط الأسماء على طريقة أهل اللغة المحققين ، وذكر اشتقاقها ان كانت عربية ، ومعناها ان كانت أعجمية .

٤ ـ بيان الأقاليم التى تقع فيها هذه البلدان والأماكن وطالعها والمستولى عليها من الكواكب ، وتلك ناحية فلكية اهتم بها ياقوت وعنى بها كل العناية .

٥ ـ الاهتمام بذكر بناة البلدان وما يجاورها من بلدان أخرى مشهورة ، والمسافة التى بينها وبين ما يقاربها ، وما اختصت به هذه البلدان من الخصائص ، وما ذكر عنها من العجائب ، وبعض من

دفن فيها من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين ونبذ مما قيل فيها من الأشعار فى الحنين الى الأوطان ، والشاهد على صحة ضبطه فى اتقان .

٦ ـ بيان الزمن الذى فتحها فيه المسلمون ، وكيف تم هذا الفتح ؟ هل تم صلحا أو عنوة ؟ والغاية من ذلك تقرير موقف هذا البلد ، من حيث حكمه فى الفىء والجزية .

٧ ـ بيان من ملكه فى أيامنا من حكام وأمراء .

لقد أجهد ياقوت نفسه فى تحديد هذا المخطط الدقيق للأساس الفلسفى ، الذى بنى عليه معجمه ، وذلك بعد الاطلاع على عدد كبير من المراجع الجغرافية للسلف من علماء هذا الميدان ، وجدير بنا أن نقف أمام مخططه وقفة قصيرة ، لنلقى عليه أضواء توضحه ، وتكشف عن عناصره ، فياقوت يأخذ على السابقين تساهلهم فى ضبط أسماء الأماكن فقد اشتبه عليهم الضبط الدقيق فى بعضها، وشتتوا بعضها الآخر ، كما أهملوا أسماء بعض البلدان ، فخلت منها كتبهم ولم تظفر هذه الأماكن بشىء من التعريف بها ، وكأن ياقوتا يريد أن يقول ان علماءنا السابقين سامحهم الله لم يصبروا طويلا على البحث واستعمال الدقة فى تناول أسماء الأماكن وترتيبها وضبطها ضبطا صحيحا ، ولكى يجد الباحث المطلع سهولة فى البحث والاطلاع على معجمه ـ رأى أن يرتب ما يرد فيه من أسماء الأماكن والبقاع وغيرها على حسب حروف المعجم ، وقد اهتم علماء

المسلمين بصفة عامة بهذا الأسلوب فى ترتيب وعرض الحقائق منذ أيام (الخليل بن أحمد) ، ولياقوت عنايته الخاصة بضبط أسماء الأماكن ، فهو يجرى فى ذلك على طريقة المحققين من أهل اللغة مؤيدا ما يقوله بالشاهد على صحة الضبط ، ولعل هذه الناحية اللغوية هى أبرز ما يتميز به معجم البلدان لياقوت ، بالنسبة لغيره من المعاجم الجغرافية ، ويتحرى فى الضبط بأن يذكر اشتقاق الاسم ان كان عربيا ، أما اذا كان أعجميا فانه يكتفى بذكر المعنى ، ويسترسل ياقوت فى رسم منهجه بالتعرض الى شىء من الجغرافية السياسية والطبيعية والفلكية ، فيهتم بتعيين الاقليم الذى يقع فيه المكان أو البلد ، مع بيان طالعه الفلكى واسم الكوكب المسيطر عليه ، ثم تتناول عنايته الحديث عن المبانى المشهورة فى البلد ومن بناها ، ويمتد حديثه الى ما يجاورها من بلدان أخرى والمسافات التى بين بعضها وبعض ، ويتعمق فى الحديث عن الخصائص المميزة لكل بلد ، وما اشتهرت به من عجائب ، وتناقله المحدثون والرواة عنها من غرائب ، كذلك يبدى اهتمامه بذكر بعض الذين دفنوا فيها من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين وطرف من سيرهم العطرة ، ولا ينسى أن يتحف القارىء بنبذ ومختارات من الأشعار الرقيقة ، التى رويت فى الحنين الى الأوطان ، ويتصل بحديثه عن البلدان أن يستكمل كل ما يرتبط بها من النواحى التاريخية ، فيعرض لبيان التاريخ الزمنى ، الذى تم فيه فتحها على أيدى المسلمين ، وكيف تم هذا الفتح ؟ هل تم صلحا ؟ أو تم عنوة ؟ اذ لكل من الموقفين

حكم فى الشريعة الغراء من فىء أو جزية ، مما يكشف عن حقيقة هامة ، أشرنا اليها من قبل ، وهى أن الدافع الدينى كان من أهم عوامل اشتغال المسلمين بعلوم الجغرافية وغيرها والتأليف فيها ، وأن المسلمين قد استخدموا العلم فى تحقيق أغراض عملية يقوم عليها نظام مجتمعهم ، فالعلم عندهم كان للمجتمع حقا ، كان لخدمة الأغراض الدينية والدنيوية معا •

ثم يتحدث ياقوت عمن ملك كل بلد من هذه البلدان من حكام وأمراء •

ونستطيع فى ضوء هذا العرض أن نتبين ثقافة ياقوت ، التى تتألف من ألوان مختلفة من جغرافية وصفية وطبيعية وفلكية ، ومن سير وتاريخ وقصص ، ومن شريعة وفقه وأدب ، ورواية أشعار ، كل هذه الألوان حشدها ياقوت فى معجمه ، ولذلك استحق هذا المعجم أن يكون موسوعة فريدة فى بابها •

مبدأ تربوى حديث يوحى اليه منهج ياقوت فى معجمه الجغرافى :

أشرت من قبل الى مفهوم التخصص فى العلم عند العرب المسلمين ، وهو وان ابتعد حينا عن مفهوم المحدثين فى عصرنا ـ الا أن التيارات الحديثة فى العلوم أخذت تقترب بمفهوم العرب عن التخصص بما هو واضح الآن لدى أكثر علماء هذا العصر ، ونحن

نعرف أن العالم عند العرب كان يغلب عليه الطب مثلا ، ولكنه الى جانب ذلك يبرز فى الفلسفة ، وتبدو عبقريته فيها واضحة كابن سينا ، والرازى يشتهر بالطب أيضا ، ولكنه فى الوقت نفسه يعرف بالنبوغ فى الكيميا ، وقد كان هذا مما يتفق مع مناهج العرب المسلمين ، واتجاهاتهم الصحيحة فى تحصيل العلوم ، فالحدود والفواصل بين العلوم كانت حدودا وهمية فى نظرهم ، اذ كانوا يؤمنون بوحدة المعرفة ، وهذا مما يتجه اليه التقدم العلمى الحديث، لأن العلوم يخدم بعضها بعضا .

وفى ضوء هذا الاتجاه فى فهم الصلات بين العلوم يقرر ياقوت مبدأ تربويا حديثا ، يعرف اليوم فى التربية الحديثة بمبدأ ترابط المواد ، فهو فى معجمه يجعل اسم المكان محورا ، ثم يقيم حوله دراسات لغوية وفلكية وجغرافية وأدبية وتاريخية ودينية ، ولم يهتد ياقوت الى ذلك اعتباطا ، وانما فعله تطبيقا لاتجاهات علمية سائدة فى الثقافة العربية الاسلامية .

رأيه فى بعض الخرافات التى ذكرها فى معجمه :

لا ينسى ياقوت ـ وهو العالم المحقق ـ أن ينبه على أنه أحيانا قد يذكر أشياء ، تنفر منها العقول السليمة ، وهو يذكرها مرتابا فيها وأنه أحيانا أخرى قد يقع فى خطأ غير مقصود ، وتلك ولاشك بعض خلال علمائنا الصادقين المتمسكين بأهمية الأمانة العلمية فى

البحث ، يقول غفر الله له : « لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر منها طباع من له محصــول ، لبعدها عن العـادات المألوفة ، وتنافرها عن المشـاهدات المعـروفة ، وان كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق ، وأنا مرتاب بها نافر عنها ، متبرىء الى قائلها من صحتها ، لأننى كتبتها حراصا على احراز الفوائد ، وطلبا لتحصيل القلائد والفرائد ، فان كانت حقا فقـد أخـذت بنصيب المصيب ، وان كانت باطلا فلها فى الحق شرك ونصيب ؛ لأننى نقلتها كما وجـدتها ، فأنا صـادق فى ايرادها ، كما أوردتها ، ولتعرف ما قيل فى ذلك حقـا كان (أو) باطلا ، فان قائلا لو قال : سـمعت فلانا يكذب ـ لأحببت أن تعرف كيفية كذبه ، وهؤلاء أئمة الحفاظ الذين هم القـــدوة فى كل زمن ، وعليهم الاعتمـاد فى فـرض الشرائع والسنن ـ لم يشترط أكثرهم فى مسنده ، وهى أحاديث الرسول التى تبنى عليها الأحكام ، ويفرق بها بين الحلال والحرام ـ ايراد الصحيح دون السقيم ، ونفى المعوج ، واثبات المستقيم ، لم يخرجهم ذلك عن أن يعدوا من أهل الصدق ، أو يتزحزحوا عن مراتب الأئمة ، والحق أنهم أوردوا ما سمعوه كما وعوه ، وانما يسمى كذابا من وضع حديثا ، أو حدث عمن لم يسمع منه ، أو روى عمن لم يرو عنه ، فأما أن يروى ما سمع كما سمع ـ فهو من الصادقين ، والعهدة على من رواه عنــه ؛ الا أن يكون من أهـل الاجتهاد ـ فله أن يرويه ، ثم يزيفه ، ولولا ذلك لبطل كثير من الأحاديث ، وعلينا الاقتداء بهم والتمسك بحبلهم » .

تعليق ونقد :

نرى ياقوتا وهو يحدثنا عن تلك الأشياء التي تأباها العقول ، لأنها من قبيل الأوهام والخرافات ـ يؤكد لنا أنه يذكرها وهو مرتاب في صحتها ، وما حمله على هذا الا لأنه يعتقد أنها قد لا تخلو من فائدة ، ويحاول أن يهيىء أذهاننا ، لكي نؤمن بأنه صادق فيما رواه ؟ لأنه نقله بحسب ما سمعه ، ويؤكد ياقوت مرة أخرى أن ما يرويه عن غيره كما سمعه ـ لا يمكن أن يوصف فيه بالكذب ، لأن مسئولية الكذب فيما رواه لا تقع عليه ، وانما تقع على صاحب الخبر أو الرواية .

ويحتج لرأيه بأن رواة حديث الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وهو في المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم في تقرير الأحكام الشرعية وشرحها وتوضيحها ـ يروون ما يروونه من كلام الرسول من غير تمييز بين السقيم والصحيح منه ، ثم لم يقل أحد فيهم انهم غير صادقين ، لأن العهدة في الصدق والكذب على المصدر المنقول عنه ، الا اذا كانوا من أهل الاجتهاد ـ فان من واجبهم أن يزيفوا الأحاديث ، التي تتوافر لديهم الأدلة لتزييفها من عقل ونقل ، ويحسب ياقوت نفسه من الصنف الأول ، وهم الرواة من غير أهل الاجتهاد ، وفي رأينا أن ياقوتا ضعيف الحجة فيما احتج به لنفسه ، اذ أن ما قاله لا يبرئه من تهمة اهمال التحقيق فيما رواه ، وهو الذي يقرر أنه ألف كتابه لتصحيح أخطاء السابقين ،

ومؤاخذتهم على تقصيرهم فى التحقيق العلمى ، وكان جديرا به ــ وهو يأخذ نفسه بهذا الأسلوب العلمى فى البحث ــ ألا يتعرض الى رواية ما يرتاب فى صحته ، وما يعد من قبيل الخرافات والأوهام ، التى لا تثبت أمام الحقائق ، وبخاصة والفائدة المترتبة عليها مشكوك فيها وفى قيمتها .

ادعاءات لياقوت :

وفضلا عن ذلك فان ياقوتا لم يسلم من نقد آخر ، فقد حاول أن يرفع من شأن كتابه ، بادعائه أنه فريد فى بابه ، وأنه لايستطيع أحد أن يؤلف مثله ــ الا اذا كان مؤيدا بالتوفيق ، وتحمل فى سبيل تأليفه ألوانا من المشقات ، فسافر من أجل جمع فرائده ، فأبعد فى السفر ، وتفرغ لذلك وقتا طويلا ، بدأه بأيام الشباب ، وساعده العمر على امتداده وكفايته ، وكان حريصا أشد الحرص على العمل الدائب المتصل ، وياقوت حقا بذل فى تأليف معجمه طاقات متعددة ، وأنفق وقتا طويلا فى انجازه وجمع مادته .

غير أن ما ادعاه لا يتفق مع تواضع العلماء من أمثاله ، وكتابه غنى عن كل هذه الادعاءات ، اذ المجهود الذى بذل فيه واضح للباحث المنصف ، وهو شاهد على فضله وسبقه ، وتقدمه فى علوم الجغرافية ، وعلى ما أنفقه من وقت فى تأليفه ، وكان من الخير له أن يبرىء نفسه من الادعاء والفخر والاعتداد بمجهوده .

رأيه في اختصار الكتب :

ويحذر ياقوت كل من يحاول اختصار كتـابه ، ويذكر أن بعض الطلاب قد التمسوا منه ذلك ، ولكنه أبى أن يستجيب الى طلبهم ، ثم وجه رجاء الى كل مطلع على كتابه بألا يحاول اختصاره، ويعلل لذلك : « بأن الاختصار مضيع لكثير من فوائده ، ومبـدد لما جمعه ، ومفسد لما أنفقه من تعب ، ومعطل لما حواه من فرائد » ، ويحاول ياقوت أن يلقى أضواء أخرى لتوضيح رأيه فيقول :

« فرب راغب عن كلمـة غيره متهالك عليها ، وزاهد فى نكتة غيره مشغوف بها ـ ينضى الركاب اليها ، فان أحببتنى بررتنى جعلك الله من الأبرار » .

ويستمر فى تحذيره موضحا ضرر اختصار كتابه ، فيشبه من يحاول القيام بهذا العمل بمن يقدم على خلق سوى رائع ، فيفسـد جماله ، بتقطيع أوصـاله ، ثم يروى عن الجـاحظ : « أنه صنف كتابا ، وبوبه أبوابا ، فأخذه بعض أهل عصره ، فحذف منه أشياء، وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا ان المصنف كالمصور ، وانى قد صورت فى تصنيفى صورة ، كان لهـا عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكانت لها أذنان ، فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، فاعتذر اليه الرجل بجهله هذا المقدار ، وتاب الى الله عن المعـاودة الى مثله » .

ولكن ياقوتا على الرغم من شدة تحـذيره واهتمـامه ببيان

الضرر المترتب على اختصار معجمه الجغرافى ، واستشهاده بكلام الجاحظ فقد نسب اليه أنه وضع بنفسه مختصرا لهذا المعجم فى كتاب آخر له ، وان كان ذلك لم تثبت بصفة قاطعة فى المراجع الموثوق بها .

موقف علماء العرب والمسلمين من المختصرات :

ويبدى علماء العرب والمسلمين بعد الجاحظ وياقوت عناية كبرى بالتنبيه على عدم اختصار الكتب ، ومنهم ابن خلدون ، فهو يرى أن الاختصار من العوامل التى تقف عقبة فى سبيل التعليم ، ويبين أن المتأخرين قد أولعوا بهذه الطريقة ، ويذكر منهم (ابن الحاجب) فى الفقه وأصول الفقه ، و (ابن مالك) فى النحو ، ويقول : ان فى هذه الطريقة افسادا للتعليم واخلالا بالتحصيل ، وتضييعا لوقت المتعلم فى تتبع ألفاظ الاختصار العويصة فى الفهم ، واستخراج المسائل من بينها ، وهذا مما يقف فى سبيل الملكة الحاصلة من التعليم ، والذى حمل المتأخرين على هذا أنهم قصدوا بالمختصرات تسهيل الحفظ على المتعلمين ، فأركبوهم مركبا صعبا ، يحول بينهم وبين تحصيل الملكات النافعة ، واذا كان رجال التربية الحديثة فى عصرنا يثورون فى عنف على هذه المختصرات ـ فقد سبقهم الى هذه الثورة الجاحظ وياقوت وابن خلدون ؛ لأنها ترهق العقل ، وتشوش نظامه ، وتضيع وقت الناشىء ، ثم لا تثبت معلوماتها فى ذهنه الا لمدة يسيرة ، ومن أجل ذلك حاربها القدماء والمحدثون.

طريقة ياقوت فى تبويب معجمه وعرض مادته :

بعد أن انتهى ياقوت من مقدمته بدأ معجمه بمدخل له يتألف من خمسة أبواب ، تتناول موضوعات فى الجغرافية الطبيعية وبعض المصطلحات وأخبار بعض البلدان ، التى ترتبط بمادته العلمية .

وينبغى انصافا لعالمنا الكبير — أن ننوه عن فضله فى هذا المدخل ، الذى جمع فيه بين الجغرافية الطبيعية والوصفية ، والكشف عن معانى المصطلحات العلمية ، التى يحتاج اليها الدارس، للاستعانة بها على فهم مادة الكتاب ، ونترك الآن الحديث لياقوت ؛ لكى يشرح لنا طريقته ، فيقول :

ثم قدمت أمام الغرض من هذا الكتاب خمسة أبواب ، بها يسمو فضله ، ويغزر وبله ، وهى :

الباب الأول : فى ذكر صورة الأرض ، وحكاية ما قاله المتقدمون فى هيئتها ، وما روينا عن المتأخرين فى صورتها .

الباب الثانى : فى وصف اختلافهم فى الاصطلاح وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة فى كل ناحية .

الباب الثالث : فى ذكر ألفاظ يكثر تكرار ذكرها فيه ، ويحتاج الى معرفتها ، كالبريد ، والفرسخ ، والميل ، والكورة ، وغير ذلك .

الباب الرابع : فى بيان حكم الأرضين والبلاد المتفتحة فى الاسلام ، وحكم قسمة ألفىء والخراج ، فيما فتح صلحا أو عنوة .

الباب الخامس : فى جمل من أخبار البلدان ، التى لا يختص ذكرها بموضع دون موضع ، لتكمل فوائد الكتاب ، ويستغنى به عن غيره فى هذا الكتاب .

ونلمح فى هذه الأبواب ، وفيما سيحدثنا عنه ياقوت فيما بعد من تخطيط لكتابه ــ أنه يرسم له أساسا فلسفيا دقيقا للطريقة التى سيجرى عليها فى تبويبه وتنسيق مادته ، اذ لا شك فى أن تقسيم الكتاب الى أبواب وفصول ووضع الأسس التى سيسلكها المؤلف فى عرض مادته العلمية ــ مما ييسر للقارىء الاطلاع الواعى ، ويساعده على الافادة من غير تضييع للوقت .

وهذا مما يذكر بالفخر والاعجاب لعلمائنا السابقين ، فقد اهتدوا بتفكيرهم العلمى الصحيح الى هذه الأسس ، التى لا تخرج كثيرا عما يتبع فى تأليف الكتب الحديثة ، من حيث العرض والتبويب والدراسة ، على بعد ما بيننا وبينهم فى حساب الزمن ، وبالرغم مما طرأ على تأليف الكتاب العربى فى عصرنا من تطوير كبير .

ويقسم ياقوت معجمه ثمانية وعشرين كتابا بعدد حروف المعجم ، ويقسم كل كتاب ثمانية وعشرين بابا ، ملتزما ترتيب كل كلمة فيها على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه ، والى أى غاية بلغ،

فيقدم ما يجب تقديمه بحسب ترتيب الحروف الأبجدية ، بأن تكون الألف قبل الباء ، والباء قبل التاء ، وهكذا ، وذلك فى غير نظر الى أصول الكلمة وزوائدها ، وحجة ياقوت فى هذا المسلك أن جميع ما يرد من أسماء فى كتابه انما هى أعلام المسميات مفردة ، وأكثرها أعجمية ومرتجلة ، وما يجىء من أمثال هذه الأسماء لا داعى للاشتقاق فيها ، ثم يقول :

والغرض من هذا التبويب تسهيل طريق الافادة فى غير مشقة ، والله المعين على ما اعتمدنا ، والمرشد الى سلوك ما قصدنا ، من غير حول منا ولا قوة الا بالله ، وسميته (معجم البلدان) اسم مطابق لمعناه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكان الشروع فى هذا التبييض فى ليلة احدى وعشرين من محرم سنة خمس وعشرين وستمائة ، نسأل الله المعونة على اتمامه بمنه وكرمه .

ونلاحظ على مقدمة (ياقوت) أن قدماء المؤلفين فى تراثنا المجيد يختلفون عن مؤلفى العصر الحاضر من حيث الاعتماد على المقدمات المطولة فى التخطيط لكتبهم العلمية والعناية برسم صورة دقيقة لتقسيمها وتبويبها ، وطلب المعونة من الله تعالى لكى يستمروا فى بحثهم ، حتى تخرج كتبهم فى الصورة التى ترضى نهمهم العلمى ، فهذه الدقة ، وتلك الثقة بالله والاعتماد عليه ـ كانت تفتح أمام علمائنا السابقين أبواب العلم . وقد كان ابن سينا حينما يصعب عليه فهم مسألة دقيقة من مسائل العلم والفلسفة يلجأ الى الله تعالى ،

ويصلى له مخلصا ، وما يكاد يفرغ من صلاته حتى يتضح له ما أبهم عليه ، وتتفتح له الأبواب المغلقة الى فهم العويص من المسائل العلمية والفلسفية •

ولا يسعنا ونحن نعرض للأسس التى اتبعها ياقوت فى تأليف هذه الموسوعة الضخمة ـ الا أن نعترف بالجهد العظيم الذى بذله، ولا شك أن عملا كالذى قام به ياقوت يعد معجزة علمية ، اذا راعينا ظروف النشر والتأليف فى عصره وامكانات التدوين ، فقد اعتمد ياقوت بعد جمع مادته وترتيبها هذا الترتيب الدقيق على أسلوب النسخ فى الاخراج ؛ اذ لم تكن الطباعة الحديثة معروفة آنذاك ، واذا فكم من الوقت ؟! وكم من الجهد ؟! أنفق هذا المؤلف الكبير ؛ لكى يؤلف معجمه ويخرجه •

ولم يكن معجم البلدان هو المعجم الوحيد الذى ألفه ، فان له معجما آخر يكبره فى حجمه ومادته ، وقد يقول قائل : ان العمل الذى قام به ياقوت يغلب عليه طابع الجمع والنقل والرواية ، وما أيسر هذا اذا قيس بمؤلفات عصرنا الكبيرة ، ومع افتراض صحة ذلك ـ فان هذا القول لا يضعف أبدا من قوة هذا البناء الشامخ ، الذى أقام صرحه ياقوت فى عالم الجغرافية فى عصره •

ولكى تتم لنا الصورة عن معجم البلدان ، وتظهر أمامنا واضحة الملامح ، معبرة عن الجهد العلمى لرائد كبير من علماء العرب المسلمين ، أخصب حقول الجغرافية العربية الاسلامية ، لا بد

أن نقدم للقارىء مقتبسات من أبواب مدخله ، ونماذج من مواد معجمه ؛ ليكون فيها بعض الغناء لراغبى الاطلاع على مصادر التراث العربى الاسلامى ، والتعريف بجانب من جوانبه ، ثم لاستكمال البحث وتكامل صورته •

١ ــ الباب الأول

فى صفة الأرض وما فيها من الجبال والأنهار وغيرها

نجد ياقوتا فى هذا الباب ــ وهو العالم المسلم ــ يعتمد فى تصوير معلوماته الجغرافية عن الأرض على القرآن الكريم ، ثم على ما يرويه عن السلف من علماء المسلمين فى الجغرافية ، فيقول :

« قال الله عز وجل : « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا » ، وقال عز وجل : « الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء » • وقال سبحانه : « والله جعل لكم الأرض بساطا » ، قال المفسرون : البساط والمهاد : القرار والتمكن منها والتصرف فيها ، واختلف القدماء فى هيئة الأرض وشكلها ، فذكر بعضهم أنها مبسوطة التسطيح فى أربع جهات فى المشرق والمغرب والجنوب والشمال ، ومنهم من زعم أنها كهيئة (الترس) ، ومنهم من زعم أنها كهيئة المائدة ، ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل ، وزعم بعضهم أنها شبيهة بنصف الكرة كهيئة القبة،وأن السماء مركبة على أطرافها،

وقال بعضهم : هى مستطيلة كالأسطوانة الحجرية أو العمود •

وقال قوم : الأرض تهوى الى ما لا نهاية له ، والسماء ترتفع الى ما لا نهاية له ، وقال قوم : يرى من دوران الكواكب ـ انما هو دور الأرض ، لا دور الفلك ، وقال آخـــرون : « ان بعض الأرض يمسك بعضا » •

ثم يقول ياقوت : وأصلح ما رأيت في ذلك وأسده فى رأيى ما حكاه محمد بن أحمد الخـوارزمى : قال : الأرض فى وسـط السماء ، والوسط هو السفل بالحقيقـة ، والأرض مدورة بالكليـة مضرسة بالكلية ، من جهـة الجبـال البـارزة والوهدات الغائرة ، ولا يخرجها ذلك عن الكروية اذا وقع الحس منها على الجملة ؛ لأن مقادير الجبال وان شمخت صغيرة بالقيـاس الى كل الأرض ••• ولولا هذا التضريس لأحاط بها الماء من جميع الجوانب وغمرها ، حتى لم يكن يظهر منها شيء ••• والأرض كرة يحيط بها الهواء من جميع الجهات •

ويؤخذ من كلام ياقوت أن رأى الخوارزمى فى هيئة الأرض وشكلها أصلح الآراء وأصوبها وأسدها ، فهو يؤيده ويؤمن به ، وهذا الرأي في الحقيقة يمثل الاتجاه العام، الذى غلبعلى جغرافيى العرب في العصور الوسطى ، وبه خالفوا جميع الآراء القديمة وفى مقدمتها رأى بطليمـوس الذى كان ســـائدا قبل اشـــتغال العرب بالجغرافية •

ثم يعـرض ياقوت لرأى (أبى الريحان البيرونى) ، فيقول نقلا عنه : « وسط معدل النهار يقطع الأرض بنصفين على دائرة ، تسمى خط الاستواء ، فيكون أحد نصفيها شماليا والآخر جنوبيا ، فاذا توهمت دائرة عظيمة على الأرض مارة على قطب خط الاستواء، قسمت كل واحدة من نصفى الأرض بنصـفين ، فانقسم جملتهـا أرباعا جنوبيان وشماليان » •

وواضح من كلام البيرونى أنه يؤيد القول بكروية الأرض ، ويوضح ذلك بأن خط الاستواء يقسمها نصفين ، ثم يشير الى أربعة مناطق على سطح الأرض ، وهذا الرأى وغـيره من آراء العـرب الجغرافية ، مما يساير الى اليوم أحدث الآراء فى هذا الميدان •

ومن الراجح أن الجغرافيين المسلمين كانوا متأثرين فى آرائهم بثقافتهم القرآنية ، وبما وعوه وفهموا مدلوله من نصـوص الكتاب الكريم ، ثم يقول ياقوت : « واختلفوا فى كيفية عدد الأرضين ، قال الله عز وجل : « الله الذى خلق سـبع سـموات ومن الأرض مثلهن » فاحتمل أن يكون فى العدد والأطبـاق ، وروى فى بعض الأخبار أن بعضها فوق بعض ، وغلظ كل أرض مسيرة خمسمائة عام ، وقد عد بعضهم لكل أرض أهلا على صفة وهيئـة عجيبة ، وسمى كل أرض باسم خاص ، كما سمى كل سماء باسم خاص •

وعن عطاء بن يسار فى قول الله عز وجل : « الله الذى خلق سـبع سـموات ومن الأرض مثلهن » • قال فى كل أرض آدم كآدمكم ، ونوح كنوحكم ، وابراهيم كابراهيمكم ، والله أعلم » •

واضح من كلام عطاء بن يسار ، كما رواه ياقوت - أن هناك أرضا غير أرضنا وعوالم غير عالمنا ، وفي كل منها حياة كالحياة التى نحياها فوق كوكبنا الأرضى ، وقد استمد عطاء بن يسار رأيه من الآية الشريفة ، التى سبقت الاشارة اليها ، وهى تؤيد وجود أراض أخرى آهلة بالمخلوقات غير مسكونتنا ، التى نسعد بالحياة فوقها ، وقد خلقها الله تعالى ، ولا تستبعد الحياة الدائبة النشيطة فوق تلك الأراضى أو العوالم أو الكواكب ، وأيد جغرافيو العرب والمسلمين هذه الآراء فى عصور قديمة سلفت ، قبل عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وقبل أن يفكر اليوم الروس والأمريكان فى علوم الفضاء، ويعملوا على كشف لغز الحياة فى هذا الفضاء ، الذى تزدحم فيه الكواكب والنجوم والشموس والأقمار ازدحاما ، يدعو الى التأمل الواعى العميق والتفكير الذكى الدقيق .

ومن العجيب أن علماء الروس بصفة خاصة يؤمنون بما سبقهم اليه العرب فى هذا المجال ، فهم يعتقدون أن الحياة ليست مقصورة على الأرض وانما الحياة على الأرجح موجودة أيضا على صورة من الصور فى بعض الوكاكب ، التى تسبح فى هذا الفضاء ، ولا شك أن العلم الحديث اليوم يسير بخطوات فسيحة وسريعة جبارة ، نحو تحقيق الآراء التى اعترف بها العلم العربى من قبل ، وأيدها علماء المسلمين ، مستشهدين على صحة ما ذهبوا اليه بما أشار اليه القرآن

الكريم ، وهذا مما يؤكد أن التراث الحضارى العربى غنى بالحقائق والنظريات العلمية ، التى يمكن أن تزود العلم الحديث بما يوسع آفاقه ، ويزيد فى اخصابه ، والدليل على ذلك أن كل حقيقة جديدة يكشفها علماء عصرنا ــ ما تلبث أن تظهر لهـا جـذور عميقـة فى مراجع التراث العربى الاسلامى ، ويؤيدنا فيما نذهب اليه بعض آى الذكر الحكيم ، ففيها الدلائل البينات ، والشواهد الواضحات ،

يقول الله جل شأنه :

« قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

« سورة الأنبياء »

ويقول تعالى :

« وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ » .

(سورة النحل) .

ويقول تعالى :

« إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا » . (سورة مريم)

ويقول أعز القائلين

« وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ » .

(سورة الروم) .

فهذه الآيات ناطقة بالحق شاهدة على أن هناك عوالم أخرى ، تعج بمخلوقات ، لا تحصى عـددا ، تسـبح لله بديع السـموات والأرض ، وتنطق بوحدانيته وتعترف بربوبيتـه ، وبالرغم من هذه الآيات البينية الواضحة ـ فان قوما كانوا وما يزالون يتشككون ، وينظرون الى تراثنا نظرة استخفاف ، باعتباره تراثا قديما فى جملته ، وأن التعريف به واحياءه ضرب من الوهم وتضييع الوقت ، واليوم ينكشف الستار عن الحقائق ، ويبدو لكل ذى بصيرة واعية ، وعقل راجح ـ أن التعريف بهذا التراث فى ميادينه العلميـة المختلفة ـ أصبح اليوم على درجة كبيرة من الأهميـة فى بنـاء صرح ثقافتنـا العربية الاسلامية الجديدة ، التى هى المنطلق الوحيد لحيـاة عزيزة كريمة فى أرض وطننا العربى •

٢ ـ الباب الثانى فى ذكر الأقاليم السبعة واشتقاقها والاختلاف فى كيفيتها

يقول ياقوت : نبدأ أولا فنورد عنها قولا مجملا ، يكون عمادا وبيانا ، لما نأتى به بعد ، وهو أشد ما سمعت فى معناه ، وألخصه :

واختلف قوم فى هذه الأقاليم السبعة ، أفى شمال الأرض وجنوبها أم فى الشمال دون الجنوب ؟ فذهب (هرمس) الى أن فى الجنوب سبعة أقاليم كما فى الشمال ، قالوا : وهذا قول لا يعول عليه لعدم البرهان، وذهب الأكثرون الىأن الأقاليم السبعة فىالشمال دون الجنوب لكثرة العمارة فى الشمال وقلتها فى الجنوب ، وأما اشتقاق الأقاليم فذهبوا الى أنها كلمة عربية واحدها اقليم وجمعها أقاليم ، مثل اخريط وأخاريط وهو نبت ، فكأنه انما سمى اقليما ؛ لأنه مقلوم من الأرض ، التى تتاخمه ، أى مقطوع ، والقلم فى أصل اللغة : القطع ، ومنه قلمت ظفرى ، وبه سمى القلم ؛ لأنه مقلوم ، أى مقطوع مرة بعد مرة ، وقال (محمد بن أحمد أبو الريحان البيروتى) : الاقليم على ما ذكر أبو الفضل الهروى فى المدخل الصاحبى : هو الميل ، فكأنهم يريدون بها المساكن المائلة عن معدل النهار ... ثم ينتقل الى الحديث عن مواضع الأقاليم السبعة وما لكل واحد من البروج الاثنى عشر من البلدان ، فيقول : فأما الحمل فله

بابل وفارس وأذربيجان وفلسطين ، والثور له الماهان وهمذان والأكراد الجبليون ومدين وجزيرة قبرص والاسكندرية والقسطنطينية وعمان والرى وفرغانة ، والجوزاء له جرجان وجيلان وأرمينية ومصر وبرقة وغيرها .

ويبدو أن فكرة الأقاليم السبعة بدأت أولا فى التفكير البابلى ، ويتضح من الأقوال السابقة أن القدماء كانت تعوزهم الرحلات الكشفية الدقيقة ، والامكانات التى تساعدهم على التوغل فى مختلف الأنحاء ، للوقوف على ما يتكون منه سطح الكرة الأرضية من يابس وماء ، والمعلومات التى وصلوا اليها عن تقسيم الأرض الى أقاليم سبعة وعن مواضع هذه الأقاليم ـ تدل على أنهم كانوا يجتهدون بقدر ما لديهم من وسائل ، غير أن معلوماتهم عن الأقاليم السبعة وان لم تكن دقيقة ـ الا أنها تعطينا فكرة عن محاولات ، كان لها أثر عظيم فى تقدم الكشوف الجغرافية فيما بعد !

وفى (الباب الثالث) لا يفوت ياقوتا أن يحدثنا عن بعض الألفاظ الاصطلاحية ، التى يكثر تكرارها فى معجمه ، فيعطينا عن مفهومها فكرة واضحة ، تساعدنا على فهم آرائه ، ويذكر منها (البريد) ، ويقول فى تفسيره : « فأما البريد ففيه خلاف ، وذهب قوم الى أنه بالبادية اثنى عشر ميلا ، وبالشام وخراسان ستة أميال ، وقال أبو منصور : البريد : الرسول وابراده ارساله ، وقال بعض العرب : الحمى بريد الموت ، أى أنها رسول الموت تنذر به ، والسفر

الذى يجوز فيه قصر الصلاة أربعة برد ، أى ثمانية وأربعين ميلا بالأميال الهاشمية ، التى فى طريق مكة ، وقيل لدابة البريد بريد ، لسيرها بالبريد ، قال الشاعر :

وانى أنض العيس حتى كأننى   عليها بأجواز الفلاة بريد

وقال ابن الأعرابى : كل ما بين المنزلتين بريد ، ويقول فى الفرسخ : وأما الفرسخ فقد اختلف فيه أيضا ، فقال قوم : هو فارسى معرب ، وأصله (فرسنك) ، وقال اللغويون : الفرسخ عربى محض ، يقال انتظرتك فرسخا من النهار أى طويلا ، وقال الأزهرى : أرى أن الفرسخ أخذ من هذا ، ويقول فى الميل : وأما الميل فقال بطليموس فى المجسطى : الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك ، والذراع ثلاثة أشبار ، والشبر ستة وثلاثون اصبعا.

وذكر فى الباب الرابع (الفىء والغنيمة) ، فيقول : وأما الفىء والغنيمة فان أصل الفىء فى اللغة الرجوع ، ومنه الفىء وهى عقيب الظل الذى للشجرة وغيرها بالغداة ، والفىء بالعشى كما قال حميد بن ثور :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه   ولا الفىء من برد العشى تذوق

وقال أبو عبيدة : كل ما كانت الشمس عليه وزالت عنه فهو فىء وظل ، وما لم تكن الشمس عليه فهو ظل ، ومنه قوله تعالى فى قتال أهل البغى : حتى تفىء الى أمر الله الآية ، أى ترجع ،

وسمى هذا المال فيئا ، لأنه رجع الى المسلمين من أملاك الكفار ، وأما الغنيمــة فهى ما غنم من أموال المشركين من الأراضى كأرض خيبر ، فان النبى صلى الله عليه وسلم قسمها بين أصحابه بعد افراز الخمس ، وصارت كل أرض لقوم مخصوصين .

اشتراكيتنا نابعة من ديننا

واضح من شرح ياقوت لمفهــوم الغنيمــة والفىء أن ما فعله الرسول صلوات الله عليه بأرض خيبر كان عملا اشتراكيا سليما ، واذا فغنائم الحرب من حق المســلمين توزع عليهم توزيعــا عادلا ، وشبيه بالغنائم فى عصرنا الانتاج العام للدولة الذى يوزع على كل المواطنين بحسب استعداداتهم وقدراتهم ، وقد أجلى الرسول اليهود عن أرضهم وحصونهم فى خيبر ؛ لأنهم كانوا يكونون فيها قاعدة خطيرة للعدوان الغادر المستمر على المسلمين ، ولم يفعل الرســول ذلك الا بعد أن أذن له فى قتالهم ، وقد تبين من افــراده الخمس لبيت المال وتوزيع الأخماس الأربعة على المسلمين أن طبيعة الدين الاسلامى وروحه تسيران فى الاتجــاه الاشــتراكى العادل والأمثلة التى تؤيد هذا الاتجاه بعد عهد الرســول كثيرة ، فمنها ما ثبت أن سعد بن أبى وقاص قائد جيوش المسلمين لمحاربة الفرس، لما استولى على أرض السواد (العراق) ، وهى أرض مخصبة قام بتوزيعها على أجناد المسلمين الذين اشتركوا فى فتحها ، وقد علم عمر رضى الله عنه ذلك ، ولم ينكر على سعد تصرفه ، فدل ذلك على أن الاتجاه

الاشتراكى أساس أصيل فى بناء النظام الاقتصادى فى الاســلام ، ولذلك اذا قلنا اليوم ان اشتراكيتنا نابعة من ديننا ـ فاننا لا نعـدو الحق ، ولا نتجاوز الواقع ، فهى اشتراكية عربية اسلامية لا شرقية ولا غربية •

تاريخ الحضارة العربية الاسلامية

لقد أثار ياقوت (رحمه الله) ـ فى نفوسنا أفكارا تتصل بواقعنا العربى الجديد، فجهوده العظيمة فى ميدان الجغرافية تولد فى نفوسنا احساسا عميقا بضرورة توجيه عنايتنا الى تاريخ الحضـارة العـربية الاسلامية ، وبخاصة فى هذا الوقت الذى قامت فيه ثورتنا الحاضرة لتحقيق الأهـداف ، التى حـددها النظام الاســلامى ، من حيث الارتفاع بمستوى كرامة المواطنين جميعا ، عن طريق تقريب المسافات بين الأغنيـاء والفقراء ، واحيـاء القيم المادية والروحيـة للحضـارة الاسلامية •

ونريد من الحضارة الاسلامية ما قامت عليه من أسس عقائدية وأخلاق ونظم للحياة الفردية والجماعية ، وما أبدعه المسلمون من أدب وفن وفلسفة ، وما ابتكروه من مخترعات ومقومات للحيـاة الراقية ، وقد أدرك الغربيون قبلنا السر فى الاهتمام بتاريخ الحضارة، فأقبلوا فى جد يدرسونه ، ويعملون على تدريسه لابنائهم وبناتهم فى مدارسهم وجامعاتهم • ولا يفوتنا أن ننبه على أن ما يقوم عليه تاريخ الحضـارة الأوربية مقتبس أكثره من مقـومات حضـارتنا العـربية

الاسلامية وأصولها • ان العناية بدراسة تاريخ هذه الحضارة تفرضها علينا ظروف حياتنا الجديدة ، ومن الواجب أن توجه عناية خاصة الى دراسة تاريخ العلوم عند العرب ، لكى نتبين فى ضوء هذه الدراسة ما قدمه العرب والمسلمون الى الحضارة الانسانية من أفكار وقيم ومبادىء وغيرها ، وبذلك نربط ماضينا الزاهر بحاضرنا الباسم المشرق •

وقد حاول بعض علمائنا فى مصر وفى أحد الأقطار العربية الشقيقة توجيهنا هذه الوجهة ، فقد قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة لجهود العرب فى الكيميا ، والأستاذ نظيف بدراسة علوم الفيزياء العربية فى المرحلة التى انتهت اليها عند ابن الهيثم ، كما وضع عالم أردنى مشهور كتابا فى تاريخ العلوم عند العرب ، وهو الدكتور قدرى حافظ طوقان ، وله فضلا عن ذلك كتب وبحوث على درجة كبيرة من الناحية العلمية فى ميدان التراث العربى المجيد، وللأستاذ محمد خلف الله أحمد محاضرات اذاعية ، ذات قيمة علمية عن الاسلام والحضارة ، كما نوه الدكتور على حسنى الخربوطلى عما قدمه العرب للحضارة الغربية ، عندما أقاموا لهم ملكا عتيدا قائما على أحدث النظم الحضارية ، فى صقلية وجنوبى ايطاليا واسبانيا ، وللدكتور شكرى عياد كتيب عن الحضارة العربية ، وللدكتور جمال الدين الرمادى كتاب عن سير علماء المسلمين وغير شك أننا فى هذا الوقت بحاجة ملحة الى تطوير مناهجنا فى المدارس والجامعات ، بحيث تتناول هذه المناهج الجديدة دراسات

واسعة مستفيضة عن الحضــارة الاســلامية ، ومن هنـا تبرز أمامنا مسئولية علمائنا الكبار ، الذين من واجبهم أن يضـــعوا أسس هذه الدراسات ، بيد أن شعور كل باحث بهذه المسئولية سيساعد حتما على التعمق فى ابراز هذا التاريخ فى الصورة اللامعة ، التى نرجوها ، تلك الصورة التى تعكس ألوانها الزاهية خطوطا واضحة لجهود العرب المسلمين فى مختلف ميادين المعرفة الانسانية .

***

الفصل الثالث

نماذج من معجم البلدان

فيما يلى نماذج مما قاله ياقوت عن البلاد والأماكن والبقـاع والديرة مع ضبط أسمائها وبيان اشتقاقها وطالعها ، وما اشـتهرت به ومن نسب اليها أو مات فيها من علماء السلف الصالح ، وما قيل فيها من شعر ، والغرض من ذلك رسم صورة متكاملة عن معجم البلدان، تلقى أضواء على اتجاهات علمـاء العـرب والمسـلمين فى معلوماتهم الجغرافية وربطها بغيرها من العلوم •

كتاب الهمزة

(أ) (آبه) بالباء الموحدة ، قال أبو سعد ، قال الحافظ أبوبكر أحمد بن موسى بن مردويه (آبه) من قرى أصبهان ، وقال غيره ان آبه من قرى (ساوه) منها جرير بن عبد الحميد الآبى ، سكن

(الرى) ، قلت أنا : أما آبه فبليدة تقابل ساوة تعرف بين العامة بآوه ، فلا شك فيها ، وأهلها شيعة ، وأهل ساوة سنية ، ولا تزال الحروب بين البلدين قائمة على المذهب ، قال أبو طاهر ابن سلفة : أنشـدنى القاضى أبو نصر أحمد بن العلاء الميمدنى (بأهر) من مدن أذربيجان لنفسه :

وقـائلة أتبغض أهل آبه　　وهم أعـلام نظم والكتـابه

فقلت اليك عنى ان مثـلى　　يعادى كل من عادى الصحابه

واليها فيما أحسب ينسب الوزير أبو سعد بن الحسين الآبى ، ولى أعمالا جليلة ، وصحب الصاحب بن عباد ، ثم وزر لمجد الدولة رستم بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، وكان أديبا شاعرا مصنفا ، وهو مؤلف كتـاب (نثر الدرر) ، وتاريخ الرى ، وغير ذلك ، وآبه أيضا من قرى (البهنسا) من صعيد مصر ، أخبرنى بذلك القاضى المفضل بن أبى الحجاج عارض الجيوش بمصر .

(ب) (الأثيل) تصغير الأثل : موضع قرب المدينة ، وهنـاك عين ماء لآل جعفر بن أبى طالب ، بين بدر ووادى الصفراء ، ويقال له : ذو أثيل ، وقد حكينا عن ابن السكيت انه بتشديد الياء ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قتل عنده النضر بن الحارث بن كلدة عند منصرفه من بدر ، فقالت قتيلة بنت النضر ترثى أباها ، وتمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أيا راكبا إن الأُثَيْل مظِنَّةٌ — من صُبح خامسةٍ وأنت موفَّقُ (١)

بلغ بها ميتًا فإن تحيَّـــةً — ما إن تزال بها الركائب تخفقُ (٢)

منك إليك وعبرة مسفوحة — جادت لمائحها وأخرى تخنُقُ (٣)

فليسمعَنَّ النضْرُ إن ناديتَه — إن كان يسمعُ ميت أو ينْطِقُ (٤)

ظلَّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه — لِلّه أرحام هناك تشقَّقُ (٥)

أمُحمَّدٌ ولأنْتَ ضِنْءُ نجيبةٍ — فى قومها والفحل فحل مُعْرِقُ (٦)

ما كـان ضرك لو مننت وربما — من الفتى وهو المغيظ المُحْنَقُ (٧)

فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم شعرها ـ رق لها ، وقال :

---

(١) الأثيل : موضع فيه قبر النضر ، والمظنة موضع الظن ، تريد ان الأثيل مظنة ان تصل اليه فى صبح الليلة الخامسة ، ان وفقت الى الطريق ، ولم تحد عنه ، (٢ ـ ٣) ان بعد (ما) زائدة ، وتخفق تتحرك ، ومسفوحة : مصبوبة ، والمائح : النازل فى البئر ليملأ الدلو ومعنى البيتين : اذا وصلت هذا المكان فبلغ ساكنه تحية منى اليه ، لا تزال الركائب تتحرك بها ، وبلغه عبرة مصبوبة ، استنزفها من العين فقده ، واخرى آخذة بالحلق (٤) تقول : ان كان يسمع او ينطق، وهو محال، فعلى النضر ان يسمع نداءك (٥) تنوشه : تتناوله واللام فى (لله) للتعجب ، والمعنى لم يقتله احد غير بنى ابيه ، فعجبا من ارحام تتقطع هناك (٦) (ضنء نجيبة) وروى نســل نجيبة والنجيبــة : الكريمة ، والضنء : الولد (٧) الحنق : الغيظ أو أشده .

ويقال : ان هذه الابيات لقتيلة بنت الحارث ، وهى ترثى بها أخاها ، ولكن ياقوتا يروى انها بنت النضر ، وهى ترثى بها اباها .

لو سمعت شعرها قبل قتله ـ لوهبته لها ، والأثيل أيضا موضع فى ذلك الصقع أكثره لنبى ضمرة من كنانة

ولا يفوتنا أن نشير الى أن النضر بن الحارث مع أنه ابن خالة الرسول ـ كان من أشد أعداء الرسول ، وقد آذاه بما لم يؤذه به أحد ، وأبوه الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور ، وهو الذى عالج سعد بن أبى وقاص فى مرضه ، باشارة من النبى (ح) (ارم ذات العماد) : هى ارم عاد ، يضاف ولا يضاف، أعنى فى قوله عز وجل : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد » .

فمن أضاف لم يصرف (ارم) ؛ لأنه يجعله اسم أمهم أو اسم بلدة ، ومن لم يضف جعل (أرم) اسمه ، ولم يصرفه ؛ لأنه جعل عاد اسم أبيهم ، وارم اسم القبيلة ، وجعله بدلا منه .

وقال بعضهم (ارم) لا ينصرف للتعريف والتأنيث ؛ لأنه اسم قبيلة ، فعلى هذا يكون التقدير (ارم صاحب ذات العماد) لأن ذات العماد مدينة ، وقيل : ان ذات العماد وصف ، كما تقول المدينة ذات الملك ، وقيل : ارم اسم مدينة ، فعلى هذا يكون التقدير بعاد صاحب ارم ، ويقرأ بعاد ارم ذات العماد بالجر على الاضافة ، فهذا اعرابها ، ثم اختلف فيها ، فمنهم من جعلها مدينة ، ومنهم من قال : هى أرض عربية كانت واندرست ، فهى لا تعرف ، ومنهم من قال : هى

الاسكندرية ، وأكثرهم يقولون : هى دمشق ؛ وكذلك قال شبيب ابن يزيد بن النعمان بن بشر :

لولا التى عَلِقَتْنى من علائقِها   لم تُمْسِ لى إرمٌ داراً ولا وطنا

قالوا أراد دمشق ، واياها أراد البحترى بقوله :

إليك رحَلْنَا العيسَ عن أرضِ بابلٍ
يجورُ بها سَمْتُ الدَّبور ويَهْتَـدِى[1]
إلى إرمٍ ذاتِ العمادِ وإنَّهـا
لموضعُ قَصْدِى مُوجفا وتعمُّـدِى

وحكى الزمخشرى أن ارم بلد منه الاسكندرية ، وروى آخر أن (ارم ذات العماد) التى لم يخلق مثلهـا فى البلاد باليمن ، بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شداد بن عاد ، ورووا أن شداد بن عاد كان جبارا ، ولما سمع بالجنة ، وما أعده الله فيها لعباده الصالحين من قصور الذهب والفضة ، والمساكن التى تجرى من تحتها الأنهار ، والغرف التى من فوقها غرف ، قال لكبرائه : انى متخذ فى الأرض مدينة على صفة الجنـة ، فوكل ذلك الى مائة رجـل من وكلائه ، وقهارمته ، تحت كل رجل منهم ألف من الأعـوان ، وأمرهم أن يطلبوا فضاء فلاة من أرض اليمن ، ويختاروا أطيبها تربة ، وملكهم

---

(1) العيس : الابل البيض يخالط بياضها سـواد خفيف ، والدبور الريح الغربية تقابل الصبا ، وهى الريح الشرقية .

من الأموال ... ومثل لهم كيف يعملون ، وكتب الى عماله الثلاثة (غانم بن علوان) و (الضحاك بن علوان) و (الوليد بن الريان)، يأمرهم بأن يكتبوا الى عمالهم فى آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما فى أرضهم من الذهب والفضة ، والدر (١) ، والياقوت (٢) ، والمسك (٣) ، والعنبر (٤) ، والزعفران (٥) ، فوجهوا اليه ، ثم وجه الى جميع المعادن ، فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة ، ثم وجه عماله الثلاثة الى الغواصين بالبحار ، فاستخرجوا الجواهر ، فجمعوا منها أمثال الجبال ، وحمل ذلك الى شداد ، ثم وجهوا الحفارين الى معادن الياقوت والزبرجد (٦) وسائر الجواهر ، فاستخرجوا منها شيئا عظيما ، فأمر بالذهب ، فضرب مثل اللبن ، ثم بنى بذلك تلك المدينة ، وأمر بالدر والياقوت والزبرجد

---

(١) الدر : كبار اللؤلؤ ، واللؤلؤ الصغير يسمى أيضا الدر أو لؤلؤ النظم .

(٢) الياقوت : أصناف أفضله الاحمر الرمانى ، ثم الاحمر الجمرى ، ثم الاصفر ، ثم الاسمانجونى اى العسلى ، ثم الابيض ، ثم الازرق .

(٣) (المسك) طيب ، وهو من دم دابة كالظبى ، تدعى غزال المسك .

(٤) العنبر نوع من أنواع الطيب ، وقيل هو الزعفران .

(٥) (الزعفران) نبات أصفر الزهر ، له أصل كالبصل ، والجمع زعافر .

(٦) الزبرجد : يقول بعضهم انه الزمرد ، وليس كذلك ، لان الزمرد حجر كريم اخضر شديد الخضرة ، وافضل الوانه الذبابى نسبة الى الذباب الكبير الربعى ، واما الزبرجد فهو حجر كريم آخر اخضر الى الصفرة ، وارخص بكثيرا من الزمرد .

والعقيق (١) ، ففضض بها حيطانها ، وجعل لها غرفا فوقها غرف ، ثم أجرى تحت المدينة واديا ، ساقه اليها من تحت الأرض أربعين فرسخا ، كهيئة القناة العظيمة ، ثم أمر فأجرى من ذلك الوادى سواقى فى تلك السكك والشوارع والأزقة ، تجرى بالماء الصافى ، وأمر بحافتى ذلك النهر ، وجميع السواقى ، فطليت بالذهب الأحمر ، وبنى لنفسه فى وسط المدينة على شاطىء ذلك النهر قصرا منيفا عاليا ، يشرف على تلك القصور كلها ، وجعل بابها يشرع الى الوادى بمكان رحيب واسع ، ونصب عليه مصراعين من الذهب.

ويستمر ياقوت فى حديثه عن تلك المدينة فيقول : وأن الله تعالى أحب أن يتخذ حجة الحجة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء الى التوبة والانابة ، فانتخب لرسالته هودا عليه السلام ، وكان من صميم قومه وأشرافهم ، وهو فى رواية بعض أهل الأثر هود بن خالد بن الخلود بن العاص بن عمليق بن عاد بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام،ثم ان هودا عليه السلام أتاه فدعاه الى الله تعالى ، وأمره بالايمان والاقرار بربوبية الله عز وجل ووحدانيته ، فتمادى فى الكفر والطغيان ... ... ، فأنذره هود بالعذاب ، وحذره وخوفه بزوال ملكه ، فلم يرتدع ، عما كان عليه ، ولم يجب هودا الى

---

(١) (العقيق) : أنواع اجوده الاحمر الدموى ، ويوجد ملونا ومعرقا.
(تعليق) واضح من ايراد قصة بناء (ارم ذات العماد) ان العقل لا يستسيغها ، وانها من نسج الخيال ، ومن قبيل الخرافات التى اشار اليها ياقوت .

ما دعاه اليه ، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ، وأخبروه بالفراغ منها ، فعزم على الخروج اليها فى جنوده ، فخرج فى ثلاثمـائة ألف من حرسه وشاكريته ومواليه ، وخلف على ملكه بحضرموت وسـائر أرض العرب ابنه (مرثد بن شداد) وكان مرثد فيما يقال مؤمنـا بهود عليه السلام ، فلما قرب شداد من المدينة ، وانتهى الى مرحلة منها جاءت صيحة من السماء ، فمات هو وأصحابه أجمعون •

ثم نرى ياقوتا يطعن فى هذه القصة ، فيقول : وظننا أنها من أخبار القصاص المنمقة وأوضاعها المزوقة •

وبهذا الطعن أو الشك يساير ياقوت منهجه الذى رسمه من قبل ، وهو أنه سيروى بعض القصص والأخبار بحسب ما سمعها ، وعلى ما رويت له ، مع شكه فيها ، وهو لا يمكن أن يكون كاذبا فى روايته للخبر أو الحديث أو القصة ، لأنه راو فقط ، والعهدة على صاحب الرواية ، وهذا أضعف الايمان فى مجال البحث العلمى ، ومع ذلك فان الشك أول مرتبة من مراتب اليقين •

كتاب الباء من كتاب معجم البلدان

١ ـ (بحيرة طبرية) : قال الأزهرى : هى نحو من عشرة أميال فى ستة أميال ، وغور مائها علامة لخروج الدجال ، وروى أن عيسى عليه السلام ، اذا نزل بالبيت المقدس ليقتل الدجال عندها ـ يظهر يأجوج ومأجوج ، وهم أربعة وعشرون أمة ، لا يجتـــازون

بحى أو ميت من انســان الا أكلوه ، ولا ماء الا شربوه ، فيجتــاز أولهم ببحيرة طبرية ، فيشربون جميع ما فيها ، ثم يجتاز الأخير منهم وهى ناشفة فيقول : أظن أنه قد كان ها هنا ماء ، ثم يجتمعون بالبيت المقدس ، فيفزع عيسى ومن معه من المؤمنين ، فيعلو على الصخرة، ويقوم فيهم خطيبا ، فيحمد الله ويثنى عليه ، ثم يقول : اللهم انصر القليل فى طاعتك على الكثير فى معصيتك ، فهل من منتدب ؟ فينتدب رجل من جرهم ورجل من غسان لقتالهم ، ومع كل واحد خلق من عشيرته ، فينصرهم الله عليهم ، حتى يبيــدوهم ، ولهــذا الخبر مع استحالته فى العقل نظائر جمة فى كتب الناس ، والله أعلم .

وأما بحيرة طبرية فقد رأيتها مرارا ، وهى كالبركة يحيط بها الجبل ، وتصب فيها فضلات أنهر كثيرة، تجىء من جهة (بانياس) والساحل والأردن الأكبر ، وينفصل منها نهر عظيم ، فيسقى أرض الأردن الأصغر ، وهو بلاد الغور ، ويصب فى البحيرة المنتنة قرب أريحا ومدينة طبرية فى لحف الجبــل مشرفة على البحيرة ، ماؤها عذب شروب ، ليس بصادق الحلاوة ... ، وفى وسط هذه البحيرة حجر ناتىء يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام ، وبين البحيرة والبيت المقدس نحو من خمســين ميــلا ... واياها أراد المتنبى يصف الأسد .

أَمُعفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بِسوطِهِ   لمن ادَّخرت الصارمَ المصقُولا(1)
وقعتْ على الأُرْدُنِّ منه بليَّةٌ   نُضِدَت بها هامُ الرِّفاقِ تُلُولا(2)
وَرْدٌ إذا وردَ البُحيرةَ شاربا   ورد الفُراتَ زئيرهُ والنِّيلا(3)

حرف الباء

(بغداد) : أم الدنيا ، وسيدة البلاد ، وقال ابن الأنبارى :
أصل بغداد للأعاجم والعرب ، وتختلف فى لفظها اذا لم يكن أصلها

---

(1) عفره : مرغه فى التراب ، والهزبر : الشديد ، والصارم : السيف القاطع ، وكان بدر بن عمار وهو الذى يمدحه بهذه الابيات - هاج اسدا عن بقرة افترسها ، فوثب على كفل فرسه ، وأعلجه عن سل السيف ، فضربه بسوطه ، يريد ان يقول لبدر لقد صرعت الاسد بالسوط وهو اشد الحيوان ، فلمن خبأت سيفك ؟

(2) نضدت : جمع بعضها فوق بعض ، والهام : الرءوس ، والرفاق جمع رفقة : الجماعة فى السفر وتلولا : حال المراد مماثلا للتلول ، وهى جمع تل والتل : الجبل الصغير ، يقول أبو الطيب : ان هذا الاسد الذى قتله بدر بن عمار كان بلية كبرى وقعت على اهل نهر الاردن ، فقد فتك بكثير من المسافرين ، حتى كانت رءوسهم كالتلال المجتمعة من التراب .

(3) الورد : الذى يضرب لونه الى الحمرة ، وكذلك الاسد والمراد بالبحيرة بحيرة طبرية ، والزئير : صوت الاسد ، يقول ابو الطيب : وكان هذا الاسد اذا زأر فى طبرية بلغ زئيره لعراق ومصر ، وبين ورد ، وورد جناس لطيف .

من كلامهم ، ولا اشتقاقها من لغاتهم ... وأجاز الكسائى بغداد على الأصل ، وحكى أيضا (مغداذ) ، و (مغداد) و (مغدان) ، وهى فى اللغات كلها تذكر وتؤنث ، وتسمى مدينة السلام أيضا ، فأما (الزوراء) فمدينة المنصور خاصة ، وسميت (مدينة السلام) ؛ لأن دجلة يقال له : وادى السلام : ... وقيل ان بغداد كانت قبل ذلك سوقا يقصدها تجار أهل الصين بتجاراتهم ، فيربحون الربح الواسع، وكان اسم ملك الصين (بغ) ، فكانوا اذا انصرفوا الى بلادهم قالوا (بغ داد) أى أن هذا الربح الذى ربحناه من عطية الملك ، وقيل انما سميت (مدينة السلام) ؛ لأن السلام هو الله فأرادوا (مدينة الله) .

ويقول ياقوت فى بدء عمارتها : وكان أول من مصرها ، وجعلها مدينة ـ المنصور بالله (أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ثانى الخلفاء من بنى العباس) ، وانتقل اليها من الهاشمية ، وهى مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة ، وشرع فى عمارتها سنة ١٤٥ هـ ، ونزلها سنة ١٤٩ هـ ، وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده ، فبلغه ذلك من فعلهم ، فانتقل عنها يرتاد موضعا ، وقال ابن عياش بعث المنصور روادا وهو بالهاشمية ، ليرتادوا له موضعا ، يبنى فيه مدينة ، ويكون الموضع واسطا رافقا بالعامة والجند، فنُعت له موضع قريب من (بارما)،

وذكر له غذاء طيب وهواء ، فخرج اليه بنفســـه ، حتى نظر اليه ، وبات فيه ، فرأى موضعا طيبا ، فقال لجماعة منهم : (سليمان بن مخـالد أبو أيوب الموريانى) و (عبد الله بن حميـد الكاتب) : ما رأيكم فى هذا الموضع ؟ فقالوا : طيب موافق ، فقال : صدقتم ، ولـــكن لا مرفق فيـــه للرعيـــة ، وقد مررت فى طـريقى بموضع ، تجلب اليه الميرة والأمتعة فى البر والبحر ، وأنا راجع اليه وبائت فيه ، فان اجتمع لى ما أريد من طيب الليل ، فهو موافق لما أريده لى وللناس ، قال : فأتى موضع بغداد ، وعبر موضع قصر السلام ، ثم صلى العصر ، وذلك فى صيف وحر شديد ، وكان فى ذلك الموضع بيعة ، فبات أغيب مبيت ، وأقام يومه ، فلم ير الا خيرا ، فقال : هذا موضع صالح للبناء ، فان الماء يأتيه من الفرات ودجلة .. ووضع أول لبنة بيده ، فقـال : باسم الله والحمـد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبـة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله .

ثم يذكر ياقوت بعض ما قاله الشعراء فى مدحها ، فيقول : وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن .

سقى الله صـــوب الغـاديات محـلة
بغـداد بين الخـلد والكرخ والجسر
هى البلدة الحســـناء خصت لأهلهـا
بأشـياء لم يجمعن مذ كن فى مصر

(بلغار) بالضم والغين المعجمة : ومدينة الصقالبة ، ضاربة في الشمال ، شديدة البرد ، لا يكاد الثلج يقلع من أرضها صيفا ولا شتاء ، وقل أن يرى أهلها أرضا ناشفة ، وبناؤهم من الخشب وحده ، وهو أن يركبوا عودا فوق عود ، ويسمروها بأوتاد من خشب أيضا محكمة ، والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجب ، وبين (اتل) مدينة (الخزر) وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد اليها في نهر اتل نحو شهرين ، وكان ملك بلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله (العباسى) ، وأرسلوا الى بغداد رسولا ، يعرفون المقتدر ذلك، ويسألونه انفاذ من يعلمهم الصلوات والشرائع، ولكن لم أقف على السبب في اسلامهم ... (١) .

(١) نقل ياقوت قصة ملك بلغار من رسالة مشهورة لاحمد بن فضلان ، وكان قد زار مملكة بلغار بناء على دعوة من ملكها ، أرسل بها الى الخليفة المقتدر ، ويقول ابن فضلان : فى اول رسالة ان (بلطوار) ملك الصقالبة سأل امير المؤمنين المقتدر ان يبعث اليه من يفقهه فى الدين ، ويعرفه شرائع الاسلام ، ويبنى له مسجدا ، وينصب له منبرا ، ليقيم عليه الدعوة له فى بلده ، وسأله كذلك بناء حصن فيه من الملوك المخالفين له ، ويقال : ان يهود الخزر كانوا قد ابتزلوا الصقالبة ، وفرضوا عليهم الاتاوات ، فوقع المقتدر معاهدة صداقة ومودة ونصرة بينه وبين ملك بلغار يقدم بمقتضاها كل وسائل المساعدة والنصرة لملك بلغار ضد يهود الخزر ، وهى تدل على صلات المودة التى كانت بين الروس والمسلمين فى العصر العباسى ، والتاريخ يعيد نفسه اليوم ، اما هؤلاء الصقالبة فكانوا يسكنون حول نهر (الفلجا) ويمتد ملكهم ، حتى يبلغ قازان ، التى تقع على هذا النهر محاذية لموسكو .

كتاب الجيم

(الجزائر) اسم علم لمدينـة على ضـفة البحر بين افريقيـة والمغرب ، وبينها وبين بجاية أربعة أيام ، وكانت من خواص بلاد بني حماد بن زيرى بن مناد الصنهاجي ، وتعرف بجزائر (بنى مزغناى) ، وربما قيل لها جزيرة بنى مزغناى وقال أبو عبيد البكرى : جزائر بنى مزغناى مدينة جليلة قديمة البنيان ، فيها آثار للأول عجيبة ، وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الأمم ، وصحن الملعب الذى فيها ، قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل (الفسيفساء) فيها صور الحيوانات بأحكم عمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمان ، ولها أسواق ومسجد وجامع ، ومرساها مأمون ، لها عين عذبة ، يقصد اليها أصحاب السفن من افريقية والأندلس وغيرهما ، وينسب بهذه النسبة جماعة منهم : أبو بكر محمد بن الفرج الجزائرى المصرى ... يروى عن ابن قديد أنه توفى فى ذى القعده سنة ٣٦٨ هـ ...

كتاب الحاء

(الحجون) آخره نون ، والحجن الاعوجاج ، ومنه (غزوة حجون) التى يظهر فيها الغازى الغزو الى موضع ، ثم يخالف الى غيره ، وقيل هى البعيدة ، والحجون جبل بأعلى مكة ، عنده مدافن أهلها ، قال السكرى : مكان من البيت على ميل ونصف ، وقال

السهيلى : على فرسخ وثلث من سقيفة آل زياد بن عبد الله الحارثى، وكان عاملا على مكة فى أيام السفاح ، وبعد أيام المنصور ، وقال الأصمعى : الجبل المشرف الذى بحذاء مسجد البيعة على شعب الجزارين وقال مضاض بن عمرو الجرهمى يتشوق الى مكة ، لما أجلتهم عنها خزاعة :

كأن لم يكن بين الحجَون إلى الصَّفا
أنيسٌ ولم يَسمر بمكَّةَ سامِر،[2]
بلى نَحْنُ كنَّا أهلَها فأبادَنا
صروفُ اللّيالى والجدودُ العواثِر،[3]
فأخرجنا منها المليكُ بقُدرةٍ
كذلكمُ بالناس تجرى المقادِر،[4]
فسحَّت دموع العين تجرى لِبلْدةٍ
بها حرم أمن وفيها المشاعِرُ

---

(١) الحجون بفتح الحاء اسم موضع على فرسخ وثلث من مكة وهو والصفاجبلان بها ، والسامر : الجماعة يتحدثون بالليل .

(٢) يقال عُثر جده يعثر : تعس ، وأعثره الله أتعسه ، والجد : الحظ

(٣) يحتمل انه يريد انه يريد بالمليك الله عز شأنه ، فهو الذى سلط عليهم من أخرجهم لما عصوه ، ويحتمل انه يريد (عمرو بن لحى) ملك خزاعة ورئيسهم .

كتاب (الدال)

١ ـ (دير سمعان) يقال بكسر السين وفتحها ، وهو دير بنواحى (دمشق) فى موضع نزه ، وبساتين محدقة به ، وعنده قصور ودور ، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ... وروى أن صاحب الدير دخل على عمر بن عبد العزيز فى مرضه الذى مات فيه بفاكهة ، أهداها اليه ، فأعطاه ثمنها ، فأبى (الديرانى) أخذه فلم يزل به حتى قبض ثمنها ، ثم قال : يا ديرانى انه بلغنى أن هذا الموضع ملككم ، فقال : نعم ، فقال : انى أحب أن تبيعنى منها موضع قبر سنة ، فاذا حال الحول فانتفع به ، فبكى الديرانى وحزن وباعه ، فدفن فيه ، فهو الآن لا يعرف ، وقال الشريف الرضى الموسوى :

يا ابنَ عبدِ العزيزِ لو بَكَتِ العَيْـ ـنُ فتًى من أميَّةَ لبكيتُكْ
أنت أنقذتنا من السب والشتْـ ـمِ فلو أمكن الجزاءُ جزيتك
ديرَ سَمْعانَ لا عَدَتْكَ العوادى خيرُ ميْتٍ من آلَ مروان ميتُكَ

وأما الذى فى جبل لبنان فمختلف فيه ، وسمعان هذا الذى ينسب اليه الدير أحد أكابر النصارى ، ويقولون : انه شمعون الصفا ، والله أعلم ، وله عدة أديرة ، منها هذا المقدم ذكره ، وآخر

بنواحى أنطاكية على البحر ، وقال ابن بطلان فى رسالته : وبظاهر انطاكية (دير سمعان) ، وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد ، يضاف اليه المجتازون ، وله من الارتفاق كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة ، وقيل ان دخله في السنة أربعمائة ألف دينار ..

٢ ـ (دير طور سيناء) ويقال كنيسة الطور ، وهو فى قلة طور سيناء ، وهو الجبل الذى تجلى فيه النور لموسى عليه السلام وفيه صعق ، وهو فى أعلى الجبل مبنى بحجر أسود ، وعرض حصنه سبعة أذرع ، وله ثلاثة أبواب حديد ، وفى غربيه باب لطيف ، وقدامه حجر ، اذا أرادوا رفعه رفعوه، واذا قصدهم قاصد أرسلوه، فانطبق على الموضع ، فلم يعرف مكان الباب ، وداخلها عين ماء وخارجها عين أخرى ، وزعم النصارى أن بها نارا من أنواع النار الجديدة ، التى كانت فى بيت المقدس ، يوقدون منها فى كل عشية ، وهى بيضاء ضعيفة الحر ، لا تحرق ، ثم تقوى اذا أوقد منها السرج، وهو عامر بالرهبان ، والناس يقصدونه .

كتاب السين

(سمرقند) بفتح أوله وثانية ، ويقال لها بالعربية (سمران) بلد معروف مشهور ، قيل انه من أبنية ذى القرنين بما وراء النهر ، وهو قصبة (الصغد) مبنية على جنوبى وادى الصغد مرتفعة عليه ،

قال أبو عون : سمرقند فى الاقليم الرابع طولها تسع وثمانون درجة ونصف ، وعرضها ست وثلاثون درجة ونصف ، وقال الأزهرى : بناها (شمر أبو كرب) فسميت (شمركنت) فأعربت فقيل (سمرقند) ، وهكذا تلفظ به العرب في كلامها وأشعارها ، وقال يزيد بن مفرغ يمدح سعيد بن عثمان ، وكان قد فتحها :

لهفى على الأمر الذى كانت عواقبه الندامهْ

تركى سعيداً ذا الندى والبيت ترفعه الدعامهْ

فُتحت سمرقندٌ له وبنى بعرصتها خيامه

وبالبطيحة من أرض (كسكر) قرية تسمى (سمرقند) أيضا ، ذكره المفجع فى كتاب (المنقذ فى الايمان) فى أخبار ملوك اليمن ، قال : لما مات (ناشر ينعم) الملك ـ قام بالملك بعده (شمر ابن أفريقس بن أبرهة) ، فجمع جنوده ، وسار فى خمسمائة ألف رجل ، حتى ورد العراق ، فأعطاه (يستاشف) الطاعة ، وعلم ألا طاقة له به ، لكثرة جنوده ، وشدة صولته ، فسار من العراق ، لا يصده صاد الى بلاد الصين ، فلما صار بالصغد ـ اجتمع أهل تلك البلاد ، وتحصنوا منه بمدينة (سمرقند) ، فاحاط بمن فيها من كل وجه ، حتى استنزلهم بغير أمان ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأمر بالمدينة فهدمت ، فسميت (شمركند) أى : شمر هدمها ، فعربتها العرب فقالت : سمرقند ... وقيل : ان (سمرقند) من

بناء الاسكندر ، واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخا ، وفيها بساتين ومزارع وأرحاء (١) ، ولها اثنا عشر بابا ، من البـاب الى البـاب فرسخ ، وعلى أعلى السور آزاج (٢) وأبرجة للحرب ، والأبواب الاثنـا عشر من حديد ، وبين كل باب منزل للنُّواب ، فاذا جزت المزارع صرت الى (الربض) (٣) ، وفيه أبنيـة وأسـواق ، وفى ربضها من المزارع عشرة آلاف جريب ••• ولما ولى سعيد بن عثمان خراسان سنة ٥٥ هجرية من جهة معاوية ، عبر النهر ، ونزل على سمرقند محاصرا لها ، وحلف لا يبرح ، حتى يدخـل المدينـة ، ويرمى (القهندز) (٤) بحجر او يعطوه رهنا من أولاد عظمائهم ، فدخل المدينة ، ورمى (القهندز) بحجر ، فثبت فيه ، فتطير أهلها بذلك ، وقالوا ثبت ملك العرب فيهـا ، وأخذ أرهانهم وانصرف ، فلما كانت سنة ٨٧ هجرية عبر (قتيبة بن مسـلم) النهر ، وغزا بخارى والشاش ، ونزل على سمرقند وهى غزوته الأولى ، ثم غزا ما وراء النهر عدة غزوات فى سبع سنين ، وصالح أهلها على أن له ما فى بيوت النيران وحلية الأصنام •••

(١) الارحاء جمع رحى : الطاحون .

(٢) الآزاج : ومفرده أزج : بيوت مبنية طولا ، تشبه الابراج

(٣) الربض : ما حول المدينة

(٤) (القهندز) قال الشهاب الخفاجى فى شفاء الغليل : اسم مدينة اوجبل ، ويفهم من كلام ياقوت انه معبود أهل المدينة .

(عدن) بالتحريك وآخره نون ، وهو من قولهم : عدن بالمكان اذ أقام به ، وبذلك سميت (عدن) ، وقال الطبرى : سميت (عدن) و (أبين) بعدن وأبين ابنى عدنان ، وهذا عجب لم أر أحدا ذكر أن عدنان كان له ولد اسمه عدن غير ما ذكر في هذا الموضع ، وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، ردئة لا ماء فيها ولا مرعى ، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم ، وماؤها مع ذلك ردىء ، الا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند ، والتجار يجتمعون اليه لأجل ذلك ، فانها بلدة تجارة وتضاف الى (أبين) وهو مخلاف : عدن من جملته ، وقال أبو محمد الحسن بن أحمد الهمذانى اليمنى : عدن جنوبية تهامية ، وهو أقدم أسواق العرب ، وهو ساحل يحيط به جبل ولم يكن فيه طريق ، فقطع فى الجبل باب بزبر الحديد ، فصار لها طريق الى البر » ..

(عرفات) بالتحريك وهو واحد فى لفظ الجمع ، قال الأخفش : انما صرف لأن التاء صارت بمنزلة الياء والنون فى مسلمين ، وصار التنوين بمنزلة النون ، فلما سمى به ترك على حاله ، وكذلك القول فى أذرعات ، وقال الفراء : (عرفات) لا واحد لها بصحة ، وقول الناس اليوم يوم عرفة ، مولد وليس بعربى محض ، والذى يدل على ما قاله الفراء أن عرفة وعرفات اسم

لموضع واحد ، ولو كان جمعا لم يكن لمسمى واحد ، ويحسن أن يقال : ان كل موضع منها اسمه عرفة ثم جمع ولم يتنكر لما قلنا انها متقاربة مجتمعة ، فكأنها مع الجمع شيء واحد ، وقيل ان الاسم جمع والمسمى مفرد ، فلم ينـــكر ، والفصـــيح فى عرفات وأذرعات الصرف ، قال امرؤ القيس : تنورتها من أذرعات وأهلها .

وانما صرفت لأن التاء فيها لم تتخصص للتأنيث ، بل هى أيضا للجمع ، فأشبهت التاء فى بيت ، ومنهم من جعل التنوين للمقابلة ، أى مقابلا للنون التى فى جمع المذكر الســالم ، وهى على هذا غير مصروفة ، وعرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم ، وليس كما قال بعضهم : ان عرفة مولد .

وعرفة حدها من الجبل المشرف على بطن عرفة الى جبـــال عرفة ، وقرية عرفة موصل النخل بعد ذلك بميلين ، وقيل فى سبب تسميتها بعرفة : ان جبريل عليه السلام عرف ابراهيم عليه السلام المناسك ، فلما وقفه بعرفة ـ قال له : عرفت ، قال : نعم ، فسميت عرفة ، وقيل بل سميت بذلك ؛ لأن آدم وحواء تعارفا بها ، بعـــد نزولهما من الجنة ..

(عمان) بالفتح ، ثم التشديد وآخره نون ، يجوز أن يكون فعـــلان من عم يعم ، فلا ينصرف معـــرفة وينصرف نكرة ، ويجــوز أن يكون فعّالا من عمن ، فيصرف فى الحالتين اذا عنى به البلد ، وعمان : بلد فى طرف الشام،وكان قصبة أرض البلقاء ..

كذلك ضبطه الخطابى ، ثم حكى فيه تخفيف الميم أيضا ... والبلقاء بالشام ، وقيل : ان عمان هى مدينة (دقيانوس) ، وبالقرب منها الكهف (١) والرقيم (٢) ـ معروف عند أهل تلك البلاد ، والله أعلم ، وقد قيل غير ذلك وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى : عمان على سيف البادية ، ذات قرى ومزارع ، ورستاقها البلقاء ، وهى معدن الحبوب والأنعام ، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء ، ولها جامع ظريف فى طرف السوق ، مسقف الصحن ... على جبل يطل عليها ، وبها ملعب سليمان بن داود عليه السلام، وهى رخيصة الأسعار ، كثيرة الفواكه ، غير أن أهلها جهال ، والطرق اليها صعبة ، قال الأحوص بن محمد الأنصارى :

أقول بعمّان وهل طربى به
إلى أهل سَلع[٣] إن تشوقت نافع

وقال الخطيم العكلى يذكر عمان :

أعوذ بربى أن أرى الشام بعدها   وعمّان ما غنّى الحمام وغرّدا

(١ ـ ٢) الكهف هو غار فى الجبل ، والرقيم لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ، ونصب على بابه ، وقيل الرقيم : الكتاب ، ومنه كتاب مرقوم أى مكتوب ، وقيل الرقيم : اسم الوادى الذى كان فيه الكهف .

(٣) سلع بالفتح مدينة الانباط ، وهى (بطرا) باليونانية Petra واطلالها باقية بوادى موسى .

ويسب الى (عمان) أسلم بن محمد بن سلامة بن عبد الله
ابن عبد الرحمن الكنانى العمانى ، قال الحافظ أبو القاسم من أهل
عمان .. قدم دمشق وحدث بها عن عطاء بن السائب بن أحمد
ابن حفص العمانى المخزومى ، ومحمد بن هرون بن بكار ،
وعبد الله بن محمد بن جعفر القزوينى القاضى ، وروى عنه
أبو الحسين الرازى ، وأبو بكر أحمد بن صانى مولى الحباب
ابن رحيم البزاز ..

كتاب الغين

(الغوطة) بالفتح ثم السكون وطاء مهملة ، من الغائط ،
وهو المطمئن من الأرض ، وجمعه غيطان وأغواط وقال
ابن الأعرابى : الغوطة مجتمع النبات ، وقال ابن شميل : الغوطة :
الوهدة فى الأرض المطمئنة ، والغوطة : الكورة التى منها (دمشق)
استدارتها ثمانية عشر ميلا ، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها،
ولا سيما من شماليها ، فان جبالها عالية جدا ، ومياهها خارجة من
تلك الجبال ، وتمد فى الغوطة عدة أنهر ، فتسقى بساتينها وزروعها ،
ويصب باقيها فى أجمة هناك وبحيرة ، والغوطة كلها أشجار وأنهار
متصلة ، قبل أن يكون بها مزارع للمستغلات ... وهى بالاجماع
أنزه بلاد الدنيا ، وأحسنها منظرا ، وهى احدى جنان الدنيا الأربع،
وهى الصُغْد ، والأبلة ، وشعب بوان ، والغوطة ، وهى من أجلها،

والغوطة بالضم أيضا ، يقال : غاط في الأرض غوطا وهي غوطة أي منخفضة ، وهي بلد في بلاد طيء ..

كتاب الفـــاء

(الفراديس) جمع فردوس ، وأصله رومي معرب ، وهو البستان ، هكذا قال المفسرون ، وقد قيـــل : ان الفردوس تعرفه العرب ، وتسمي الموضع الذي فيه كرم : فردوسا ، وقيل كل موضع في فضاء : فردوس ، والفردوس مذكر ، وانمـــا أنث في قوله تعالى : « الذين يرثون الفردوس هم فيهـــا خالدون » . لأنه عنى الجنة .. وأهل الشام يســـمون الكروم والبساتين : الفراديس ، موضع بقرب دمشـــق ، وباب الفراديس من أبواب دمشق ... والفراديس موضع قرب حلب بين برية (خساف) و (حاضر) طيىء من أعمال (قنسرين) ، واياها عن المتنبي بقوله ، وقد اجتاز بها فسمع زئير الأسد :

أجارُكِ يا أسْدَ الفراديسِ مُكرمُ ؟
فتسكنَ نفسي أم مهانٌ فمُسْلَمُ[1]

---

(1) يقول المتنبي مخاطبا اسود هذا المكان : هل يكون من جاورك مكرما عزيزا ، فتسكن نفسي الى جوارك ، أو يكون مهانا مخذولا ، وقوله : فتســكن نفسي جواب الاستفهام ، ولذلك نصبه بالفاء .

ورائى وقُدّامى عُـــداةٌ كثيرةٌ
أحاذِرُ من لصٍّ ومِنْكِ ومِنْهُمُ[1]

فهل لك فى حِلْفِى على ما أُريدهُ
فإنّى بأسْبَابِ المعيشــــةِ أعلمُ[2]

٢ ـ (الفسطاط) وفيه لغات ، وله تفسير واشتقاق ، وسبب يذكر عن ذكر عمارته ، وأنا أبدأ بحـديث فتح مصر ، ثم أذكر اشتقاقه، والسبب فى استحداث بنائه ، حدث الليث بن سعد وعبد الله ابن لهيعة عن يزيد بن جليب وعبيد الله بن أبى جعفر ، وعيـاش ابن عباس .. أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الجابية خلا به عمرو بن العاص ، وذلك فى سنة ١٨ من التاريخ (الهجرى) ، فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى فى المسير الى مصر ، فانك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرضين أموالا ، وأعجز عن حرب وقتال ، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين ، وكره ذلك ، فلم يزل عمروبن العاص ينظم أمرها عنده ، ويخبره بحالها ، ويهون عليها أمرها فى فتحها ، حتى ركن عمر بن الخطاب لذلك ، فعقد له على أربعة آلاف رجل .. قال أبو عمرو الكندى انه سار ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة .. وقال له سر وأنا مستخير الله تعـالى فى

(١) وانما اطلب جوارك لآمن هؤلاء الذين أخافهم واحذرهم .

(٢) والحلف : اسم من المحالفة ، وهى المعاهدة ، يقـول : هـل لك رغبة فى معاهدتى على ما أريده من جوارك فانى أعلم منك بأسـباب المعيشـة ، والتصرف فى كسب الرزق ، وهذا ترغيب من المتنبى للاسد ، لكى ترضي بجواره

تسييرك ، وسيأتيك كتابى ان شاء الله تعالى ، فان لحقك كتابى آمرك فيه بالانصراف من مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ، وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابى ، فامض لوجهك ، واستعن بالله واستنصره ، فسار عمرو بن العاص بالمسلمين واستخار عمر بن الخطاب الله تعالى ، فكأنه تخوف على المسلمين ، فكتب الى عمرو يأمره أن ينصرف ، فوصل اليه الكتاب وهو برفح فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه ، حتى نزل العريش ، فقيل له : انها من مصر ، فدعا بالكتاب وقرأه على المسلمين ، وقال لمن معه تعلمون أن هذه القرية من مصر ، قالوا : نعم ، قال فان أمير المؤمنين عهد الى أن لحقنى كتابه ، ولم أدخل أرض مصر ـ أن أرجع وقد دخلت أرض مصر ، فسيروا على بركة الله .. فكان أول موضع قوتل فيه (الفرما) قتالا شديدا نحو شهرين ، ففتح الله له ، وتقدم لا يدافع الا بالأمر الخفيف ، حتى أتى (بلبيس) فقاتلوه بها نحوا من الشهر ، حتى فتح الله عز وجل له ، ثم مضى لا يدافع الا بأمر خفيف ، حتى أتى (أم دنين) وهى المقس ، فقاتلوه قتالا شديدا نحو شهرين ، وكتب الى عمر رضى الله عنه يستمده ، فأمده باثنى عشر ألفا ، فوصلوا اليه أرسالا ، يتبع بعضهم بعضا ، وكتب اليه قد أمددتك باثنى عشر ألفا ، وما يغلب اثنا عشر ألفا من قلة ، وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة من الصحابة الكبار : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، رضى الله عنهم ، وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ، ثم أحاط

المسلمون بالحصن ، وأمير الحصن يومئـــذ (المندفور) الذى يقال له : الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى ، وكان المقوقس ينزل الاسكندرية ، وهو فى ســـــلطان هرقل •• ونصب عمرو فســـــطاطه فى موضـــع الدار المعروفة باسرائيل على باب زقاق الزهرى ، وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرى الروم سبعة أشهر، ورأى الزبير بن العوام خللا مما يلى دار أبى صالح الحرانى، الملاصقة لحمام أبى نصر السراج عند سوق الحمام ، فنصب سـلما وأسنده الى باب الحصن ، وقال : انى أهب نفسى لله عز وجل ، فمن شاء أن يتبعنى فليفعل ، فتبعه جماعة ،حتى أوفى على الحصن ، فكبر وكبروا ، ونصب شرحبيل بن حجية المرادى سلما آخر ، مما يلى زقاق الزمامرة ، ويقال ان السلم الذى صعد عليـــه الزبير ـ كان موجودا فى داره ، التى بسوق وردان ، الى أن وقع حريق فى هذه الدار ، فاحترق بعضه ، ثم أحرق ما بقى منه فى ولاية عبد العزيز ابن محمد بن النعمان •• فلمـــا رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن ـ جلس فى سفينته هو وأهل القوة ، وكانت ملصقة بباب الحصن الغربى ، ولحقـــوا بالجزيرة ، وقطعوا الجسر ، وتحصنوا هنالك ، والنيل حينئذ فى مده ، وقيـــل ان الأعـيرج خرج معهم ، وقيل أقام بالحصن ، وسأل المقوقس فى الصلح ، فبعث اليـــه عمرو (عبادة بن الصامت) ، وكان رجلا أسود ، طوله عشرة أشبار ، فصالحه المقوقس عن القبط والروم ، على أن للروم الخيـــار فى الصـــلح الى أن يوافى كتـــاب ملكهـم ، فـان رضى تم ذلك ،

وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم ، وأما القبط فبغير خيار ...
وكان الذى انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عى كل نفس فى السنة ، من البالغين شريفهم ووضيعهم ، دون الشيوخ والنساء والأطفال ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزول حيث نزلوا ثلاثة أيام ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعترضون فى شىء منها ، وكان عدد القبط يومئذ أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، والمسلمون خمسة عشر ألفا ، فمن قال ان مصر فتحت صلحا تعلق بهذا الصلح ، وقال : ان الأمر لم يتم الا بما جرى بين عبادة بن الصامت والمقوقس ، وعلى ذلك أكثر علماء مصر ، ومنهم عقبة بن عامر ، وابن أبى حبيب ، والليث بن سعد وغيرهم ، وذهب الذين قالوا انها فتحت عنوة الى أن الحصن فتح عنوة ، فكان حكم جميع الأرض كذلك ، وبه قال عبد الله بن وهب ، ومالك بن أنس وغيرهما ، وذهب بعضهم الى أن بعضها فتح عنوة ، وبعضها فتح صلحا ، منهم ابن شهاب ، وابن لهيعة ، وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ٢٠ للهجرة .. وللعرب ست لغات فى الفسطاط ، يقال فسطاط بضم أوله ، وفسطاط بكسره ، وفساط بضم أوله واسقاط الطاء الأولى ، وفساط باسقاطها وكسر أوله ، وفستاط ، وفستاط بدل الطاء تاء ، ويضمون ويفتحون ، ويجمع فساطيط ، وأما معناه فان الفسطاط الذى كان لعمرو بن العاص فهو بيت من أدم أو شعر ، وقال صاحب العين : الفسطاط ضرب من الأبنية ، قال والفسطاط أيضا مجتمع أهل

الكورة حوالى مسجد جماعتهم ، يقال هؤلاء أهل الفسطاط ، وفى الحديث عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط ، يريد المدينة التى يجتمع فيها الناس ، وكل مدينة فسطاط ، قال ومنه قيل لمدينة مصر - التى بناها عمرو بن العاص - فسطاط ...

كتاب القاف من معجم البلدان

١ - (القرافة) بالفتح وزيادة هاء فى آخره خطة بالفسطاط من مصر ، كانت لبنى غصن بن يوسف بن وائل من المعافر ، وقرافة بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم ، وهى اليوم مقبرة أهل مصر ، وبها أبنية جليلة ، ومحال واسعة ، وسوق قائمة ، ومشاهد للصالحين ، وترب الأكابر مثل ابن طولون والماذرانى تدل على عظمة وجلال ، وبها قبر الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه فى مدرسة للفقهاء الشافعية ، وهى من نزه أهل القاهرة ومصر ومتفرجاتهم فى أيام المواسم ... قال أبو سعد محمد بن أحمد العميدى :

إذَا ما ضاقَ صدْرى لم أجدْ لِى ... مقرَّ عبادةٍ إلا القرافهْ
لئن لم يرحم المولى اجتهَادى ... وقلة ناصرى لم ألق رافهْ

ونسب اليها قوم من المحدثين منهم أبو الحسن على بن صالح الوزير القرافى، وأبو الفضل الجوهرى القرافى ، ونسبوا الى البطن من المعافر أبا دجانة أحمد بن ابراهيم بن الحكم بن صالح القرافى،

حدث عن حرملة بن يحيى ، وهو وزير سعيد الأربلى وغيره وتوفى سنة ٤٩٩ هـ ، قاله ابن يونس ، والقرافة أيضا موضع بالاسكندرية، تروى عنه حكايات ، وأنشد أبو سعد محمد بن أحمد العميدى يذكر قرافة مصر ، وأعاد البيتين المذكورين •

٢ ـ (قرقشندة) : قرية بأسفل مصر ، ولد بها الليث بن سعد ابن عبد الرحمن المصرى الفقيه مولى بنى فهم ، ثم مولى آل خالد بن ثابت بن طاعن ، وأهل بيته يقولون : ان أصله من الفرس من أهل أصبهان ولد سنة ٩٤ هـ وتوفى فى نصف شعبان سنة ١٧٥ هـ ، وقال القضاعى : دار الليث بن سعد ومسجده عند ثقيفة مفلس بالحمراء فى زقاق الليث ، وكان لليث دار بقرقشندة بالريف بناها ، فهدمها ابن رفاعة أمير مصر عنادا له ، وكان ابن عمه ، ثم بناها الليث ثانية ، فهدمها ابن رفاعة ، فلما كان الثالثة أتاه آت فى المنام وقال له : قم يا ليث ، ثم قرأ قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » الآية ، فأصبح ، وقد فلج ابن رفاعة فأوصى اليه ، ومات بعد ثلاث •

باب الكاف

(الكوفة) بالضم المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، ويسميها قوم (خد العذارى) ، قال أبو بكر محمد بن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتها أخذا من قول العرب : رأيت كوفا

أو كوفانا بضم الكاف وفتحها للرميلة المستديرة ، وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم : قد تكوف الرمل يتكوف تكوفا ، اذا ركب بعضه بعضا ، وطول الكوفة تسع وستون درجة ، وعرضها احدى وثلاثون درجة وثلثان ، وهى فى الاقليم الثالث ، ويقال أخذت الكوفة من الكوفان ، يقال : هم فى كوفان أى فى بلاء وشر ، وقيل سميت كوفة ؛ لأنها قطعة من البلاد ، من قول العرب : قد أعطيت فلانا كيفة أى قطعة ، ويقال : كفت أكيف كيفا اذا قطعت ، فالكوفة قطعة من هذا ، انقلبت فيها الياء واوا ، لسكونها وانضمام ما قبلها ، وقال قطرب : يقال القوم فى كوفان أى فى أمر يجمعهم ، قال أبو القاسم : قد ذهب جماعة الى أنها سميت كوفة بموضعها من الأرض ، وذلك أن كل رملة يخالطها حصباء تسمى كوفة ، وقال آخرون : سميت كوفة ؛ لأن جبل (ساتيدما) يحيط بها كالكاف عليها ، وقال الكلبى : سميت بجبل صغير فى وسطها ، كان يقال كوفان ، وقد سماها عبدة ابن الطبيب كوفة الجند ، فقال :

ان التى وضعت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

وأما تمصيرها وأوليته فكان فى أيام عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فى السنة التى مصرت فيها البصرة ، وهى سنة ١٧ هجرية وقال قوم : انها مصرت بعد البصرة بعامين فى عام ١٩ هجرية ، وقيل سنة ١٨ هجرية ••• ، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى :

لما فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة (رستم بالقادسية) ، وضمن أرباب القرى ما عليهم ، بعث من أحصاهم ، ولم يسمهم حتى يرى عمر فيهم رأيه ، وكان الدهاقين صالحوا المسلمين ، ودلوهم على عورات فارس ، وأهدوا لهم ، وأقاموا لهم الأسواق ، ثم توجه سعد نحو المدائن الى (يزدجرد) وقدم خالد بن عرفطـــة حليف بني زهرة بن كلاب ـ فلم يقدر عليه سـعد ، حتى فتح خالد سـاباط المدائن ، ثم توجه الى المدائن ، فلم يجد معابر ، فدلوه على مخاضة عند قرية الصيادين أسفل المدائن ، فأخاضوها الخيل حتى عبروا ، وهرب (يزدجرد) الى (اصطخر) ، فأخذ خالد (كربلاء) عنوة ، وسبى أهلها ، فقسمها سعد بين أصحابه ، ونزل كل قوم في ناحية •• وكتب عمر الى سـعد ان العـرب لا يصلحها من البلدان الا ما أصلح الشاء والبعير ، فلا تجعـل بيني وبينهم بحـرا ، وعليك بالريف ، فأتاه ابن بقيلة فقال له : أدلك على أرض انحدرت عن الفـلاة ، وارتفعت عن البقـة ، قال نعم : فدله على موضع الكوفة اليوم ، وكان يقال له (شورستان) فانتهى الى موضع مسجدها ، فأمر راميا فرمى بسهم قبل مهب القبلة ، فعلم على موقعه ، ثم علم دار امارتها ومسجدها ••• وقال ابن عباس : كانت منازل أهـل الكوفة ، قبل أن تبنى ـ أخصاصا من قصب ، اذا غـزوا قلعـوها وتصدقوا بها ، فاذا عادوا بنوها ، فكانوا يغزون ونساؤهم معهم ، فلما كان في أيام المغيرة بن شعبة بنت القبائل باللبن من غير ارتفاع ••• وكتب عمـر بن الخطاب الى سـعد أن اختط موضع المسجد

الجامع على عدة مقاتلتكم ، فخط على أربعين ألف انسان ، فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف انسان ، وجاء بالآجـر وبأساطينه من الأهواز ، وكان (سلمان الفارسى) يقول : أهل الكوفة أهل الله ، وهى قبة الاسلام ، يحج اليها كل مؤمن ، وأما مسجدها فقد رويت فيه فضائل كثيرة ، روى حبة العرنى ، قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، فأتاه رجل ، فقـال : يا أمير المؤمنين هـذه راحلتي وزادى ، أريد هذا البيت ، أعنى : بيت المقدس، فقال عليه السلام: كل زادك وبع راحلتك ، وعليـك بهذا المسجد (يعنى مسـجد الكوفة) ، فانه أحد المساجد الأربعة ، ركعتـان فيه تعدلان عشرا فيما سواه من المساجد والبركة منه الى اثنى عشر ميـلا من حيث ما أتيته ، وهى نازلة من كذا ألف ذراع ، وفى زاويته فار التنور ، وعند الأسطوانة الخامسة صلى ابراهيم عليه السلام ، وقد صلى فيه ألف نبى ، وألف وصى ، وفيه عصا موسى و (الشجرة اليقطين) (١) وفيه هلك يغوث ويعوق ... وفيه مسير لجبل الأهواز ، وفيه مصلى نوح عليه السلام ، ويحشر فيه يوم القيامة سبعون ألفا ليس عليهم حساب ، ووسطه على روضة من رياض الجنة ، وفيه ثلاث أعين من الجنة ... ومن حفاظ الكوفة محمد بن العلاء بن كريب الهمذانى الكوفى ، روى عنه أبو عبد الله البخارى ، ومسلم بن الحجاج ، وأبو داود السجستانى وأبو عيسى الترمذى ، وأبو عبد الرحمن الغسانى، وابن ماجة القزوينى ...

(١) اليقطين : قال فى المنجد : مما لا ساق له من النبـات كالقثاء ، وغلبه على القرع المستدير ، الواحدة يقطينة قيل : ومنه البطيخ واحدته بهاء ..

كتاب الميم

(مرو الشاهجان) هذه مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها ، نص عليه الحاكم أبو عبد الله فى تاريخ (نيسابور) مع كونه ألف كتابه فى فضائل (نيسابور) ـ الا أنه لم يقدر على دفع فضل هذه المدينة ، والنسبة اليها (مروزى) على غير قياس ، وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخا ، ومنها الى (سرخس) ثلاثون فرسخا ، والى (بلخ) مائة واثنان وعشرون فرسخا ••• أما لفظ (مرو) فقد ذكرنا أنه بالعربية : الحجارة البيض ، التى يقتدح بها ، الا أن هذا عربى ، وما زالت (مرو) عجمية ، ثم لم أر بها من هذه الحجارة شيئا ألبتة ، وأما (الشاهجان) فهى فارسية ، معناها نفس السلطان ؛ لأن الجان هى النفس أو الروح ، والشاه هو السلطان ، سميت بذلك لجلالتها عندهم ••• قال أبو عون اسحق بن على فى زيجة : مرو فى الاقليم الرابع ، طولها أربع وثمانون درجة وثلث، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وشنع على أهل خراسان ، وادعى عليهم البخل ، كما زعم ثمامة أن الديك فى كل بلد يلفظ ما يأكله من فيه للدجاجة الا ديكة (مرو) فانها تسلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب ، وهذا كذب ظاهر بين للعيان ، لا يقدم على مثله الا الوقاع البهات، الذى لا يتوقى الفضوح والعار ، وما ديكة مرو الا كالديكة فى جميع الأرض ••• وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان ـ ما لم تخرج

مدينة مثلهم ، منهم أحمد بن محمد ابن حنبل الامام ، وسفيان ابن سعيد الثورى ، مات وليس له كفن ، واسمه حي الى يوم القيامة ، واسحق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك وغيرهم ، وكان السلطان (سنجر بن ملك شاه السلجوقى) مع سعة ملكه ـ قد اختارها على سائر بلاده ، وما زال مقيما بها الى أن مات ، وقبره بها فى قبة عظيمة ، لها شباك الى الجامع ، وقبتها زرقاء ، تظهر من مسيرة يوم ... وبمرو جامعان للحنفية والشافعية ، يجمعهما السور ، وأقمت بها ثلاثة أعوام ، فلم أجد فيها عيبا الا ما يعترى أهلها من العرق (١) ... فانهم منه فى شدة عظيمة ، قل من ينجو منه فى كل عام ، ولولا ما عرا أهلها من ورود التتر الى هذه البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما فى أهلها من الرفد (٢) ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فانى فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان فى الجامع، احداهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عز الدين أبو بكر عتيق الزنجانى ، أو عتيق بن أبى بكر ، وكان (فقاعيا) (٣) للسلطان سنجر وكان فى أول أمره

---

(١) العرق : قيل هو المسكر الذى يتخذ بالتقطير من العنب ونحوه .

(٢) الرفد : العطاء والمعونة .

(٣) (فقاعيا) : يقال : الفقاع الشراب يتخذ من الشعير ، سمى به لما يعلوه من الزبد والفقاعى : بائع الفقاع .

يبيع الفاكهة والريحان بسوق (مرو) ، ثم صار (شرابيا) له ، وكان ذا مكانة ، وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد ، أو ما يقاربها ، والأخرى يقال لها (الكمالية) ، لا أدرى الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبى سعد محمد بن منصور فى مدرسته ، ومات المستوفى هذا فى سنة ٤٩٤ هجرية ، وكان حنفى المذهب وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحق فى مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية وخزانة لمجد الدولة أحد الوزراء المتأخرين بها ، وخزانة الخاتونية فى مدرستها ، والضميرية فى (خانكاه) هناك ، وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد ، وأكثره بغير رهن ، فكنت أرتع فيها ، وأقتبس من فوائدها ، وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته — هو من تلك الخزائن ، وكثيرا ما كنت أترنم عند كوفى بمرو بقول بعض الأعراب :

أقريةَ الوادى التى خانَ إلْفَها ... من الدهر أحداثٌ أتتْ وخطوبُ
تعالىْ أطارحْك البكاء فإنّنا ... كلانا بمرو الشّاهِجان غريبُ

حرف اليـاء

(يثرب) بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر الراء ، وباء موحدة، قال أبو القاسم الزجاجى : يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم،

سميت بذلك ؟ لأن أول من سكنها عند التفرق يثرب بن قانيـه بن مهلائيل بن ارم بن عبيل بن عوض بن سام بن نوح عليه السلام ، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها (طيبة) وطابة كراهية للتثريب ، وسميت مدينة الرسـول لنزولـه بها ، قال : ولو تكلف متكلف أن يقول فى (يثرب) انه يفعل من قولهم : لا تثريب عليكم ، أى لا تعيير ولا عيب ، كما قال تعالى : « لا تثريب عليكم اليوم » قال المفسرون وأهل اللغة لا تعيير عليـكم بما صنعتم ، ويقـال : أصـل التثريب : الافساد ، ويقال : ثرب علينا فلان ، وفى الحديث : « اذا زنت أمة أحدكم ، فليجلدها ولا يثرب » أى لا يعير بالزنا ... ثم اختلفوا فقيل : ان يثرب للناحية التى منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما حملت نائلة بنت الفرافصة الى عثمـان بن عفـان (رضى الله عنه) من الكوفة ، قالت تخاطب أخاها :

أحقا تُراه اليوم يا ضبُّ إننى مصاحبة نحو المدينة أرْكُبا
قضَى اللهُ حقا أن تموتِى غريبةً بيثربَ لا تلقين أما ولا أبَا

قال ابن عباس رضى الله عنه : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثا ، انما هى طيبة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر:

« اللهم انك اخرجتنى من أحب أرضك الى ، فأسكنى أحب أرضك اليك » ، فأسكنه المدينة .

مادة معجم البلدان

وقيمتها الجغرافية والأدبية والتاريخية

يتبين لنا من عرض النماذج السابقة أن مادة معجم البلدان متنوعة ، حافلة بوثائق على جانب من الأهمية عن الديار التى تتألف منها دولة الخلافة الاسلامية ، وأن ياقوتا قد وجه اهتماما ملحوظا الى العالم الاسلامى كما وجه مزيدا من عنايته الى ضبط أسماء الأمكنة والبلدان والبقاع وغيرها بالحروف ، نقلا عن المصادر التى لا يشك فى صحة ضبطها ، مع ذكر اشتقاقاتها ان كانت عربية ، ويقتصر فى الغالب على ذكر معانيها ان كانت أعجمية ، ونلاحظ أيضا اهتمامه بتسجيل ما قد يوجد فى هذه الأمكنة من آبار وآثار وعجائب وصناعات وغيرها ، ولا تفوته الاشارة الى بيان الاقليم التى ينتسب اليه كل مكان من هذه الأمكنة .

وهناك ناحية فلكية يعول عليها كثيرا ، وهى الحديث عن طالع المكان ، واسم الكوكب المستولى عليه ، ثم ما بينه وبين ما يجاوره من أمكنة لها شهرة تاريخية ، ثم ما بين هذه الأمكنة وغيرها من مسافات، مع تحديد مداها .

وقد حاول التعرف على أماكن من أوربة الشرقية والشمالية ،

ولكن معلوماته عن هذه الأجزاء من العالم الغربى لم تكن على درجة من العمق ، بحيث تصل الى مستوى معلوماته عن بلاد العالم الاسلامى ، التى وزع اهتمامه عليها وعلى بلاد الشرق الأقصى بدرجة واحدة •

ولا يغفل ياقوت النواحى التاريخية ، لما لها من ارتباط قوى بجغرافية الأمكنة ؛ لأنها تلقى ضوءا على ناحية يستهدفها من كتابه ، وهى الناحية الدينية ، فيذكر ما حدث فى هذه الأمكنة والبقاع من وقائع حربية فى الجاهلية والاسلام ، مستشهدا على ذلك بما قيل من الأشعار ، موضحا حكمها من حيث الفتح الاسلامى ، هل فتحت صلحا أو عنوة ؟ أو فتحت صلحا وعنوة معا ؟ والغاية من ذلك تقرير موقف البلد أو المدينة من الناحية الشرعية ، وحكمه فى الفىء والجزية ، وقد رأينا ياقوتا عندما تحدث عن (الفسطاط) ـ يسهب فى شرح الأسباب ، التى تذرع بها عمرو بن العاص لفتح مصر ، واحتياله على الخليفة عمر بن الخطاب ؛ لكى يوافقه على المضى فى فتح هذا البلد الطيب ، الذى اشتهر بخصوبة أرضه ، وكثرة خيراته •

ويعرض ياقوت لآراء بعض الفقهاء فى حكم مصر ، من حيث فتحها صلحا أو عنوة ، وما يترتب على ذلك من أحكام فقهية ، كذلك نراه يوجه عناية كبيرة الى تحديد الزمن الذى تم فيه الفتح ، وكيف فتح البلد ؟ ومن كان أميره بعد الفتح؟ ومن استشهد فيه من الصحابة رضوان الله عليهم ، أو دفن فيه من الأعيان والصالحين ؟ ومن نبغ من

أهله من العلماء أو الكتاب أو الشعراء ؟ ولا ينسى أن يقص شيئا من شعرهم وآثارهم •

وياقوت فضلا عن ذلك يحفل بالنواحي الاجتماعية ، التي كان عليها سكان هذه البلدان والمدن والأماكن المختلفة ، فيحدثنا عما اشتهروا به من كريم الخلال أو سيىء الصفات والأفعال ، ونراه أمينا دقيقا في كل ما يحدثنا عنه ، فهو يفند ما قد يكون قد وجه اليهم من اتهامات ، وما وصفوا به من صفات ـ ان كانت بغير حق ، ومن الأسف أنه لم يفصل الكلام في هذه الناحية بالنسبة لكل بلد ، ويبدو أنه معذور في ذلك ؛ لأنه باحث مجتهد ، وقد استطاع أن يسجل ما وصل اليه باجتهاده ، أو نقلا عن غيره •

وياقوت مع كل هذا لا يهمل الحديث عن ناحية لا تتفق مع المعقول ، ولا تثبت أمام التحقيق التاريخي الدقيق ، ومن ذلك القصة التي رواها عن (ارم ذات العماد) وغيرها من قصص ، ومن العجيب أن يذكر لنا هذه المنقولات الخرافية ، ويبرىء نفسه من تهمة زيفها وعدم صحتها ، ويحتج لنفسه بأنه ناقل فحسب ؛ لأن المسئولية من حيث الصحة والكذب ـ انما تقع على المصدر الأصلي ، الذي حاك القصة ، وألف بين حوادثها ، ورواها لأول مرة •

ومن الشعراء الذي روى لهم : المتنبي ، والأحوص ، ودعبل الخزاعي ، وابن قيس الرقيات ، والبحتري وغيرهم ، ويقرر (أماري)

أن ياقوتا هو المؤلف الجغرافى الذى أشار فى معجمه الى Amar مؤلفين مفقـودين من صقلية أحدهما أبو على الحسن (١٠٥٠) م والآخر هو (ابن القطاع) المتوفى سنة (٥١٥ هـ ـ ١١٢١ م) ، وأن ياقوتا اعتمد عليهما فيمـا رواه من معلومات جغرافيـة عن هذه الجزيرة •

ويافوت يروى في وضوح نظرة العـرب والمسلمين الى علوم الجغرافية ، باعتبارها من العلوم الخادمة لأحكام الشريعـة الاسـلامية الغراء ، تلك الأحكام التى ينبغى أن تطبق تطبيقا عادلا على البـلاد المفتوحة ، وذلك مما يلقى ضوءا كاشفا على اتجاهات المسلمين نحو العلوم ، فهم ينظرون اليها نظرة عملية ، فالحقائق العلمية فى رأيهم وفى منهجم فى الحياة ـ ليست مقصودة لذاتها بقـدر ما هى وسـيلة لتوفير الخير وتحقيق الرفاهية للناس ، والنهوض بمسـتوى حياتهم فى مجتمعهم •

ولا شـك أن عصرنا الحـاضر يتميز بتقـدم (التكنولوجيـا) والتطبيقـات العمليـة للعـلوم ، واستخدامها فيما يحقق السـعادة للانسان ، بصرف النظر عن استخدامها فى النواحى التدميرية ،فتلك ناحية انحرافية تأباها طبيعة العلم الصحيح ، لذلك قد يدهش الباحث حين يتضح له أن العرب كانوا يدركون من قبل مزايا التطبيق العملى للعلوم التى عرفوها ، فقـد عرفوا منذ بدءوا فى وضع أسس النحو وقواعده ؛ لضبط التـلاوة فى المصحف الشريف ؛ ولاتقاء اللحن

فى أحاديثهم ، وكتاباتهم حول ما يدور ويتصل بحياتهم ؛ ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بأن لكل علم من العلوم قيمة عملية، واذن فليس عجيبا أن نجد الدوافع التى حملتهم على ابتكار ما ابتكروه فى ميادين العلوم نابعة من حاجتهم الى الانتفاع بها فى حياتهم •

ولو أن ركب العلم الاسلامى استمر فى زحفه الى الأمام ، ولم تقف فى سبيله الحوائل ـ لأصبح العرب والمسلمون فى عصرنا سادة الدنيا ، ولكنهم جمدوا ، ووقف تيار العلوم فى ديارهم ، بسبب انهيارهم السياسى ، وتفتت وحدتهم وانفصام عرا الروابط ، التى كانت تربط بين أجزاء الدولة العربية الاسلامية الكبرى ، من أجل ذلك تفرق العلماء حين فقدوا الأمن النفسى والاطمئنان والتشجيع ؛ لذلك أصبحوا لا يفكرون فى العلم بقدر ما كانوا يفكرون فى النجاة من العدو محافظة على أرواحهم ، والتماسا لديار ومواطن جديدة ، يشعرون فيها بالأمن والاستقرار ، وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك أشعة قوية من العلم تلوح حينا بعد حين ، فتعطر الأجواء بعبيرها الجميل الساحر ؛ الى أن استقر هؤلاء العلماء فى القاهرة قلب العالم الاسلامى وقتئذ ، والتى أصبحت مركز الثقافة العربية الاسلامية ، فأخذوا منذ توافرت لهم عوامل الاطمئنان والبحث يسلطون أضواء قوية على التراث الضائع والعمل على جمع ما تشتت منه ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، فقد سنحت لهم فرص الابتكار فى العلم من جديد •

ففى عصر الدولة الفاطمية يبرز بعض العلماء الكبار ، وعلى

رأسهم العالم الطبيعي والمهندس العظيم ابن الهيثم الذي حاول في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي تطبيق نظرياته الهندسية على مشروع في النيل ، يشبه مشروع السد العالي ولكنه يصطدم بعقبات لا قبل له بها ، وهي الامكانيات المادية ، والقوى البشرية المدربة تدبيا فنيا ، والتي لا بد منها لتنفيذ مشروعه ، ولم يستطع الحاكم أن يمده بما يريد ، فأخفق في مشروعه .

أما معجم البلدان فالذي لا يشك فيه أنه كان دائرة معارف عامة ، ينتقل القارىء فيها من فن الى فن ومن علم الى علم ، فقد جمع فيها ياقوت كل ما تفرق من المادة الجغرافية الضخمة ، التي تراكمت في مدى ستة قرون ، وبالرغم مما نلحظه على ياقوت من ميل لغوى ؛ الا أنه لم يقتصر حقا على الجغرافية اللغوية ، بل تناول الى جانبها شيئا من الجغرافية الرياضية والفلكية ، فانه بالرغم من اشارته الى الأقاليم السبعة ـ فقد نوه عن زيج أبي عون اسحق بن علي ، ومن الغريب أن هذا الزيج لم يكن معروفا لكثير من المؤلفين الجغرافيين ، حتى ان الخبير الجغرافي الفلكي (نالينو) Nallino ـ لم يشر اليه ، مما يدل على أنه قد وقعت في أيدي ياقوت مصادر ، لم تصل الينا ، وقبل أن نودع معجم البلدان يحسن بنا أن نلخص بعض الأهداف ، التي كان يتوخاها ياقوت من موسوعته الكبرى .

(ا) أهداف للمهتمين بالدراسات التاريخية واللغوية والشرعية الاسلامية .

١ ـ كان ياقوت يستهدف تحقيق غرض تهذيبي من الحديث عن الأماكن والمدن ، التي عبث بها الزمان، وأحالها الدهر الى أطلال دوارس ـ بأن يبعث في نفوسنا العظة والعبرة ، بما حل بهذه الأماكن من دثور وفناء وتخريب ، بعد أن كانت عامرة بأهلها ، زاهية زاهرة ، سعيدة بمن فيها من سكانها الآمنين ، ولذلك يستشهد بالآية الكريمة « أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها » .

٢ ـ بعض هذه الأماكن يرتبط برواية الحديث والسنة الشريفة ، وبعضها كان مزارا للصحابة والتابعين ، أو مشاهد للأولياء الصالحين ، وقارىء السنة في أشد الحاجة الى معرفة هذه الأماكن ، لما في ذلك من التبصرة والذكرى والفهم الواعي العميق لأحاديث الرسول (صلوات الله عليه) وأخبار الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين .

٣ ـ والضبط الصحيح الدقيق لأسماء الأماكن والبلدان ـ يساعد على التعرف الصحيح على هذه الأماكن ، وتحديد مواضعها ، ومن نسب اليها من العلماء والمشهورين من الأدباء ورواة الأخبار ، كما يساعد على عدم الخلط بين مكان وآخر ؛ لأن الخلط بين الأماكن

بعضها وبعض ـ يؤدى الى فقدان الحقائق التاريخية وانطماسها •

٤ ـ الوقوف على مواطن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وفتوحات الخلفاء ، وحكم البلاد المفتوحة مما يساعد على صحة أحكام الفيء والجزية وعدالتها ، وبعدها عن الظلم والجور ، تلك بعض الأهداف التى قصدها ياقوت بالنسبة للمشتغلين بالدراسات التاريخية واللغوية والشرعية •

(ب) أهداف للمشتغلين بالدراسات العربية وآداب اللغة :

أما المشتغلون بالدراسات العربية وآداب اللغة ـ فانه يقدم اليهم زادا أدبيا دسما ، يتفق مع اهتماماتهم ، ويساعد على تعميق ثقافتهم الأدبية ، ومن ذلك :

١ ـ أن المطلع على معجم البلدان يقف بكل دقة على حقيقة أسماء الأماكن والبلدان ، ويهتدى الى ضبطها الصحيح ، وأسمائها الصحيحة ، من حيث هى عربية أو أعجمية ، وما اشتق منها اذا كانت عربية ، فاذا أضيف الى ذلك ما ارتبط بهذه الأماكن من شعر ونثر ، وما ألم بها من نوازل الدهر ، وأحاط بها من غيره وأحداثه ـ أفاد من ذلك الأديب الباحث ؛ اذ يستطيع أن يقف على الظروف والمناسبات ، التى ربطت الانتاج الأدبى بهذه الأماكن ، وذلك مما يعين على توضيح المعانى والأفكار وانكشافها ، ولا يغيب عنا ونحن نتحدث عما يصيب هذه الأماكن والبقاع من محن وما يعتورها من

فتن ـ أن نشير الى أن شأنها فى ذلك شأن الناس ، ولذلك يقول الشاعر •

واذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

٢ ـ وعناية ياقوت بالحديث عن مساكن القبائل العربية تمكن الدارسين المشتغلين بتفصيح اللغة وسلامة أساليبها وتنقيتها من الدخيل والعامى ـ من الاطمئنان الى صحة ما يقوله شاعر عربى وصوابه ، والى الحيطة والحذر مما يقوله آخر ، ذلك لأن مساكن القبائل اذا اتصلت بالحضر ، وقربت من الأمصار والمدن ـ نشأت سلسلة من التبادل اللغوى والثقافى وذلك مما يؤدى الى تسرب الفساد واللحن الى لغة هذه القبائل ، وعندئذ لا يمكن الاحتجاج بما يقوله شعراؤها على فصاحة الأساليب والنصوص اللغوية •

أما اذا بعدت مساكن القبائل عن الحضر ، وتعذر الاتصال بين البادية والحاضرة أو قل ـ بقيت السليقة العربية على أصالتها ؛ ولذلك يحتج بلغة هذه القبائل ؛ لأن لسانها العربى الفصيح ـ لم يلوث بالعامى والدخيل ، وفى الوقت نفسه يمكن التمييز بين الشعر الذى امتزج بمعانى الحضر ، واستقى من أفكارهم ، وغيره من الشعر الذى ظل بدويا ، يمثل بيئته تمثيلا دقيقا •

لذلك كان الناقد الأدبى ومؤرخ الآداب فى أشد الحاجة الى معجم ياقوت الجغرافى ؛ للوقوف على مساكن القبائل ، والتعرف على قربها أو بعدها عن الحضر •

٣ ـ ويتحدث ياقوت عن مواضع أيام العرب ، ومواطن وقائعها المشهورة ، ويرتبط بهذه الأيام والوقائع شعر كثير ، قيل فى هذه المناسبات ، ولا يستطيع الباحث أو الناقد الأدبى ادراك القيمة الفنية لهذا الانتاج ـ الا اذا عرف بالدقة الأماكن التى وقعت فيها أيامهم المشهورة ، ووقائعهم العظيمة التى كان لها أثر فى حياتهم ؛ اذ ان كثيرا من البواعث والمثيرات التى دفعت الشعراء الى الانشاد ـ ترجع الى الرغبة الملحة في الحفاظ على هذه الأماكن والتعلق بها والحنين اليها ، وبذلك تتاح الفرصة لدراسة هذه الآثار من الناحيتين التاريخية والأدبية والبلاغية ، والالمام بكثير من الأسباب والمقومات ، التى قام عليها التاريخ الأدبى للعرب فى الجاهلية والاسلام •

٤ ـ واذا تأملنا الشعر الذى رواه ياقوت وجدناه يعطى صورة واضحة عن عادات العرب وأخبارهم ، وحياتهم الفكرية والاجتماعية والأدبية ، وعقائدهم ، والقيم السائدة فى مجتمعهم فى الجاهلية والاسلام ، ومن اليسير على الباحث المدقق أن يستنبط من هذا الشعر تلك المقومات والمبادىء ، التى كان يقوم على أساسها المجتمع العربى من الجاهلية الى عصر ياقوت •

وقد كان العرب في البادية لا يعرفون حياة الاستقرار ، فحياتهم دائما نجعة « وارتياد » ، وحل وترحال ؛ اذ كانوا مضطرين الى تتبع مساقط الغيث ومنابت العشب والكلأ ، وقد ضمنوا أشعارهم كل هذا ، فأضحت تلك الأشعار أصدق مرجع لتاريخهم ولأمر

ما قالوا : « ان الشعر ديوان العرب ومجمع مفاخرهم ومآثرهم » .

٥ ـ ويزعم بعض الباحثين أن العربى لا يقول الشعر الا فى بيئته ، وما جاء فى معجم البلدان لياقوت من أشعار قالها العرب فى بيئات مختلفة ، ينقض هذا الزعم ، فقد قالوا هذه الأشعار فى أماكن غزواتهم ، وفتوحاتهم ، وأسفارهم البعيدة ، وتناولوا فى بعضها وصف أهل البلاد التى دخلوها غازين أو مسافرين ، ووصفوا حسن بلائهم فى الحروب مع أهل تلك الديار ، وعبروا عن عواطفهم أثناء اقامتهم فيها ، نجد ذلك فيما رواه ياقوت من شعرهم فى فتوح بلاد فارس وخراسان والشام ومصر وغيرها .

٦ ـ وقد عنى ياقوت فى معجم البلدان عند الحديث عن المدن والأماكن ـ ببيان أسماء من سكنوها من العلماء والأدباء والكتاب والخطباء والمؤلفين والشعراء ومؤلفاتهم فى العلوم المختلفة ، كما أورد الكثير من بليغ أشعارهم وخطبهم ، ونراه ينفرد فى بعض الأحيان بذكر بعض الآثار الأدبية التى لا يكاد الباحث يعثر عليها فى غير معجم البلدان ، وكثيرا ما نوه بأسماء شعراء وكتاب وخطباء كانوا مغمورين ، فكشف النقاب عنهم .

وبالرغم مما لكتاب معجم البلدان من قيمة جغرافية سبق بها كتب عصره ، ونال به ياقوت شهرة جغرافية جعلته بين النابهين من علماء الجغرافية المسلمين ـ فان لهذا المعجم الى جانب هذه الناحية العلمية قيمة فنية أدبية ، تجعله من مراجع الأدب العربى الكبرى ،

ولهذا فانه يعتبر فى هذا المجال نواة صالحة وكنزا أدبيـا زاخرا بالطريف من البحوث الأدبية •

معجم البلدان كنز زاخر بالطريف من البحوث الأدبية :

لقد كشفت فى دراستى السابقة عن أهمية معجم البلدان فى الناحية الجغرافية ، ثم حاولت بعد ذلك أن أوضح ما له من قيمـة أدبية ، وقد دعانى الى ذلك أسلوب ياقوت نفسـه فى عرض مادته الجغرافية ، فقد مزجها بالأدب ورواية الشـعر ؛ لذلك كان لا بد من ابراز هذا الجانب ، الذى اشتملت عليه هذه الموسوعة الكبيرة ؛ وأذكر على سبيل المثال البحوث الأدبية ، التى يمكن استخراجها من هذا المعجم وهى على نحو ما يلى :

١ ـ شعر لصوص العرب

والحديث عن هذا الشعر شائق وجذاب ، وقد روى ياقوت طائفة منه ، عند ذكره لأسماء البلاد التى فروا اليها ، أو تلصصوا بها ، أو حبسوا فيها ، أو حنوا اليها ، وأدباء الرواة يضعون شعر لصوص العرب فى الطبقة العالية من البلاغة ؛ اذ يمتـاز بالجزالة والقوة ، وهو فى الوقت نفسه يمثل قوة العارضة والشكيمة ؛ اذ كان لصوص العرب عربا أقحاحا خلصا ، لم تلوث سليقتهم العربية بأى مؤثر حضرى ، فقد كانوا مع قسوتهم وشـدة فتكهم ـ ذوى طبع كريم ، ونخوة عربيـة ، ولم يكونوا مثل لصـوص زماننا ،

يمثلون الخسة والنذالة والجبن والوحشية والجهل ، ويزعم بعض الرواة أن للامام (السكرى) كتابا يسمى (شعراء اللصوص) غير أنه مفقود ، لم يعثر عليه ، وفى استطاعة الأدباء والباحثين اذا رجعوا الى معجم البلدان ـ أن يستخرجوا منه نماذج وصورا بليغة لهذا اللون من الفن الشعرى القوى •

٢ ـ الأدب المصرى

والأدب فى مصر العربية الى القرن السابع الهجرى أدب حى قوى ، ويجد الباحث على صفحات معجم البلدان حديثا عن كثير من شعراء مصر المغمورين ، وآثارهم الشعرية فى هذه الفترة ، التى تمثل أول حلقة من تاريخ مصر العربى الأدبى •

فهو مرجع على جانب من الأهمية ، ومورد عذب لمن يحاول أن يؤرخ لهذه الفترة الأدبية •

٣ ـ أدب الأندلس

ويعطى ياقوت الأدب الأندلسى عناية ملحوظة فى معجمه ، فيورد منه أمثلة كثيرة ، ويتحدث عن عدد كبير من الشعراء والكتاب والخطباء الذين نبغوا فى بلاد الأندلس أو المغرب ، ممن لهم آثار قيمة جديرة بالبحث والدرس ، فاذا أضاف الباحث ما ذكره ياقوت عن أدب هذا الصقع العربى الجميل والفردوس المفقود ـ الى جانب ما جاء فى كتاب (نفح الطيب) استطاع أن يضع يديه على مادة

غزيرة ، تصور بدقة أدب الأندلس ، ومما هو جدير بالنظر أن المكتبة العربية ما تزال الى اليوم فقيرة فى الدراسات الأدبية الأندلسية ، بالرغم من توافر المراجع التى تمد الباحث بفيض غزير ومدد كبير من النصوص والمادة التاريخية التى تفسر هذه النصوص ، وتلقى عليها أضواء كاشفة .

٤ ـ أدب الخوارج

يذكر ياقوت فى افاضة الكثير من أخبار الخوارج وخطبهم وأشعارهم ، وقد جاءت مبثوثة فى الأماكن التى وقعت فيها حروبهم، والجهات التى أظهروا فيها بلاءهم ، ويجد الباحث الأدبى المدقق فى تلك الآثار البليغة ، التى امتاز بها أدب الخوارج مادة طيبة ، يستخرج منها أخبارهم وعقائدهم وآدابهم .

والمطلع على أدب الخوارج يستطيع أثناء تصفح نصوصه ـ أن يتعرف على ما اشتهر به القوم من شدة العارضة وقوة الحجة وعزة النفس ، وثبات اليقين والتمسك بالمبدأ ، والتحمس الشديد لما يعتقدونه حقا ، وقد استفاضت أخبار الخوارج فى العصر الأموى ، ولذلك كان أدبهم بارزا فى هذا العصر .

٥ ـ أدب الشيعة والشعوبية

كذلك تضمن معجم البلدان طائفة من أسماء شعراء الشيعة والشعوبية ، وقدرا صالحا من شعر هؤلاء الشعراء ، مما أنشدوه

تأييدا لدعوتهم ، وما رد به خصومهم عليهم ، وأدب الشيعة لا يقل في أهميته عن أدب الخوارج ، فهو يلقى ضوءا على حياتهم ومعتقداتهم ومذهبهم في الخلافة ، ومثله أدب الشعوبية ، ونحن الآن بحاجة الى دراسة أدب الشعوبيين لارتباطه بمذاهب العناصر المناوئة للقومية العربية •

٦ ـ الأدب النسوى

ويقصد منه بيان ما للمرأة من أثر في الأدب والشعر ، وقد تناول معجم البلدان طائفة من أسماء شواعر ، أورد لهن شعرا رقيقا في أغراض مختلفة ، ولا سيما فيما تجيده المرأة من فنون القول ، كالحنين الى الولد والوطن ، وكالرثاء ، وغير ذلك ، مما يترجم عن عواطف الأمومة •

وبعد فأنت ترى فيما أسلفناه من حديث عن معجم البلدان أنه موسوعة جغرافية عظيمة الشأن ، مزج فيها ياقوت مسائل الجغرافية وبحوثها في عصره بالأدب والتاريخ وعلوم العربية والشريعة الاسلامية ، وياقوت لا يعرف أنه يحقق بذلك مبدأ ترابط المواد ، ولكنه ربما قصد من هذا اللون من الدراسة دفع السأم والملل عن القارىء ، وامتاعه بأفانين من القول ، وأغلب الظن أن هذا المسلك الذي سلكه ياقوت تعبير صادق عن الاتجاه الموسوعي في التأليف عند علماء العرب والمسلمين •

وقد طبع معجم البلدان في أوربة في « ليبسك » سنة ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ م ، في أربعة مجلدات ، وقيل في ثمانية مجلدات ، وزيد عليها فهرس بأسماء الأعلام الذين جاء ذكرهم فيه .

أما كتابه (المشترك وضعا المختلف صعقا) ، وكان قد انتخبه من كتابه معجم البلدان على حروف المعجم ـ فقد نشره (فستنفلد) في مدينة (كوتنجن) سنة ١٨٤٦ م ، وقد لخص أبو الفضائل عبد المنعم بن عبد الحق صفي الدين سنة ٧٣٩ هـ كتاب (معجم البدان) ، واقتصر فيما لخصه على الجغرافية ، وسماه (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) (١) ، ويعتبر هذا الكتاب تكملة هامة للمعجم ، وطبعه (جونبول) T-G-J-Junboll في (ليدن) في ستة أجزاء ، واختصره السيوطي في كتاب له يسمى (مختصر معجم البلدان) .

ثم طبع معجم البلدان بمطبعة دار السعادة بمصر ، وكان الفراغ منه في شوال سنة ١٣٢٤ هـ ، ويقع في ثمانية أجزاء وطبع معه ذيله ، الذي يسمى (منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان) في جزأين ملحقين به ، وقد جمع الذيل ورتبه (السيد محمد أمين الخانجي) ، وطبع على نفقة (السيد / أحمد ناجي

---

(١) أخرجت هذا الكتاب (دار عيسى البابى الحلبى) بالقاهرة بتحقيق الاستاذ على محمد البجاوى سنة ١٩٥٥ م .

الجمالى ، ومحمد أمين الخانجي وأخيه ، ومولوى عبد الله جيتيكر ، وسيد موسى شريف) سنة (١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م) .

ويقول (السيد محمد أمين الخانجى) جامع منجم العمران : انه لم يقصد بكتابه أن يكون استدراكا لما تركه ياقوت ، فانه ماترك شيئا ، ولكنه يريد الحديث عما يدور على ألسن النـاس ، مما لم يصل اليه تنقيب المؤلف ؛ لجهالة مكانه فى زمنه ، أو كان مما حدث بعد زمانه ، وبخاصة المستعمرات الافريقية والأمريكانية وغيرها فان أكثرها حديث الكشف ، ويوضح ذلك بقوله فى مقدمته :

وبعد فان كتاب (معجم البلدان) لأبى عبد الله ياقوت الحموى الرومى غنى فى علو مكانته عن التعريف بمكانه ، وفى علو قدره عن التنويه بمقداره ، وقد كنا حين شرعنا فى طبعه عزمنا أن نجعل له ذيلا ، يكون كالكحل فى عين الحسـناء ، أو كالوشـاح لكشح الهيفاء ، ولما تم لنا بعون الله ما أردنا من طبعه على الوجه الذى كنا نستشرف اليه ، وفور الحصول عليه - قمنا الى انجاز ما سبق الوعد به ، حين الشروع فى طبعه ، فأخرجناه من الخفاء ، وأبرزناه يميس فى حلل من البهاء ، وسميناه (منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان) ، ولسنا نستدرك فى هذا التذييل ما فات المؤلف من ذكر القرى والمحال والهضاب والجبال ، مما عقد كتـابه لبيانه ، وأمضى فيه جل عمره لايضاح شـأنه ، فما أقل هذا وأندره ! فان المؤلف رحمه الله بالغ فى البحث والتنقيب ، حتى لا يكاد أن يجد معترض

للاعتراض عليه سبيلا ، ولو أن أحدا من البشر فى كل ما سلفت من الأيام والأعوام سلم من هذا ـ لكان حريا بأن يكون اياه .

وانما عمدنا الى ما للناس فيه فائدة من حادثة تاريخية ، أو أثر جميل ، أو شيء غريب ، أو كان للناس فيه حاجة دنيوية للوقوف عليه ، لتجارة أو صناعة ، أو كان به من الرياض والغياض والملاهى والمتنزهات ـ ما يكون للناس فيه مستراح ، ولهم جمام ، وأهملنا ما عدا ذلك ، مما ليس فيه من الفوائد ما ذكرنا » .

وقد اتخذ صاحب منجم العمران أسلوب ياقوت وجرى على طريقته ، واتبع منهاجه فى عرض مادة كتابه وترتيبها ، وفيما يلى أمثلة من هذا الكتاب ، لنتبين فى ضوئها أنه كان مقلدا لياقوت ، وأنه لا فرق بين الكتاب الأصلى والذيل المستدرك عليه فى المنهج وطريقة عرض المادة .

باب الهمزة

من كتاب منجم العمران

١ ـ (آمد) بميم مكسورة بعدها دال ، قال البستانى : جد قبيلة من العـرب ، يدعون بنى آمد ، وكانت مواطنهم بين (أجاء وسلمى) والعـراق ، وربما كان اسم مدينـة آمد مأخـوذا منه ، والأتراك الآن يسـمونها (آميدة) أى آمد السـوداء ؛ لسـواد حجارتها ، قلت والمدينة ذكرها المصنف فى الأصل •

فـاذا وازنا بين ما قـاله ياقوت فى هـذا المكان (آمـد) ، وما استدركه عليه صاحب المنجم ـ فلا نجد فى قوله من جديد ـ الا ما نقله عن البستانى من (آمد) اسم رجل ، وهو جد قبيلة من العرب ، واسم المدينة مأخوذ منه ، ثم ما ذكره من تسمية الأتراك لها ، وكل ذلك مما أخذ من مصادر لم تصـل اليها أيدى ياقوت أو مما استحدث بعد عصره •

٢ ـ (أمسـتردام) بفتح فكسر فسـكون ، وهى أكبر مدن (هولاندا) ، والعاصمة الحقيقية لها فى نظر أهالى المملكة ، واقعة على جنوب خليج (واى) فى عرض ٥٢ درجة ، و ٢٢ دقيقة شمالا ، وطول أربع درجات و ٥٣ دقيقة شرقا ، وعدد أهاليها ٤٠٠ ألف نسمة ، وهى مدينة جميلة جدا ، ومن أغنى مدن العمران ، هلالية الشكل ، وطرفاها داخلان فى خليج (واى) ، ومنهما تتكون الميناء ،

وهى متصلة مع البحر الشمالى بواسطة ترعة (بومويدين) ، ولها مرفآن يمكن آن ترسو فيهما ألف سفينة ، وكانت هذه المدينة من الجهة اليابسة مكتنفة بأسوار ، ثم رفعت وأبدلت بخندق ، وعرضه ثلاثون ياردا ، وظلل جانباه بالأشجار فصار كمتنزه جميل ، وموقع المدينة المذكورة فى أرض منبسطة أجمية ، وبيوتها مبنية على أوتاد أو أعمدة مغروسة فى الأرض ، على عمق خمسين قدما ، وبواسطة الترع المتخللة انقسمت الى نحو تسعين جزيرة ، ويعلو تلك الترع نحو ٣٠٠ جسر ، ومحيط المدينة يبلغ عشرة أميـال ، ولها ثمانية أبواب من حديد ، اسم كل باب منها باسم الحى الذى يدخل اليه منه ، والقسم القديم من المدينة غير منتظم ولا مستحسن المنظر ، لضيق أزقته ، وحقارة بيوته ، أما الجديد منها فهو بناء بغاية الانتظام والطرافة ، ذو أسـواق جميلة ، طول السـوق منها نحو ميلين ، وعرضه ٢٢٠ قدما ، والترع مارة بها ، وبيوتها مبنيـة من آجر ، ومؤلفة من أربع أو خمس طبقات ، ويدخل اليها بدرج فى مستقبلها وبها من الأبنية العمومية الجميلة دار الحكمـة ، وجملة كنـائس ، ودار القضاء ، ودار اجتماعات العمومية الجديدة ، ودار الصـناعة ، وجملة أبنية خيرية أيضا ، وبها جملة مدارس خصوصية وعمومية علمية وصناعية ، وبها بستان لتربية أنواع النباتات ومكتبة عمومية ، ومدرسة للموسيقا ، ومدرسة للبحرية ، ودار للصور ، وبها عدة معامل صناعية لعمل السكر والزجاج وصب الحديد وبناء السفن ، والصابون والمنسوجات ، وغير ذلك ، وهى مشهورة بتجارتها أكثر

من صناعتها ، ومعظم البضائع الداخلة الى هولاندا والخارجة منها ـ تمر بأمستردام ، وقد بلغت عدة السفن التى دخلت ميناءها والتى خرجت منها فى بضع سنين ـ نحو ثلاثة آلاف سفينة ، وأهم صادراتها السمن والجبن والسكر والبن والبهار ، والزيت ، والقصدير ، والصباغ ، وأكثرها لألمانيا وانجلترا ، ولها طرق اتصال بغيرها متعددة ، منها الترع والسكك الحديدية وغيرها .

وقد كانت أمستردام سابقا خاضعة لاسبانيا ، ثم تداولتها أيادى جملة دول ، منها البروسيون والانجليز والفرنساويون ، ثم انتقلت الى هولاندا ، وجعلت عاصمة لها ، الا أن البلاط الملكى فى مدينة (لاهاى) .

ويلاحظ أن صاحب منجم العمران يعنى بضبط اسم المدينة ، ولكنه يهمل الناحية الاشتقاقية ، وعذره واضح فى ذلك لأنه يتحدث عن مدن أوربية أو أمريكية مجهولة الاشتقاق ، وقد سلك ياقوت قبله هذا المسلك ، فهو لم يتحدث الا عن اشتقاقات أسماء المدن العربية الخالصة ، وكان يهمل الأسماء الأعجمية للبلدان والأماكن ، لتعذر معرفة اشتقاقها وصاحب المنجم مقلد ، ولم يأت بجديد من حيث المنهج وطريقة البحث ، ولذلك يعتبر المنجم امتدادا لأسلوب ياقوت وتكملة لمعجم البلدان ، من حيث التعريف بالأماكن التى نشأت بعد عصر ياقوت فى أوربة وأمريكا والمستعمرات الافريقية .

الفصل الرابع

ياقوت بين الجغرافيين

يذهب العلامة الروسى كراتشكوفسكى الى القول بأنه لا يمكن وضع ياقوت بازاء باحث عالمى كبير كالبيرونى ، أو بازاء رحالة حلقت شهرته فى كل سماء وطارت الى أكثر من مكان كالمسعودى أو المقدسى •

ولكننا اذا وضعناه بازاء الجغرافيين اللغويين من طبقة (البكرى) ـ فان ياقوتا يفضل الكثير من هؤلاء ، ويبزهم ، اذ يتفوق عليهم بغزارة مادته وتنوعها ، وبمنهجه فى البحث الذى انفرد به ودل على ذكائه ومهارته ؛ ولذلك لا نبالغ بعد هذا اذا وصفناه بأنه كان من أبرز رجال عصره فى تطوير مادة الأدب الجغرافى ، التى عالجها باقتدار فى معجم البلدان ، وما يزال هذا المعجم الى وقتنا يخدم غرضه ، الذى وضع من أجله ، وما يزال مرجعا من أهم المراجع الموثوق بها فى دراسة التراث الجغرافى العربى القديم •

ونضيف الى قول العلامة (كراتشكوفسكى) أننا لا نستطيع أن نضع ياقوتا بالرغم من شهرته فى عصره وبالرغم من القيمة العلمية الكبيرة لكتابه معجم البلدان ـ بجانب الخوارزمى ، اذ أننا نجد الخوارزمى وهو العالم الجغرافى العظيم قد اشترك فى أيام المأمون فى وضع الخرائط الجغرافية ، ومنها رسم مصور لوادى النيل ، كما قام بقياس درجة من درجات محيط الأرض ، ولم يعرف عن ياقوت أنه شغل نفسه برسم الخرائط ، وبوضع الزيجات الفلكية ، وانما اتجه نحو الجغرافية الوصفية ، وركز اهتمامه على التعريف بالأماكن والبقاع والبلدان ، وضبط أسمائها وبيان اشتقاقاتها ، ولا يمكن أن نضعه بجانب السيرافى ، فالسيرافى قد توسع فى رحلاته ، وجاوز بها البلاد العربية الاسلامية ، فاجتاز بها الهند ، ومر بجزيرة سيلان وملقا وزار الصين ، فى حين أن ياقوتا لم تذكر المراجع عنه انه زار الصين وغيرها من البلاد التى سجل السيرافى عنها كثيراً من الأوصاف وعادات السكان وتقاليدهم ، فأمد برحلاته الجريئة مؤلفى القصص الخرافى بثروة ضخمة ساعدتهم على وضع قصص السندباد المشهورة .

و (ابن خرداذبه) يسبق ياقوتا فى كتابه « المسالك والممالك » بالتحدث عن أقسام الدولة العباسية ، وكيفية جباية خراج هذه الأقسام ، وبالتحدث عن الطرق التجارية ، ووصف بلاد الصين واليابان وكوريا وصفا دقيقا ، مما أغفله ياقوت أما (ابن فضلان)

فقد انفرد بين الجغرافيين العرب ومنهم ياقوت برحلتـــه الى حوض (الفولجا) ، وتقول الرواية العـربية : ان أحـد ملوك الصقالبة قد أسلم ، وكانت له مملكة شاسعة الأطراف ، تشمل حوض (الفولجا) وتمتد الى (قازان) فى محاذاة (موسكو) ، وأنه أرسل الى الخليفة المقتدر العباسى فى طلب بعض علماء المسلمين ، ليفقهوه وقومه فى دينهم الجديد ، ويوقفوهم على أحكامه وتعاليمه الصحيحة ، ثم لكى يقيموا مسجدا ، وينصبوا منبرا ، ينادى من فوقه قومه ، ويدعوهم الى التمسك بالاسلام ، ويقال : ان الخليفة المقتدر أجابه الى طلبه ، واختار وفدا من العلماء برئاسة (أحمد بن فضلان) (١) ، وغادر الوفد مدينة بغداد فى ١١ من صفر سنة ٣٠٩ هـ ، ثم تتعرض هذه البعثة أو السفارة العربية الاسلامية لكثير من الصعوبات فى الطريق الى ملك بلغار ، بسبب قسـوة زمهرير الشـتاء فى تلك الأصقاع الباردة ، وقد حملت البعثة معها كثيرا من الهدايا والأدوية ، ممـا يدل على سعة الحضارة العباسية ، ووفرة الرخاء وقتئذ ، وقد كانت هذه الرحلة الفريدة ، والرسالة التى كتبها ، يصف فيها ما شاهده من عجائب وغرائب فى بلاد الصقالبة موضع عنـاية المستشرقين ، وبخاصة المستشرقون الروس ، ومنهم (فرمن) الذى عكف على

---

(١) (احمد بن فضلان) هو احمد بن فضلان بن عبـاس بن رشـيد بن حماد ، ارسله الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩ الى ملك البلغار وليس المراد بالبلغار أهل بلغاريا الذين تشغل أرضهم جزءا من بلاد البلقان شرقى اوربة ، وانمـا المقصود بهم الصقالبة او الروس سكان شواطىء الفولجا شرقى موسكو .

دراسة المخطوطات ، التى أشارت الى هذه الرحلة ، واهتم (فرمن) بنشر ما جاء في معجم ياقوت عن هذه الرحلة ، وأتم طبعه فيسنة (١٨٢٣) م في (سان بطرسبرغ) « لينتغراد » ، كما توصل العالم التركى أحمد زكي الى نسخة من رسالة ابن فضلان ونشرها فى سنة ١٩٣٤ م ، وقد وقف ياقوت من ابن فضلان موقف المسجل الناقل لما تركه من آثار .

وأما اليعقوبى فيهتم بوصف الامبراطورية البيزنطية ، فضلا عن وصفه لبلاد الهند والصين ، والبتاني يوجه عنايته الى الأرصاد الجوية والجغرافية الفلكية ، وقد وضع زيجه المشهور الذى يعرف بالزيج الصابى ، مما لم يقم به ياقوت ، وكان الاصطخرى من أشهر مؤلفى الجغرافية فى العصر العباسى ، ألف كتاب (المسالك والممالك) واهتم فيه بالمصورات والخرائط ، ويقال انها كانت ملونة، مما يدل على دقته في التصوير الجغرافي .

ومن المؤكد أن ياقوتا لم يشتغل برسم الخرائط بدليل أن معجم البلدان نشر خاليا منها ، والمقدسي وان كان كياقوت فى أن رحلاته كانت مقصورة على البلاد الاسلامية ـ الا أنه يتميز برسم خرائط ملونة للبلاد التى زارها .

وأما « الشريف الادريسى » الذى طارت شهرته فى العالمين الاسلامي والمسيحي ، فقد قيل عنه انه كان صاحب الفضل فيتجديد علوم الجغرافية بتأليفه كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ،

وكان يعرف هذا الكتاب بالكتاب (الرجارى) نسبة الى (روجر) ملك النورمانيين بصقلية ، وهم الذين تغلبوا على مسلمي هذه الجزيرة وأجلوهم عنها ، ولكن (روجر) كان معروفا بتسامحه الدينى ، وحبه للعلماء ، وبخاصة علماء المسلمين ، الذين ملأت شهرتهم العلمية سمع العالم وبصره وقتئذ ، فقرب منه (الشريف الادريسى) ، وطلب اليه وضع كتاب ، يشمل جميع المعلومات الجغرافية المعروفة فى عصره ، فوضع الكتاب الذى سبقت الاشارة اليه ، وقد جاء ما فيه من مادة جغرافية وصفا دقيقا لكل ما هو معروف عن الكرة الأرضية ، التى كانت تمثلها كرة ذهبية ، وقيل فضية ـ أمر (روجر) بصنعها ، وقد رسمت عليها الاقاليم السبعة المعروفة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها ، وريفها ، وخلجانها ، وبحارها ، ومجاريها ، ومنابع انهارها ، وعامرها وغامرها ، ومابين كل بلد وغيره من الطرقات المعروفة والأميال المحدودة ، والمسافات، والمراسى المعروفة ، واشتهر الادريسى بدقته فى رسم الخرائط ، ومن خرائطه المشهورة خريطة لنهر النيل ، تصوره آتيا من بحيرات تقع فى المنطقة الاستوائية ، ويقال : انه صحح بهذه الخريطة آراء الجغرافيين فى عصره ، الذين كانوا يخلطون خلطا كبيرا فى تحديد منابع النيل ، وخرائط الادريسى فى دقتها ووضوحها ـ قد وضعت الصورة السليمة الصحيحة للكرة الأرضية ، وعليها اعتمد (كولمبس) فى القيام برحلته البحرية ، التى حققت كشف الأمريكتين ، (الدنيا الجديدة) .

ولا نستطيع ازاء هذه الجهود الضخمة التى قام بها الشريف الادريسى أن نضع بازائه ياقوتا •

والذى يلاحظ بصفة عامة أن ياقوتا قد اتجه فى تأليفه الجغرافى اتجاها يختلف فيه عن كثير من سلفه علماء الجغرافية ، فرحلاته كانت ضيقة ، شملت العالم العربى الاسلامى وحده ، وما ذكره عن بعض البلدان والبقاع الأخرى فقد كان نقلا عن غيره ، وكان يركز فى معجمه الجغرافى على التعريف بأسماء الأماكن والبلدان والبقاع والديرة ، ويعنى بالضبط كل العناية ، وباشتقاقات أسماء البلدان والأماكن اذا كانت عربية ، ثم نراه يهتم بتوجيه علوم الجغرافية الى خدمة الأحكام الشرعية ، وقد نقل أكثر ما قاله فى وصف البلدان والتعريف بالأماكن ممن تقدموا عليه ، وأيد ذلك باعترافه الواضح فى مقدمة (معجم البلدان) ، ولذلك يقول العالم الايطالى (ألدوميلى) فى كتابه (العلم العربى) : « انه جمع فى معجمه قسما كبيرا من مؤلفين سابقين » •

ان ياقوتا وان كنا نضعه بين المشهورين من الجغرافيين المسلمين ـ الا أن أكثر معلوماته قد نقلها عن غيره ، واذا فهو مؤلف جغرافى ، وليس جغرافيا بالمعنى الذى نتصوره فى الشريف الادريسى ، أو فى أبى الريحان البيرونى ، فكل من أبى الريحان والادريسى قام بأعمال فلكية،ولكل منهما آراء استنبطها من دراساته، ومن آراء أبى الريحان قوله : « والعقل يقضى بوجود جزء مغمور

فى الجانب الغربى من الكرة الأرضية » ، ولكنه يبدى احتراسا فيما يقوله حين يرى أنه لا يمكن الجزم بوجود هذا الجزء المغمور فى الجانب الغربى من الكرة الأرضية ـ الا بعد المشاهدة وتواتر الخبر من الثقات •

وكما أفاد (كولمبس) من خرائط الشريف الادريسى ، كذلك أفاد من آراء أبى الريحان البيرونى ، وهذا مما دفعه بيقين قاطع على اقتحام بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) من أجل تحقيق الفكرة المنطقية لأبى الريحان ـ عن طريق العيان والمشاهدة • وياقوت وان لم يبلغ ما بلغه السابقون من علماء الجغرافية المسلمين كالبتانى والبيرونى والشريف الادريسى وغيرهم ـ الا أنه بالنسبة لجغرافى عصره يمكن وضعه فى قمة علماء الجغرافية ، فقد لمع ياقوت فى عصره لقيامه ببعض الرحلات ، التى أتاحها له سيده عسكر بن أبى نصر الحموى ، وبرحلات أخرى قام بها بعد وفاة سيده ، ثم بوضعه كتابه المشهور (معجم البلدان) فى الجغرافية الوصفية ، وان كان قد استهله ببعض فصول قصيرة فى الجغرافية الطبيعية والفلكية، ويعتبر معجم البلدان موسوعة كبرى مزج فيها ياقوت علوم الجغرافية بعلوم الشريعة الاسلامية والأدب والقصص والتاريخ والفلك •

ومن الراجح أن كثيرين من الجغرافيين الذين جاءوا بعد ياقوت ـ لم يتأثروا باتجاهه الجغرافى الى درجة ملحوظة ، فى مثل

ما عنى به من التعـريف الدقيق بالأماكن والبـلدان ويمـكن أن نستثنى من هؤلاء العلماء أبا الفداء اسماعيل بن على بن محمود فى كتابه المشهور (تقويم البلدان) (١) ، ومن العجيب أن أبا الفداء يتهم علماء الجغرافية السابقين بضعف العناية بالضبط ، ولا شك أن هذا الاتهام يتناول ياقوتا ، ولا نستطيع ان نقول ان أبا الفداء لم يطلع على معجم البلدان ، ومن هنا يتضح لنا الاسراف فى توجيـه هذا الاتهام ، الذى يوجهه دائما بعض الخلف الى السلف فى غير دقة ولا تمحيص .

ولكن الذى لا ريب فيـه أن ياقوتا قد نهض نهضـة كبيرة بالتأليف الجغرافى فى عصره ، فأفاد بمعجمـه الجغـرافيين والأدباء واللغويين والأطباء ورجال الشريعـة الاسـلامية وغيرهم ، ويقول الأستاذ (نفيس أحمد) فى كتابه جهود المسلمين فى الجغرافية (٢): والحق أنه (أى ياقوتاً) هدانا باشاراته التى وردت فى ثنايا كلامه الى كتب متعددة ، لم يعد يتيسر الحصول عليها ، وهو يبدىاستعماله المنهج النقدى الذى يأخذ به الجغرافى الحديث ، حين ينقد اشارات بطليموس الى مدن ومواضع من جزيرة العرب ، فيذكر ياقوت أنه

---

(١) (تقويم البلدان) ألفه أبو الفداء اسماعيل ، ورتبه المؤرخ التركى (سباهى زادة) المتوفى سنة (٩٩٧ هـ) على حروف المعجم ، وسماه أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك .

(٢) ترجمه الاستاذ (فتحى عثمان) وراجعه الاستاذ (على ادهم) ، ونشرته دار القلم من سلسلة الالف كتاب .

قد فشـــــل فى تحقيق كثير من الأماكن التى وردت فى كتـــابات بطليموس ؛ لأنها لم تعد بعد قائمة •

(٢) ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء •

وهو المعجم الثانى الذى طارت به وبسابقه شهرة ياقوت فى الآفاق ، ويقتضينا تقديمه للقارىء أن نستشير مقدمته ؛ لنستخرج منها الأساس الفلسفى الذى بنى عليه ، والمنهج الذى سلكه ياقوت فى عرض تراجمه ، يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه الاعانة : الحمد لله ذى القدرة القاهرة ، والآيات البـاهرة ، والآلاء الظاهرة ، والنعم المتظاهرة ، حمدا يؤذن بمزيد نعمه ، ويكون حصنا مانعا من نقمه ، وصلى الله على خير الأولين والآخرين من النبيين والصديقين محمد النبى والرسول الأمى ، ذى الشرف العلى ، والخلق السنى ، والكرم المرضى ، وعلى آله الكرام ، وأتباعه سرج الظلام ••• فما زلت مذ غذيت بغرام الأدب ، وألهمت حب العلم والطلب ــ مشـغوفا بأخبـار العلماء ، متطلعا الى أنباء الأدباء ، أسـائل عن أحوالهم ، وأبحث عن نكت أقوالهم بحث المغرم الصب والمحب عن المحب ، وأطوف على مصنف فيهم ، يشفى الغليل ، ويداوى لوعة العليل ، فما وجدت فى ذلك تصنيفا شافيا ، ولا تأليفا كافيا ، مع أن جماعة من العلمـاء والأئمـة

القدماء أعطوا ذلك نصيبا من عنايتهم وافـرا ، فلم يكن عن صبح الكفاية سافرا كأبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي ، وأرى أنه أول من أعارهم طرفه ، وسود فى تبييض أخبارهم صحفه ، لأنه قال فى مقدمة كتابه : وقد اجتهـد أبو العبـاس محمـد بن مؤيد الأزدى ، وأبو العباس أحمد بن يحيى الشيبانى فى مثل ما أودعناه كتابنا من أخبار النحويين ، فما وقعا ولا طارا •

هذا مع أن كتابه صغير الحجم قليل التراجم ، محشو بالنوادر التى رووها ، لا يختص بأخبارهم أنفسهم •

ثم ألف بعده فى هذا الأسلوب أبو محمد عبد الله بن جعفر ابن درستويه كتابا ، فلم يقع الينا الا أنباء ظنه لذلك ، ثم صنف أبو عبد الله محمد بن عمر المرزبانى كتابا حفيلا كبيرا على عادته فى تصانيفه ـ الا أنه حشاه بما رووه ، وملاه بما وعـوه ، فينبغى أن يسمى مسند النحويين وقد وقفت على هذا الكتـاب ، وهو تسـعة عشر مجلدا ، ونقلت فوائده الى هذا الكتاب ، مع أنه أيضا قليل التراجم بالنسبة الى كبر حجمه ، ثم ألف فيـه أبو سـعيد الحسن ابن عبدالله بن المرزبان السيرافى القـاضى كتـابا صـغيرا فى نحاة البصرة ، نقلنا أيضـا فوائده الى هذا الكتاب ثم جمع فى ذلك أبو بكر محمد بن حسن الأشبيلى الزبيدى كتابا لم يقصر فيه ، وهو أكثر هذه الكتب فوائد ، وأكثرها تراجم وفرائد وقد نقلنا أيضـا فوائده الى هذا الكتاب •••

موضوع معجم الأدباء ومنهج المؤلف فيه :

هذا الكتاب كما يدل عليه اسمه يمكن أن يسمى قاموس الأدباء ، ويقول ياقوت :

وجمعت فى هذا الكتاب ما وقع لى من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف فى الأدب تصنيفا ، أو جمع فى فنه تأليفا ، مع ايثار الاختصار ، والاعجاز فى نهاية الايجاز ، ولم آل جهدا فى اثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيفهم ، ومستحسن أخبارهم ، والاخبار بأنسابهم ، وشىء من أشعارهم •

فأما من لقيته أو لقيت من لقيه ، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره ـ ما لا أترك لك تشوفا الى شىء من خبره ، وأما من تقدم زمانه ، وبعد أوانه ـ فأورد من خبره ما أدت الاستطاعة اليه ، ووقفنى النقل عليه فى ترددادى الى البلاد ، ومخالطتى للعباد ، وحذفت الأسانيد الا ما قل رجاله ، وقرب مناله ، مع الاستطاعة لاثباتها سماعا واجازة ، الا أننى قصدت صغر الحجم وكبر النفع وكنت قد شرعت عند شروعى فى هذا الكتاب أو قبله ـ فى جمع كتاب فى (أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء) فرأيت أهل العلم المتأدبين والكبراء المتصدرين ـ لا تخلو قرائحهم من نظم شعر

وسبك نثر ، فأودعت ذلك الكتاب كل ما غلب عليه ، فدون ديوانه، وشاع بذلك ذكره وشانه ، وصحت روايته ، وشاعت درايته ، وقل شعره ، وكثر نثره ، فهذا الكتاب عشه ووكره ، وفيه يكون ثناؤه وذكره ، وأجتزيء به عن التكرار هناك ـ الا النفر اليسير الذين دعت الضرورة اليهم ، ودلتنا عنايتهم بالصناعتين عليهم •

ففي هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء ، وقصدت بترك التكرار خفة محمله في الأسفار ، وجعلت ترتيبه على حروف المعجم ، أذكر أولا من أول اسمه ألف ، ثم من أول اسمه باء ، ثم تاء ثم ثاء الى آخر الحروف وألتزم في ذلك في أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه ، فأبدأ بذكر من اسمه (آدم) ألا ترى أن أول اسمه همزة ، ثم الف ، ثم من اسمه (ابراهيم) لأن أول اسمه الف ، وبعد الألف باء ، ومعنى ذلك انه اذ اشترك اثنان أو أكثر في الحرف الأول من الاسم رتب بحسب الحرف الثاني ، فان اشتركا فيه كان الترتيب بحسب الحرف الثالث وهكذا ، فان اتحدت الأسماء الأول رتب بحسب الأسماء الثواني ، فآدم قبل ابراهيم ، كما سبق ، ومحمد بن أحمد قبل محمد بن علي ، وهكذا •

فاذا اتفق اسماء عدة رجال وأسماء آبائهم ، قدم من تقدمت وفاته ، ولم ينظر في الترتيب الى أسماء الجدود اذا اتفقت الأعلام في أسمائهم وأسماء آبائهم، فنراه يقدم ابراهيم بن محمد بن عبيدالله،

على ابراهيم بن محمد بن سعيد وكانت طبيعة الترتيب تقتضيه أن ينظر الى أسماء الأجداد ، لاتمام الترتيب ، ومع ذلك فقد يسهو ، ويقدم ما يجب تأخيره ، كتقديمه ابراهيم بن محمد سعدان على ابراهيم بن القاسم ، ولكن لا يبعد أن يكون هذا من صنيع النساخ ثم يقول : ولم أقصد أدباء قطر ، ولا علماء عصر ، ولا اقليما معينا ، ولا بلدا مبينا ، بل جمعت للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين ، والحجازيين ، والتميميين ، والمصريين ، والشاميين ، والمغربيين ، وغيرهم على اختلاف البلدان وتفاوت الأزمان ، على حسب ما اقتضاه الترتيب وحكم بوضعه التبويب ، لا على أقدارهم فى المقدمة والعلم والتأخر والفهم ، وابتدأته بفصل يتضمن أخبار قوم من متخلفى النحويين والمتقدمين المجهولين .

ويفهم من قول ياقوت أنه جمع فى كتابه الأول فى (أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء) عددا كبيرا منهم ، ولم يحاول أن يكرر أسماء هؤلاء فى كتابه معجم الأدباء كراهة التكرار ، ولذلك نراه يشير الى ذلك بقوله : ففى هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء والنحويين واللغويين ...

اشادته بفضل من نقل عنهم ، وبأثر علمهم وأدبهم فى الحياة والدين :

وبعد فهذه أخبار قوم أخذ عنهم علم القرآن المجيد، والحديث

المفيد ، وبضاعتهم تنال الامارة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ، ألا ترى أن القارىء اذا قرأ : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » ، فقد سلك طريقا من الصواب واضحا ، وركب منهجا من الفضائل لائحا ، فان كسر اللام من (رسوله) كان كفرا بحتا، وجهلا قحا ، وروى أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : « لعلم العربية هو الدين بعينه » ، فبلغ ذلك عبد الله بن المبارك فقال : صدق ؛ لأني رأيت النصارى عبدوا المسيح لجهلهم بذلك ، قال الله تعالى : « انى ولّدتك من مريم وأنت نبيى » فحسبوه يقول : أنا ولدتك وأنت بُنيي ، فبتخفيف اللام ، وتقديم الباء وتعويض الضمة بالفتحة كفروا ، وحسبك من شرف هذا العلم أن كل عالم على الاطلاق مفتقر الى معرفته ، محتاج الى استعماله فى محادثته .

ونلاحظ أن ياقوتا فى افتتاحية مقدمته يبدأ بتحميد الله جل شأنه ، وبالصلاة على رسوله أفضل الخلق وأشرفهم ، وهو بذلك يجرى على عادته ، حينما قدم الينا من قبل كتابه (معجم البلدان)، والذى نستطيع أن نستشفه من خلال هذا التحميد والصلاة على النبى الكريم أن علماءنا السابقين ، ومنهم ياقوت كانوا يربطون دائما بين تفكيرهم العلمى وصلتهم بالخالق عز شأنه ؛ اذ هو الذى يهديهم ، ويرشدهم الى سواء السبيل ، ويعينهم على البحث ، ويوفقهم فيما يستنبطونه من مسائل العلم ويفتح أمامهم أبوابه المغلقة .

وتلك ظاهرة جديرة بالنظر ، سبق أن أشرنا اليها عند الحديث عن مقدمة ياقوت (لمعجم البلدان) ، وانى استعيد الحديث عنها ؛ لأكشف عن شيء من أسرار هذه الظاهرة ، التى تثبت أن علماء المسلمين فى العصور الماضية من الاسلام كانوا على صلة قوية بالله تعالى ، وكانت هذه الصلة من العوامل التى ساعدتهم على هذا الانتاج الضخم ، الذى يقف أمامه العقل حائرا ، فقد جمعوا ثمرات طيبة من العلوم الناضجة فى مجلدات ضخام ، لقد كانت عقيدتهم صافية ، ثم أضافوا اليها شغفا زائدا بالعلم ، ورغبة صادقة فى استقصاء مسائله والبحث عن شوارده ، ولو أنهم كانوا يعيشون فى عصرنا بما هم عليه من صفات ـ لأتوا بالعجب العجاب ، وسجلوا فى ميادين البحث نظريات وحقائق علمية ، تفوقوا بها على معاصرينا . كذلك تكشف لنا هذه المقدمة عن الأمانة العلمية فى اشارات ياقوت الى من سبقوه فى هذا الميدان ، ونقله عنهم ، واعتماده على مراجعهم ، وتلك الأمانة نتيجة منطقية للايمان العميق بالله واعتماد عليه ، ولا ينسى ياقوت أن يشرح لنا طريقته فى عرض مادة كتابه ، وترتيب أبوابه، وأنه لم يؤثر فريقا من الأدباء والعلماء بالذكر والتنويه لفضلهم دون فريق آخر ؛ اذ كان هدفه الكشف عن الحقيقة العلمية والأدبية أينما وجدتا ، ويحدثنا ياقوت عن أثر علوم الأدب فى الحياة ، وفضلها فى تسليط أضوائها الكاشفة عن المسائل الدينية ، فالعالم بعلوم الحياة ، والعالم فى الدين فى أشد الحاجة الى الأدب ، ولذلك وجدنا أكثر

المفسرين من ذوى السبق فى هذا الميدان يعتمدون على النصوص الأدبية من شعر وغيره فى شرح مقاصد آى الذكر الحكيم ، ويؤيد رأيه بما وقع فيه المسيحيون من خطأ شنيع فى تفسير بعض النصوص الدينية ، وما ترتب على هذا الخطأ من عواقب أليمة بالنسبة لهم .

وبعد أن فرغ ياقوت من مقدمته بدأ كتابه (معجم الأدباء) بفصلين ، الفصل الأول فى فضل الأدب وأهله ، وذم الجهل وحمله، والفصل الثانى فى فضيلة علم الأخبار ، وسنعطى القارىء فكرة عن اتجاهات ياقوت فيهما .

فهو يقول فى الفصل الأول (فى فضل الأدب وأهله وذم الجهل وحمله) ، قال على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ : كفى بالعلم شرفا أنه يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح اذا نسب اليه من ليس من أهله ، وكفى بالجهل خمولا أنه يتبرأ منه من هو فيه ، ويغضب اذا نسب اليه ، فنظم بعض المحدثين فى ذلك فقال :

كفى شرفا للعلم دعواه جاهل ويفرح أن يدعى اليه وينسب
ويكفى خمولا بالجهالة أننى أراع متى أنسب اليها وأغضب

وقال على رضى الله عنه : قيمة كل انسان ما يحسن ، فنظمه شاعر وقال :

لا يكون الفصيح مثل العيي ولا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء قدر ما يحسن المر ء قضاء من الامام علي

ويقول : سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : رحم الله امرأ أصلح من لسانه ... قالوا والفرق بين العالم والأديب أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه ، والعالم من يقصد بفن من العلم فيعتمله (١) ، ولذلك قال علي كرم الله وجهه : العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه .. وقال بزرجمهر : من كثر أدبه كثر شرفه وان كان وضيعا ، وبعد صوته وان كان خاملا ، وساد وان كان غريبا ، وكثرت الحاجة اليه وان كان فقيرا .

وفي فضل علم النحو قال نافع مولى ابن عمر : كان ابن عمر يضرب ولده على اللحن ، كما يضربهم على تعليم القرآن .

ونرى ياقوتا فيما عرضناه من هذا الفصل يتمثل بقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في فضل الأدب، ويحرص على أن يزودنا بنصوص من الشعر ، تعبر عما قاله الامام العظيم ، والتعبير عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة منحى بلاغي ، سلكه ياقوت للتشويق ، وتقوية المعنى ، ولزيادة الثروة اللغوية ، وحين يفرق بين العالم والأديب يسلك مسلكا علميا دقيقا .

---

(١) يعتمله : يعمل فيه بجد وجهد .

فالأديب عنده من يعنى بالصفة الكلامية وتأليف الكلام ـ وأما العالم فهو الذى يعتمد على طاقته الفكرية ، فيعتمل الأشياء أى يفكر فيها بجد وجهد ، وهذا الفرق بين كل من العالم والأديب ـ لا يبعد عن وجهة نظرنا الحديثة •

وفيما يسجله ياقوت عن أهمية النحو العربى ، وأن ابن عمر كان يضرب أبناءه ، ليحملهم على توجيه مزيد من عنايتهم الى النحو ، كما كان يضربهم على الاهتمام بحفظ القرآن الكريم ـ دليل على سمو منزلة النحو عند العرب الأولين ، وأنهم كانوا يبالغون فى تعليمه لأولادهم ، والحقيقة أن النحو وان لم يكن من علوم المقاصد والغايات ، كما يقول العلامة ابن خلدون ، وأنه لم يكن غاية فى ذاته ـ الا أنه وسيلة هامة وضرورية ، لاحسان القول ودقته ووضوحه ، من حيث سلامة تأليف الجمل والعبارات وصوابها من حيث النطق ، وللنحو مثل هذه الأهمية فى كل لغة من اللغات ، فكيف بالعربية ـ التى تفضل كل لغة بنحوها ، الذى هو قطعة من العقل العربى الخالص ، والذى يدل بقواعده المفصلة على اكتمال نمو اللغة وازدهارها •

ويقول ياقوت فى فضيلة (علم الأخبار) : وقديما قيل : ان علم النسب والأخبار من علوم الملوك وذوى الأخطار ، ولا تسمو اليه الا النفوس الشريفة ، ولا تأباه الا العقول السخيفة ، وقد قالت

الحكماء : الكتاب نعم الجليس والذخر ، انشئت ألهتك بوادره (١)، وأضحتك نوادره (٢) ، وان شئت ألهتك مواعظه ، وان شئت تعجبت من غرائب فرائده، وهو يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر ، والغائب والحاضر ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ، وهو ميت ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ، وهو مؤنس ينشط بنشاطك ، وينام بنومك ، ولا ينطق الا بما تهوى ...

وكان عبد الله محمد بن عائشة القرشي يقول : الأخبار تصلح للدين والدنيا ، قلنا : الدنيا قد عرفنا ، فما للآخرة ؟ قال : فيها العبرة يعتبرها الرجل ، وقال الله تعالى مخبرا عن قصة يوسف واخوته : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

وليس من عجب حين يجعل ياقوت علم الأخبار والأنساب من علوم الملوك ، فانه حين علم الجبار (تيمورلنك) وهو في الشام بأن ابن خلدون في دمشق استدعاه ، لسابق فضله في علم التاريخ والأخبار والأنساب ، ولأنه كان عمدة المحققين وقتئذ ، فأراد الطاغية التترى أن يأنس بحضرة هذا العالم الكبير ، بعد أسره هو وجماعة من العلماء ، كانوا قد خرجوا في جيش السلطان (فرج)

---

(١) (البادرة) : البديهة وهى ما يستقبل به الامر فجاة ، اى مفاجأته اياك بالطرائف .

(٢) (ندر الشيء) : شذو منه النوادر وشذوذها غرابتها ، واطراد الطرائف النادرة اى القليلة .

لمدافعة هذا الجبار عن الشام ، ويقال ان ابن خلدون خلبه بسحر بيانه ، فأكرمه وأخلى سبيله ، لكى يسافر الى مصر ليحضر له تاريخه ومقدمته المشهورة ، لكى يقف على ما يقوله عن حوادث الأيام الخوالى والأعصار والأدهار المواضى ، فذهب ولم يعد اليه ، وفى هذا ما يؤيد رأى ياقوت فى أن علم الأخبار والأنساب من العلوم ، التى يحفل بها الملوك .

وأما الكتاب فلا يجهل فضله ، ولكن ياقوتا تقديرا له ـ لا ينسى أن يزيدنا علما بأثره العظيم ، وهو يستهدف من ذلك أن يحببنا اليه ، وأن يغرينا باصطحابه ومصادقته ، وحمله للاطلاع عليه والافادة منه ، وأما أثر علم الأخبار فى النواحى الدينية ـ فهو يأتى من ناحية أنه يمس مواطن العبرة ، وقد أوضح ذلك ياقوت فى مقدمة (معجم البلدان) ، حينما أشار الى عنايته بالتحدث عن الأماكن والديار وغيرها والدقة فى ضبط أسمائها ، فقد كان من جملة مقاصده فى مسلكه أن نتأمل المصير ، الذى انتهى اليه من سكنوها ، وأن نملأ نفوسنا بالتفكير فى أحوال من ذهبوا ، لنكون على حذر شديد من غدنا وعلى بينة من حاضرنا ، ولنستعد لمستقبلنا ، لنسلك فى حياتنا أقوم سبيل ، وننتفع بهدى الصالحين الأولين ، والقرآن أصدق مثل وشاهد على ذلك ، فقد أكثر من ضرب الأمثلة بحوادث الماضين للعبرة والتذكرة ، وانما يتذكر أولو الألباب .

واتباعا لمنهجنا فى البحث سنعرض لبعض النماذج من معجم

الأدباء ، نقدمها للقارىء ، كما فعلنا بمعجم البلدان ، ولكن لن نكثر من عرض هذه النماذج ؛ لأنها من الناحية الفنية تجرى على نمط واحد ، فبعضها يغني عن بعض ؛ اذ كان الغرض رسم صورة واضحة للطريقة التى سلكها العرب فى تراجم الأشخاص والأعلام، وهذه الطريقة وان كان لنقاد الأدب فى عصرنا مآخذ كثيرة عليها ـ الا أنها أثرت أدب التراجم العربية ، وقدمت لنا رغم قصورها صورا لا تحصى عن شخصيات علمائنا وأدبائنا وشعرائنا ، حتى كان لنا من هذا البحر الزاخر مدد عظيم ، أغنانا بمعلومات كثيرة عن حياة هؤلاء الخالدين ، وفيما يلى ترجمتان أوردهما ياقوت فى باب الألف أوردهما على سبيل المثال :

١ ـ أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد ـ بديع الزمان الهمذانى •

بديع الزمان الهمذانى أبو الفضل ، قال أبو شجاع سيرويه ابن شهردار فى تاريخ (همذان) : ان الحسين بن يحيى بن سعيد ابن بشر أبا الفضل الملقب ببديع الزمان ، سكن هراة ، روى عن أبى الحسين (أحمد بن فارس بن زكريا) وعيسى بن هشام الاخبارى وكان أحد الفضلاء والفصحاء ، متعصبا لأهل الحديث والسنة ، ما أخرجت همذان بعده مثله ، وكان من مفاخر بلدنا ، روى عنه أخوه أبو سعد بن الصفار ، والقاضى أبو محمد عبد الله ابن الحسين النيسابورى ، قال وتوفى فى سنة ثمان وتسعين

وثلاثمائة ، قال شيرويه محمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفار : الفقيه أبو سعد أخو بديع الزمان أبى الفضل أحمد ابن الحسين بن يحيى لأبيه ، وأنه مفتى البلد ، وروى عن ابن لال وابن تركان وعبد الرحمن الامام ، وأبى بكر محمد بن الحسين الفراء ، وابن جانحاه ، وذكر جماعة وافرة ، قال : وأدركته ، ولم يقصد لى عنه السماع ، وكان فى الحديث ثقة ، ويتهم بمذهب الأشعرية ، ويقال جن فى آخر عمره الى أن مات ، وسمعت بعض أصحابنا يقول : كان يعرف الرجال والمتون ، ولد فى ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ومات ولم يذكره ، وذكره الثعالبى فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، كذا قال أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الجبار الفامى فى تاريخ هراة ، قال المؤلف وقد رأيت البديع فى عدة تصانيف من كتب العلماء ، فلم يستقص أحد خبره أحسن مما اقتصه الثعالبى ، وكان قد لقيه وكتب عنه ، فنقلت خبره من كتابه ، ولخصته من بعض سجعه قال :

بديع الزمان معجزة همذان ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وعزة العصر ، ولم نر نظيره فى الذكاء وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ولم ندرك

نظيره فى طرف النثر وملحه ، وعزر النظم ونكته (١) ، وكان صاحب عجائب وبدائع ، فمنها انه كان ينشد الشعر لم يسمعه قط، - وهو أكثر من خمسين بيتا - الا مرة واحدة ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها الى آخرها ، لا يخرم حرفا ، وينظر فى الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه ، ولم يره الا نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا (٢) ، ويسردها سردا ، وهذا حاله فى الكتب الواردة وغيرها .

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه ، فيبتدىء بآخره ، ثم هلم جرا الى أوله ، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم النثر ، ويروى من النثر النظم ، ويعطى القوافى الكثيرة ، فيصل بها الأبيات الرشيقة ، ويقترح عليه كل عويص من النظم والنثر ، فيرتجله أسرع من الطرف على ريق (٣) لم يبلعه ونفس لا يقطعه ، وكلامه

---

(١) (النكت) جمع نكتة : المعنى الدقيق المستملح ، وذلك ان من عادة الانسان اذا فكر فى أمر دقيق نكت الارض بعود بيده وهو يفكر فقيل لما استخرجه فى تفكيره (نكتة) .

(٢) (الهذ) : القطع فى القراءة ، تقول : هو يهذ القرآن هذا أى يتلوه عن ظهر قلب .

(٣) (على ريق) : أى فى لحظات لا تستغرق زمنا ، لقوة بديهته وفرط ذكائه .

كله عفو الساعة ، وفيض اليد ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليد للفم ، وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الابداع والاسراع ، الى عجائب كثيرة لا تحصى ، ولطائف تطول بأن تستقصى ، وكان مع ذلك مقبول الصورة ، حسن العشرة .

وفارق همذان سنة ثمانين وثلاثمائة ، وهو فى مقتبل الشبيبة ، غض الحداثة ، وقد درس على أبى الحسن بن فارس ، وأخذ عنه جميع ما عنده ، واستنفذ علمه ، وورد حضرة الصاحب ابن عباد ، فتزود من ثمارها وحسن آثارها ، ثم قدم جرجان ، وأقام بهامدة على مداخلة الاسماعيلية (١) ، والتعيش فى أكنافهم ، واختص بالدهخداة أبى سعيد محمد بن منصور ، ونفقت (٢)

---

(١) (الاسماعيلية) فرقة من الشيعة ، سميت بهذا الاسم ، لانها وقفت بسلسلة الامامة عند اسماعيل الابن الاكبر لجعفر الصادق ، الامام السادس ، وقد جعلوا الامامة بعد جعفر لابنه اسماعيل ، وكان جعفر قد عين ابنه اسماعيل خلفا له ، ولكنه عاد فعين ابنه الثانى (موسى) ، لانه لقى اسماعيل ثملا غير أن الاسماعيلية لم يسلموا بنزع الامامة من اسماعيل ، اذ كانوا يرون ان الامام معصوم ، وان شرب الخمر لا يفسد عصمته ، وانه يجوز لله ان يامر بشىء ثم ينسخه على نقيض ما قرر جعفر ، وتوفى اسماعيل بالمدينة فى سنة ١٤٣ هـ : ومن معتقدات الاسماعيلية — انكار صفات الله ، لانهم يقولون انه فوق متناول العقل ، والعقل عاجز عن ادراك كنهه ، ويقولون : ان الله لم يخلق العالم خلقا مباشرا ، وانما أبدع العقل الكلى بعمل من اعمال الارادة ، وهو الامر ، وان العقل الكلى محل لجميع الصفات الالهية ، وهو عندهم الاله ممثلا فى مظاهره الخارجية .

(٢) نفقت بضاعته : المراد قدرت مواهبه وعلومه .

بضاعته لديه ، وتوفر حظه من عادته المعروفة في اسداء الافضال على الأفاضل ، ولما أراد ورود (نيسابور) أعانه بما سيره اليها ، فوردها سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، ونشر بها بزه (١) وأظهر طرزه (٢) وأملى أربعمائة مقامة ، نحلها أبا الفتح الاسكندرى في الكدية (٣) وغيرها ، وضمنها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، ثم شجر بينه وبين الأستاذ أبي بكر الخوارزمي (٤) ـ ما كان سببا لهبوب ريح الهمذاني وعلو أمره ؛ اذ لم يكن في الحساب أن أحدا من العلماء ينبرى لمساجلته ، فلما تصدى الهمذاني لمباراته ، وجرت بينهما مقامات ومبادهات ومناظرات، وغلّب قوم هذا، وغلّب آخرون ذاك ـ طار ذكر الهمذاني في الآفاق ، وشاع ذكره في الأفاق (٥) ، ودرت له أخلاف الرزق .

فلما مات الخوارزمي خلا له الجو وتصرفت به أحوال جميلة،

---

(١) بزه : البز القماش والكلام مجاز .

(٢) (اظهر طرزه) : يريد اظهر مكنونات علومه وبراعته .

(٣) (الكدية) : الاستعطاء وحرفة السائل الملح .

(٤) (الخوارزمي) : هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الكاتب الشاعر اللغوى الاديب الرحالة ، فخر خوارزم وصاحب الرسائل المشهورة ، وفي آخر أيامه مني بمساجلة بديع الزمان الهمداني ومناظرته فخذل ، ولم يحل عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ .

(٥) (الافاق) : بضم الهمزة وتشديد الفاء جمع افق من بلغ النهاية في الفصاحة والعلم .

وأسفار كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان (١) وغزنة بلدة الا دخلهـا وجنى ثمرها ، ولا ملك ولا وزير ولا أمير ـ الا استمطر بنوئه ، وسرى فى ضوئه ، فخلصت له نعمة حسنة ، وثروة جميلة ، وألقى عصاه بهراة ، فاتخذها دار قراره ، وصاهر بهـا أبا على الحسين بن محمد الخشنامى ، وهو الفاضل الكريم الأصيل، وانتظمت أحواله بمصاهرته ، واقتنى بمعونته ضياعا فاخرة ، وحين بلغ أشده ، وأربى على أربعين سنة ـ ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وهاك نموذجا من رسائله ، وهو فصل من رقعة كتبها للخوارزمى ، وهذا أول ما كاتبه به :

« أنا لقرب الأستاذ كما طرب النشوان ، مالت به الخمر ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصـــفور بلله القطر ، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب » .

والترجمة الثـــانية لابراهيم بن على الحصرى القيروانى (٢) الأنصارى .

---

(١) (سنجستان) : ناحية واسعة بين فارس والسند ، ومعنى اسمها بالفارسية : البلاد الجبلية ، فتحها عاصم بن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) (القيروان) : مدينة عظيمة بالمغرب الادنى ، بناها عقبة بن نافع الجهنى سنة ٥٠ هـ ، وجعلها معقلا وحصنا لعسكره ، ومقرا لولاة افريقية ، ومعنى القيروان : القافلة اذا خرجت لمحاربة أو غزو .

قال ابن رشيق : مات بالمنصورة من أرض القيروان سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، وقد جاوز الأشد (١) قال : وكان شاعرا نقادا عالما بترتيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب فى الاستعارة تشبها بأبى تمام فى أشعاره ، وتتبعا لآثاره ، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء ، لقوله فى بعض مقطعاته :

يا هل بكيت كما بكت ورق الحمائم (٢) فى الغصون
هتفت سحيرا والربى للقطر رافعة الجفون
فكأنها صاغت على شجوى شجى تلك اللحون
ذكرتنى عهدا مضى للأنس منقطع القرين

والذى أعرف أنا من تصانيفه كتاب (زهرة الآداب) وكتاب (النورين) (٣) اختصره منها ، وهما يتضمنان أخبارا وأشعارا حسانا وكتاب المصون والدر المكنون ، وله عندى كتاب الجواهر فى الملح والنوادر ، كتبه عبد القادر البغدادى .

رأى فى تراجم معجم الأدباء والمامة بتاريخ طبعه وقيمته الأدبية والتاريخية :

(١) (الاشد) : بلغ اشده اى بلغ قوته ، وذلك ما بين الثمانى عشرة سنة الى الثلاثين .

(٢) ورق الحمائم : جمع ورقاء ، وهى من الحمام كل ذى طوق .

(٣) قال الصفدى : ان اسمه نور الظرف ونور الطرف .

يذهب الأستاذ شفيق جبرى الى آن اضطراب الفكر الرياضى سمة شائعة فى أدبنا ، وبخاصة أدب التراجم ، ويمثل لذلك بتراجم ياقوت فى معجم الأدباء ، وبغيره من أدباء العرب الذين ألفوا كتبا معروفة فى التراجم الأدبية ، ويقول : ان ياقوتا قد وقع فى ذلك بالرغم من شهرته فى فن تراجم الأدباء وغيرهم ، ومع حرصه الشديد على استقصاء كل ما يتعلق بالشخصيات التى يترجم لها ، فهو حين يتحدث عن نسب الذين يترجم لهم - وهذا أمر طبيعى - ينتقل سريعا الى الحديث عن أعمال المترجم لهم ، وما اشتهروا به ، وقد يذكر سنة الوفاة مهملا سنة المولد ، ومن الغريب أن تذكر سنة الوفاة فى صدر الترجمة ، وقد كان ينبغى أن تذكر سنة الولادة •

ونحن اذا تتبعنا التراجم الأدبية الحديثة وجدنا لها عناصر ومقومات أساسية ، تقوم عليها الترجمة ، لكى تسير فى خطها الطبيعى ، وهى تمثل حياة العالم أو الأديب من مولده الى وفاته ، وياقوت لا يسير بتراجمه فى هذا الخط ، وينأى عنه •

فاذا أخذنا ترجمته لبديع الزمان الهمذانى نموذجا للدراسة - فاننا نراه يبدأ الحديث عنه بذكر نسبه ، ثم يذكر سنة وفاته ، ويهمل سنة مولده ، وينقل حديث الثعالبى عنه فى يتيمة الدهر ، فيقول : « هو معجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وعزة العصر ، ولم نر نظيره فى الذكاء وسرعة

الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس » .

ولا شك فيما في هذا من الاضطراب في التسلسل المنطقي والترتيب الزمني ، الذي يجب أن يراعى في سرد قصة حياة البديع ، فقد كان من الطبيعي بعد الحديث عن نسبه ـ أن يتحدث ياقوت عن شيء من طفولة البديع ونشأته الأولى ، ومن قام بتثقيفه ، وكيف تثقف وهو صغير .

ثم نراه يذكر أنه سكن (هراة) ، ولم يوضح لنا لماذا ترك همذان مسقط رأسه ، وأقام بهراة ، ويستمر في نقل أشتات من المعلومات عنه ، مما يقوله الرواة ، ويحدد عمره بأربعين سنة ، ويقول انه توفي في سنة (٣٩٨ هـ) ، وما دام لم يبين سنة مولده فكيف يستطيع تحديد عمره ، لقد نقل ذلك طبعا ، وسمعه من أفواه الناس ، وكان من الضروري أن يتحقق من سنة ولادته ، ليكون منطقيا في تحديد سنه متى عرفت سنة الوفاة ، والذي لا ريب فيه ان الاضطراب الفكري سائد في الترجمة،ثم يذكر ياقوت طرفا من رسائل البديع ، وبخاصة مساجلاته الأدبية للخوارزمي ، وهذا مما يحمد لياقوت ؛ لأن التسجيل الأدبي بالنسبة للأدباء أمر ضروري .

أما ما نريده من الاضطراب الفكري في سرد مادة الترجمة، فانه يقوم على فقدان عناصر التسلسل الطبيعي ، وربط أجزاء الترجمة بعضها ببعض ، بحيث يوضع كل جزء منها في موضعه ،

ولعل منشأ هذا الاضطراب الفكرى راجع الى عـدم توافر المنابع الصافية والمصادر الدقيقة ، التى تمد ياقوتا بمادة كاملة مرتبة •

ولكننا مع تسليمنا بأن هنـاك اضطرابا فى تراجم ياقوت على نحو ما يقول الأستاذ (شفيق جبرى) ـ فان هذا لا يقلل أبدا من قيمة العمل الأدبى العظيم ، الذى قام به ياقوت فى معجم الأدباء ، مع ملاحظة اختلاف المنـاهج الأدبيـة فى عصرنا عن عصر ياقوت ويقول الأستاذ (جوسـتاف جرونيبـاوم) فى كتـابه (حضـارة الاسلام) : أما كتاب ياقوت المتوفى سنة ١٢٢٩ م (معجم الأدباء) فهو وثيقة تدل على سعة اطلاع هـائلة ، وهو أحسن من الأغانى نظاما وتنسيقا للحقائق ، ولكن شخص العالم يكاد يكون فى كل موضع من الكتاب تقريبا ـ مختفيا وراء تحصيله الثقافى ، وفيما عدا حالات فردية قليلة ـ فان شخصيات الأدباء تهبط الى حال من الغموض ، لا يستبين الانسان معها شيئا ، والكاتب العربى متفوق فى ملاحظته لدقائق الأشياء وتفاصيلها ، وأنى يشق له غبار فى قصـــه للنوادر المحتوية على الخصـائص الحـادة النفـاذة ، ولكنـه فى معظم أمره لا يقدر ، أو لعله يرغب فى التأليف بين انطباعاته ، حتى تتكامل ، مؤثرا أن يسلكها احداها مع الأخرى فى سـمط واحد ، مع أقل قدر من الرعاية لوحدة الشخصـية ، التى يرسـمها ، أو للتأليف الأدبى الذى يعمل فيه •

ولا يختلف ما يزعمه (جرونيباوم) عما ينسبه شفيق جبرى

الى ياقوت ، فهما متفقان على أن الترجمة الأدبية باعتبارها عملا أدبيا كاملا ، وفنا له أصوله وقواعده - لم تكتمل بعد عند أصحاب كتب التراجم من المؤلفين العرب ، ولم تتخذ عناصرها الأساسية .

غير أنه قد يكون من التجنى على الواقع أن نقيس فنا أدبيا فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، بما وصل اليه هذا الفن فى القرن الرابع عشر الهجرى مثلا ، فان كان العرب قد فاتهم فى تراجمهم الأدبية ذلك التفكير الرياضى ، فلأنهم حين ترجموا الثقافات الأجنبية الى اللغة العربية - لم يحاولوا أن ينقلوا أدب اليونان ، لأنه أدب وثنى ، يتحدث عن بنات الآلهة وأبناء السماء ، ولأنهم كانوا يعدون أدبهم من أسمى الآداب ؛ لذلك أهملوا متعمدين اصطناع المناهج الأدبية لدى الأمم الأخرى وبخاصة اليونان .

ومع ذلك فان ياقوتا قد وفق فى أكثر تراجمه ، ففى ترجمة بديع الزمان التى قدمناها مثالا للدراسة - قد أعطانا فكرة واضحة عن حياة البديع الأدبية ، ورسائله ومساجلاته للخوارزمى ، وأما تقصيره من حيث تصوير النشأة الأولى لكاتب المقامات المشهور ، والعوامل التى لونت ثقافته الأدبية باللون الذى عرف به ، فان الدراسات الأدبية وقتئذ عند العرب - كان لها طابعها الخاص المتأثر بظروف المجتمع العربى .

وبالرغم من كل ما أشرنا اليه - فان تراجم ياقوت فى معجم

الأدباء ذات قيمة أدبية وتاريخية ، وأنها ما تزال الى اليوم مرجع الدارسين فى هذا الميدان ، وما يزال (معجم الأدباء) منبعا فياضا ، يغترف منه الأدباء ومؤرخو الآداب ؛ اذ مما لا شك فيه أن فيه فيضا زاخرا عن أخبار النحاة والشعراء والنسابين والاخباريين والمؤلفين وغيرهم ، فمن شاء التأليف فى أى ناحية من نواحى الأدب أو اللغة أو التاريخ – رجع اليه ، فهو موسوعة عربية كبرى ، بل لا نعدو الحق اذ قلنا : « انه كنز ثمين من كنوز اللغة ، وثروة ضخمة من ثرواتها ، ومورد عذب من أعذب مواردها ، وهو عش الأدب ووكره ، ونبع الشعر ومتفجره ، ومجمع النثر ونهره ومجراه ومنهمره ، وموئل الدر وبحره ، وهو البلاغة مسطرة والطلاوة محبرة » .

واذا وضعنا أمامنا الظروف التى كانت تحيط بياقوت ، وغيره من علمائنا وأدبائنا فى تلك العصور – فانه لا يسعنا الا أن نحنى لهم الرءوس تقديرا واحتراما ، فقد استطاعوا أن يجمعوا هذا التراث الخالد فى أيام كانت تقتضيهم أن يشدوا الرحال بين وقت وآخر ، ويتجشموا مشاق السفر من قطر الى قطر ، معرضين أنفسهم لكثير من الأخطار ، وكانت غايتهم أن يزوروا مكتبة عامرة بنفائس الكتب والمخطوطات ، أو يأخذوا عن شيخ من الشيوخ ، أو أستاذ سارت بذكره الركبان ، فحققوا بذلك ما كانت تنشده نفوسهم العالية ، وتركوا لنا أمجد تراث تعتز به البشرية جمعاء .

ان معجم الأدباء قاموس الأدباء والعلمـاء يجـد فيه القارىء صورة دقيقة لحركة العلم واللغة والأدب فى الأمة الاسلامية فىمدى ستة قرون تقريبا ، ففيه تراجم اللغويين والأدباء والنحاة والشعراء وغيرهم فى كل فن وعلم ، وما ألفه المؤلفون فى كل عصر ، وفى كل علم من العلوم الأدبية والشرعية والاجتماعية والطبيعية ، ففيه تصوير دقيق للحياة الفكرية والتيارات الأدبية فى هذه الحقبة التى تناولها من التاريخ الأدبى للأمة العربية .

وكان معجم الأدباء قبل أن تتكامل لنـا أجـزاؤه ـ يقع فى مجلدات متفرقة فى مكاتب (أوربة) و (الآستانة) ، حتى نشط العالم المستشرق الانجليزى (مرجليوث) للاشـتغال بجمع شتات هذا السفر العظيم ، والوقوف على طبعه ، وقد اهتمت لجنة تذكار (جيب) بنشر ما يمكن العثـور عليـه من أجـزائه ، وقد اعتمـد (مرجليوث) فى نشر هذا المعجم على النسخة التى عثر عليهـا فى (بومباى) بالهند ، ثم نقلت الى مكتبة (بوريل) بجامعة (أكسفورد) بانجلترا ، كذلك اعتمد الناشر فى تصحيحها على المؤلفات التى نقل عنها ياقوت ، أو التى نقلت عنه .

ومن الكتب التى نقلت عن ياقوت (معجم الصفدى) المسمى الوافى بالوفيات ، وفى مكتبة (بوريل) أحد عشر مجلدا منـــه ، وهو ينقل عن ياقوت بتوسع كبير ، ثم كتـاب (روضـة الجنات) المطبوع بالهند سنة ١٣٣٤ هجرية ، وفيه مقتبسات من معجم ياقوت

ومعجم السيوطى ، ومنه عدة نسخ مخطوطة ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، ومعجم القفطى ٠

واستعان على تصحيحه بعلماء ثقات ، ومن هؤلاء (العلامة اللغوى الكبير ابراهيم اليازجى) ، فقد راجع ما يقرب من نصف الكتاب، وراجع النصف الباقى (العالم الناقد قسطا (بك) الحمصى) صاحب كتاب تاريخ النقد فى الأدب العربى ، وقد اشترك فى ابداء بعض الملحوظات على طبعة (مرجليوث) المرحوم (الشيخ عبد العزيز جاويش) و (الشيخ محمد حسنين الغمراوى (بك))، ثم أعاد الناشر طبع الكتاب مرة ثانية ، وعندئذ أدخلت عليه تحسينات وتنقيحات ، استمدها من تلك الملحوظات القيمة ، التى أبداها كبير اللغويين (الأب أنستاس مارى الكرملى) ، واعتمادا على بعض المراجع الكبرى كطبقات (الزبيدى) وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وهو يتناول فقرات كثيرة ، أوردها ياقوت فى معجمه، و «نشوار المحاضرة» للتنوخى وغيرها، ثم قامت دار المأمون بطبع هذا المعجم طبعة ثالثة بمطبعة الحلبى ، وذلك بالشكل الكامل ، وبحروف كبيرة ، فكبر حجم المعجم حتى صار عشرين جزءا ، وقد أشرفت (وزارة المعارف) وقتئذ (التربية والتعليم) الآن - على هذه الطبعة، وكلفت أساتذتها الأعلام - القيام بتصحيح الطبع ، فأحسنوا الشرح والتعليق ، وألحق بكل جزء فهرس لأعلامه ، كما ألحق بالجزء الأخير فهرس عام للأعلام ، على حسب ترتيب حروف المعجم ،

وفهرس آخر للطبقات ، فطبقة الأدباء والشعراء لها فهرس ، وطبقة الأدباء فقط لها فهرس ، ثم طبقة الأدباء النحويين ، وطبقة الأدباء اللغويين ، وطبقة النحويين اللغـويين ، وطبقة الشـعراء النحويين اللغويين ، ولا شك فيما لهذه الفهارس من قيمة فنية وعلمية فى تيسير البحث فى المعجم ، والانتفاع بمـادته الغـزيرة ، وتلك طريقـة حديثة ، ابتدعها أفاضل المستشرقين ، الذين أخلصـوا فى البحث للبحث نفسه والتنقيب والضبط ، وتحقيق الأصول ، وتتميز طبعة دار المأمون فضلا عن هذا بحسن الاخـراج وبالشرح اللغـوى ، والتعريف بكثير من الرجال ، الذين أشار اليهم ياقوت أثناء تراجمه، كما تشتمل على زيادات وطرف أدبية ولغوية •

ياقوت فى معجميه

يبرز ياقوت فى معجميه (معجم البلدان) و (معجم الأدباء) عملاقا كبيرا من عمالقـة التأليف فى الموسـوعات الأدبية والعلميـة والتاريخية ، وقد أشرنا من قبل الى هذين المعجمين اللذين ألفهما، وهو الذى بدأ حياته الأولى كاتبا وحاسبا صغيرا عند سيده عسـكر ابن أبى نصر الحموى •

وانا لندهشن حقا لهذه الطاقة العلمية والأدبية الكبرى لياقوت، التى أنتجت هذين الكتابين أو الموسوعتين، وكان من الانصاف لهذا

العالم الكبير أن نطيل الوقوف أمام هذين الأثرين الجليلين ؛ لأنهما فاقا كل آثاره •

فقد دل أولهما وهو معجم البلدان على أن (ياقوتاً) كان عالما جغرافيا أضاف الى حقل الجغرافية ثروة علمية نفيسة ، وقد وصف العالم الايطالى (ألدوميلى) Alclomieli (فى كتابه العلم العربى وأثره فى تطور العلم العالمى) : معجم البلدان « بأنه الكتاب الزاخر ، والقاموس الجغرافى العظيم » كما أشار فى الوقت نفسه الى أن التأليف الجغرافى قد هبط مستواه فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، اللذين عاش ياقوت فى أواخر الأول منهما وأوائل الثانى ـ الا أن كتابه كان وما يزال فى مقدمة المراجع الجغرافية العربية الاسلامية ، وقد نوهنا عن منزلة هذا المعجم وقيمته العلمية والأدبية والتاريخية والجغرافية فى حديثنا عنه من قبل •

وأما معجم الأدباء فهو دليل آخر على سعة اطلاع ياقوت فى النواحى الأدبية ، وفى فن التراجم بالذات ، والذين درسوا المعجمين معا يدركون الى حد كبير أن ياقوتا ، وهو المؤلف العربى الاسلامى الكبير ـ كان خبيرا حقا بتأليف الموسوعات العلمية والأدبية ، وأن ثقافته التى اشتهر بها ـ وان كانت جغرافية ـ الا أنه أحسن مزجها بالأدب ؛ اذ كان يؤمن بأن التعبير الفنى وسيلة قوية لابراز الفكرة العلمية فى صورة واضحة ، لأن الأدب فيما يعتقده نتاج الفكر ، مثله فى ذلك مثل العلم وان كانت العاطفة هى

الظاهرة العقلية البارزة في الأدب ، فاذا استخدم التعبير الادبي في الصـــياغة العلميـــة ـ التقى الأداء الأدبي بالتفكير العلمي ، وعندئذ تزداد الفكرة العلمية وضوحا ، وتشتد قربا من أذهان عامة المثقفين .

ولا يسـعني وأنا أختم حـديثي عن ياقوت ، الا أن أهيب بشبابنا من عرب ومسلمين ـ أن ينتفعوا بآثار علماء المسلمين ، في كل مجال من مجالات العلم والأدب ، كما أهمس في آذان الباحثين الذين يهتمون بالدراسات العربية الاســلامية ـ بأن يتوافروا على استخراج البحوث ، التي أشرت اليها في معجم البلدان ، والله تعالى الموفق .

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٢١٦١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى 1117 شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ /٧١٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القـــاهرة

٣٦ شارع شريف ت : ٤٠٠١٢ ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى ت : ٤٦٣٨٣ ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان ت : ٢١١٨٧ الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ الجيزة : ١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥ المنيا : شارع ابن خصيب ت:٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ اسيوط : شارع الجمهورية ت:٢٠٣٢
المحلة الكبرى: ميدان المحطة ٤٢٧٧ اسوان : السوق السياحى ت: ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق: الشركة القومية للتوزيع – بغـــداد – ميدان التحرير – عمـــارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر